
رواية
وطن أنة الفراق
فاطمة الشيشيني
ساحر الكتب
والتوزيع



وَظنّ أنَّه الفراق

فاطمة الشيشيني


ساحر الكتب



وَظنَّ أنَّه الفراق

رواية

فاطمة الشيشيني





إهداء

إلى الذين عهدنا صدقهم، هؤلاء الذين لا يتغيرون مهما طرأ عليهم، وإلى نبض أحدهم الذي خُذل كما لم يتوقع يومًا أن يحدث له.

إلى المنكسرةِ قلوبهم والوحيدين جدًّا الذين لا يستطيعون البوح ببؤس ما في دواخلهم.





مقدمة

قيل في معنى الحب أنه سكينة وود ونور لقلبٍ أرهقته متاعب الدنيا، ولقاء لروحين بعد طول انتظار، وأمان لأنك تدرك أن هناك من لن يفلتك مهما طرأ من حدث.





«على الله جبر كسر تلك القلوب التي أرهقت كما لم تتوقع
يومًا أن يحدث لها»





وبشَّرها النبي العظيم بطفلتها قبل أن تضعها بخمسةِ أشهر، بعدما دخلت في نومها جراء انهيارها من زوجها «عمران»، وكأن الله قدَّر لنعمة أن يجبر كسر خاطرها برؤيتها لأطهر البشر في نفس الليلة التي قسى عليها عمران بإظهاره الحزن حينما علم أنها ستضع أنثى، لقد قاطعها وكأنها المسئولة عن نوع ما في رحمها، ولم ينطق معها بكلمةٍ بعدما انتهت الطبيبة من فحصها، ولم تستطع نعمة أن تُخرج زوجها من حزنه، ولم يعطها هو المساحة لأن تطيب خاطره؛ فقد أوصلها إلى البيت وخرج هو لا يعرف قبلته، ودخلت «نعمة» غرفتها لا تستطيع حلًا إلى أن وجدت المصحف بجوارها، فتنهدت وكأنها وجدت ضالتها، وأسرعت في الوضوء متجهة ثانية نحو غرفتها التي اتخذتها مسجدًا، وأمسكت بكتاب ربها وظلت تقرأ وتبكي إلى أن هدأ صدرها مما حدث، فقامت وصلت ركعتين لله عز وجل وهي تدعو ربها أن تكون ما في رحمها أعظم من الرجال، وأن يجبر الله كسر ما فعله زوجها بقلبها، ودخلت «نعمة» في النوم، وقدر الله لها أن يأتيها النبي في منامها مبتسمًا ليقول لها ثلاث مرات «سيهبكِ الله مُسلمة»، وبعد تلك الرؤية وضعت نعمة أحزان الدنيا جانبًا، فيكفيها جبر خاطرها من الله بإرساله لها أعظم ما قد



يتمناه المرء من رؤيته في منامه، ولم يمر على ذلك أكثر من ساعةٍ حتى وجدت زوجها يطرق بابها، فأدخلته وبشرته بما رأت، فابتسم لها مؤمِّنًا على أن ما ستضعه سيكون اسمها مُسلمة، ومن بعد ذلك دخل «عمران» في صمتٍ ثم باح لزوجته عما في نفسه من قلق، إنه لم يحزن بشأن هبة الله له الأُنثى وإنما لإيمانه بأن الإناث ليس لهن مكان في بلاد الحروب، ولقد قدر الله لبلاده أن تكون داميةً، وأن يقيم بها من ليسوا لهم بها حق، وأن فزعه على ابنته القادمة أقوى من أيةِ مثالياتٍ قد يسلكها أحدهم إن كان في مكانه.

إن «عمران» يؤمن بذلك لأن خسارته من الحرب في بلاده كانت والدته وأختيه، وبقى له أخوه الأكبر «مُفيد» الذي استطاع أن يفر من العدو حينما دكوا عليهم منزلهم القديم، بينما الأخريات استسلمن سريعًا للموت دون أدنى مقاومة، ولقد نجى «عمران» بالقدر الذي كتب له أن يكون خارج المكان كله في ذلك اليوم ملبيًا لرغبة أحد أصدقائه في إفطاره عنده يوم الخامس عشر من رمضان.

لن ينسى عمران تلك المأساة ما دام حيًا، ولن ينسى استباحة الآخرين لدم أهله في أعظم شهور الله المحرم فيها القتال، ولكن وبعد أن باح عمران بكل ما في نفسه لنعمة لم تستسلم هي لكلماته وكثير بؤسه، بل واجهته بتاريخهم الإسلامي العظيم، وما فيه من نماذج للنساء اللواتي أصبحن رائدات في مواجهة أعدائهن بصلابة، واللواتي كان لهن دور لا يقل عن الرجال في الحفاظ على كرامتهن وأوطانهن ودينهن، وذكرت له على سبيل المثال لا الحصر أم سليم بنت ملحان (أم أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم) والتي

كانت تخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته، والتي اشترطت على زوجها أبو طلحة الأنصاري حينما خطبها أن يكون مهرها إسلامه، فأسلم وتزوجها.

كل كلمات نعمة لم تشفع لإخراج «عمران» من رهبته، وأخبرها بقراره النهائي الذي فكر فيه مليًا، وهو أنهم سيخرجون من المكان الذي ولدوا فيه وتربوا وعاشوا به لأكثر من خمسة وثلاثين عامًا ليتوجهوا إلى أطراف البلد، إلى حدودها، إلى حيث لا حرب ولا دماء، أخبرها بما قرره دون أن ينتظر منها ردًا أو مناقشة، رغب «عمران» أن يحمي ابنته على طريقته دون أن يفهم أنه بذلك يسلبها حقها في الدفاع عن أحقيتها في البقاء على أرضها، دون أن يعي أنه وأثناء حفاظه على حياتها ينفي عنها روح التمسك بكل ما هو من حقها، فكيف لمن لم تتعلم أن تصمد في مواجهة من يسلبون وطنها أن تواجه أحقيتها في أي شيءٍ آخر سواء حلم أو حب أو حتى حياة؟

حل المساء على أسرة «عمران» دون حديثٍ ودون روح لخلع ثوب الاستسلام، إلى أن طرقت الباب بقوة «أحلام» ابنة «مفيد» الأخ الأكبر لـ «عمران»، وإذا بها تستنجد بـ «نعمة» لتساعد والدتها «رضوانة» في وضع حملها.

ارتدت نعمة ثوبها الأسود، ووضعت غطاء رأسها، وأسرعت خلف زوجها الذي سبقها مع «أحلام» بعدة خطواتٍ متجهين نحو منزل «مفيد» وبعد أقل من ساعةٍ وبعدما استعانوا بالطبيبة «سمر» الساكنة بعدهم بمنزلين؛ صرخ المولود الجديد صرخة الحياة، والمتفق على اسمه مسبقًا من قِبل «مفيد» و»رضوانة» أن يكون «يوسفًا».



اتسعت الأرض سعادة بقدوم يوسف، وأُسدل الستار على كل الأوجاع التي مرت بتلك الأسرة لمدة لا تزيد عن الثلاث ساعات، ومن بعد ذلك سمعوا القصف خارجًا، فارتعبوا كما لم يحدث لهم من قبل، لعل خوفهم تلك المرة أكثر من ذي قبل لفزعهم على المولود الجديد، ولوهن «رضوانة» التي لم تأخذ أنفاسها بعد، ماذا هم الآن بفاعلون وهم يدركون جيدًا ضعفهم مقابل بنادق أعدائهم الأحدث في العالم على الإطلاق؟ ماذا تفعل يا «عمران» الآن؟ أتنجو بنفسك بالهروب كما فعلها أخوك الأكبر سابقًا؟ وماذا عنك يا «مُفيد»؟ أتكرر فعلتك الأولى التي تلوم ضميرك عليها لليوم وتعيش للمرةٍ الثانية بذنب أنك جبُنت أمام الموت ولو كان المقابل هلاك أهلك؟

لم يفكروا طويلًا، وإذ ببابهم يُطرق من قبل الشيخ «يونس» الذي جاء مسرعًا ليأخذ ابنته الطبيبة «سمر» التي لم تعاود منزلها بعد وضع يوسف، والتي أقسمت عليها نعمة أن تؤانسهم في ليلتهم، أرعبهم طرق الباب، فزعهم ذلك الحدث العادي لأن كل ما حولهم يشع ظلمًا وموتًا ودمارًا، أخيرًا تشجع عمران بفتح الباب حينما علم بالطارق، ودخل الشيخ باحثًا عن ابنته بقلبه قبل نظره، والتي اتجهت هي نحوه وكأنها وجدت ضالتها من الأمان، هي قداسة الأب حينما يعامل أولاده بما يرضاه الله عز وجل.

عشر دقائق أخرى من اللا شيء، ومن عدم القدرة على مواجهة الأمر، ومن عدم استطاعة أحدهم للتحرك تجاه أي مكانٍ آخر آمن، وأي أمنٍ يذهبون له والموت يحاصرهم من كل اتجاه؟ وظل الجميع يبحث عن خيط أملٍ مناجين الله ألا يحدث لهم أو لغيرهم مكروه، وفي



ذلك الحين وجدوا صوت انفجارٍ عالٍ وكأنه وقع فوق رؤسهم، فالتحم الجميع بعضهم ببعض مرددين قول الله عز وجل وراء الشيخ «يونس»: «قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب».

لقد أصاب القصف الثلاثة منازل اللاتي بجوارهم، من بينهم منزل الشيخ يونس، فجثا الشيخ على ركبتيه، ثم سجد لله عز وجل وهو يشكره بصوتٍ مسموع للجميع قائلًا:

- لقد جعلت ابنتي سمر نجاةً لي، فاللهم اجعلها نجاة لكل محتاج يا الله، وكن لها في كل أوقاتها.

وبكى الشيخ بكاءً طويلًا وكأنه لا يصدق أن الله نجاه من حيث لا يحتسب.

هدأ القصف، وسكن قلب الجميع قليلًا، وباتت فكرة الذهاب إلى الحدود أكثر ضجيجًا في رأس «عمران» الذي أبلغ أخوه «مفيد» بما ينتوي عليه، فصمت الأخير عن إبداء الرأي، لكن الشيخ «يونس» اتخذ من المعارضة سلاحًا له ضد ما قاله «عمران»، وأعرب عن إيمانه بما في نفسه، وهو عدم ترك الحق لمن طمع فيه بدون وجه حق، وإلا انتفت صفة الإنسانية بالتخلي وحل بدلًا عنها سمة البقاء للأقوى مثل قانون الحيوان، وهذا ما لا يجب علينا الانغماس فيه وإلا فقدنا قداسة الحياة وما خلقنا لأجله وانغمس الظالم في ظلمه أكثر؛ لأنه يدرك جيدًا أنه مهما فعل لن يقاومه صاحب الحق، ما عبَّر عنه الشيخ «يونس» دخل في عقل «مفيد» الذي رفض الانسياق وراء رغبة «عمران» والذهاب معه، لكنه بعدما صمت وامتنع عن الحديث لفترةٍ قرر معارضة عمران بكل ما امتلك من قوة، أما «عمران» هز كلام الشيخ «يونس» عقله لكنه لم



يُحرك ساكنًا في قلبه الذي ظل متمسكًا بما انتوى عليه من رغبته في الانسحاب من كل ذلك الذي يمر به الوطن، وتمسك أكثر حينما شعر برفض مفيد التام للأمر.

إن عمران لا يحب ألا يحترم قرراته أحد، ويتنبى فكرة إن لم تكن مع فكرتي فأنت ضدي، فضرب بمعارضة أخيه له عرض الحائط وظل متمسكًا برأيه.

بعد ما يقرب من الستين دقيقة انسحب كل واحد إلى منزله، وقرر الشيخ يونس الذهاب إلى أخيه بعدما دُك منزله، وأثناء سير نعمة مع زوجها عبَّرت له عن قناعتها بالبقاء في وطنهم حتى لو كان الموت هو مصيرهم، فسيكون أشرف لهم ألف مرة من العيش بخزي الانسحاب وخيرًا من الشعور بالمهانة لعدم مقاومتهم ذلك الأذى الذي قدر الله لهم أن يكونوا عليه.

لم يُعطِ «عمران» لرأى نعمة أي وزن، وأعطاها مهلة لحين أن تضع طفلتها ومن بعدها ليرحلوا حيث يقدر الله حين ذلك.

ومنذ ذلك الحين فعلت «نعمة» كل ما في وسعها لإرجاع زوجها عن رأيه، ولقد أوصت «مفيد» و«رضوانة» ومن بعدهما الشيخ «يونس» أن يحاولوا مع «عمران»، لكن شيئًا لم يحدث بعد كل ذلك، وبقيَ الوضع كما هو عليه.

مرت الخمسة أشهر المتبقية على موعد وضع نعمة لطفلتها كما الأيام المعدودة، ومر على ميلاد «مسلمة» اليوم عشرة أيام، ومرت الأيام بين نعمة وعمران هادئة، غير أن نعمة لم تكن مطمئنة لعمران، تنتظر حديثه لها عن ترك منزلهم في أيةِ لحظة، إلى أن اطمئنت قليلًا



من «رضوانة» التي أخبرتها أن كل الطرق الشرعية لترك البلد مغلقة، ومن الصعب ترك أحدهم للبلاد في الوقت الراهن، ولم يمر على ذلك الحدث أسبوعان وأعلن «عمران» لنعمة أنهم سيسافرون بعد ثلاثة أيام، واندهشت الأخيرة من ذلك الحديث، فكيف لهم أن ينفذوا ما رغب به زوجها وكل الطرق المشروعة مغلقة أمامهم؟ وتساءلت «نعمة»: هل أصبح أمر السفر متاحًا لنا بالطرق الشرعية؟ وباغتها زوجها بعدم تيسر ذلك، وأعلن لها أن عليهم السفر عن طريق معبرٍ تحت الأرض، ومنه سيجدون أنفسهم عند الحدود، ومن هناك يستطيعون الاختيار بين البقاء في تلك المنطقة أو الهجرة نهائيًا نحو البلد المجاورة لوطنهم، وأن ذلك سيكون متيسرًا لهم عن طريق رجلٍ سيسهل لهم إجراءات تلك الهجرة مقابل المزيد من المال، اعترضت نعمة على ما عرضه عليها «عمران» كما لم تفعل معه من قبل، اعترضت خوفًا على «مسلمة» من نفقٍ غير آمنٍ سيدخلونه ولا تستطيع تحديد متى الخروج منه، اعترضت على سيرهم تحت الأرض في الظلام وقلة الأكسجين، وإن تحملت هي وزوجها، فهل هبة الله لهما ستصمد أمام تلك الظروف القاسية؟ ورفضت «نعمة» المجازفة بصغيرتها، إنه من وجهة نظرها لا يحافظ على حياة «مسلمة» بل يعرضها لموتٍ آخر وبطريقةٍ قد لا تخطر على قلبه، وثار «عمران» على «نعمة» منذرًا إياها أن ما انتوى عليه ورتب له هو ما سيكون، وبعد تلك المشادة بيوم واحد راحت «نعمة» تتحدث إلى زوجها بهدوءٍ لعلهما يتوصلان معًا إلى حلٍ وسط يرضي كليهما، واقترحت عليه أن ينتظرا حتى تفتح الطرق الشرعية بابها لسفرهم، وحينها فقط لن تعترض بكلمة، ولن تؤجل وعدها له بتنفيذ رغبته، ولم



يتأخر «عمران» بالموافقةِ على مقترح زوجته إلى أن اكتشفت نعمة فيما بعد نواياه، ففي فجر ثالث يوم وهو اليوم الذي كان قد حدده «عمران» للتوجه نحو النفق، قامت «نعمةً» من نومها لصلاة الفجر، وإذ بفاجعتها الكبرى أنها لم تجد «مسلمة» إلى جوارها، فانتفض قلبها رعبًا على فلذة قلبها، وراح صوتها يعلو في المكان تستنجد بـ«عمران»، لكن أين هو الآخر؟ إنه غير موجودٍ بالمنزل، فتخيلت أنه ذهب لصلاة الفجر في المسجد، فارتدت ثوبها وغطاء رأسها وتوجهت بقلبٍ متلهف للقاء زوجها لتبث له فزعها في ضياع ابنتها، وقابل لهفتها الشيخ «يونس» وفزعه منظر بكائها وسؤالها عن زوجها.

لقد أخبرت «نعمة» جميع الواقفين أنها تتلهف زوجها لينجدها في إيجاد ابنتيهما المفقودة، وحاول الجميع البحث عن «عمران» في المسجد لكن لم يأتِ أحد بنتيجة إيجابية، وأكد الجميع على عدم وجوده، واقترح الشيخ يونس أن يذهبا إلى «مفيد» لعلهما يجدان ضالتهما عنده، وما كان لنعمة إلا أن توافق على ما اقترحه الشيخ.

قلب «نعمة» كان يسير قبل قدميها مناجيًا الله أن تجد زوجها وابنتها عند العم «مفيد»، وأن لا يصيبها فيهما بمكروه، وكانت المفاجأة حينما وصلت إلى مفيد، لقد أعطاها خطابًا قد تركه «عمران» معه لها، ولم ينطق «مفيد» بكلمةٍ بعدما أقسم لها أن «عمران» أوصاه ألا يعطيها ذلك الخطاب إلا بعدما تذهب هي له وتسأله عنه، وأنه ما استطاع أن يعرف منه المزيد أو حتى سبب حديثه أو ذلك الخطاب، انتفض قلب «نعمة» قبل أن تفتح الخطاب وتقرأ ما فيه:

«إليكِ يا «نعمة»، لقد كنتِ نعم الأُنس والرحمة، اغفري لي رحيلي وابنتك، إنني ما فعلت ذلك إلا لأن أحافظ عليها من كل ذلك الذي مررنا به نحن في ذلك الوطن، زوجك عمران».

- لقد بشرتني بها يا الله عن طريق نبيك الحبيب فاحمها وأعدها لي. تلك هي الكلمات التي ظلت «نعمة» ترددها مرات عديدة بعدما قرأت خطاب زوجها إلى أن غابت عن وعيها من شدة ما حل بها.

أربع ساعات بعد استعادة نعمة لوعيها حتى استطاعت أن تأخذ قرارًا حازمًا، عليها ودون تأجيلٍ أن تصل إلى ذلك النفق الذي سيدخل فيه «عمران» مع «مسلمة» قبلَ أن يصلا إليه، ولكن كيف لها ذلك؟ الأمر أشبه بمستحيل، وعلى الرغم من ذلك قررت أن تفعل حتى لو فشلت في الأمر، إنها لا تستطيع أن تعيش دون الدفاع عن حقها في ابنتها، واستقلت سيارة قد أتى بها الشيخ يونس الذي صمم على الذهاب معها؛ حيث أنه الوحيد من الموجودين القادر على إيصالها إلى بعضٍ من الأشخاص الذين يعرفون مكان النفق تحديدًا ومسئولين عن الداخل والخارج منه، وقد عرف الشيخ يونس أصحاب ذلك النفق حيث صديق الدراسة القديم «أنس» والذي لم ينقطع الاتصال بينهما بعد انتهاء الدراسة بكلية الآداب قسم اللغة العربية، وقد كان قد أخبره من قبل عن اشتراكه في صنع نفقٍ لإنقاذ الحالات التي لا تستطيع أن تتحمل العيش في الوطن وهو في تلك الظروف، وإنقاذ الحالات التي يرصدها الأعداء لتصفيتهم، كما ذهب معهم «مفيد» الذي رفض ظاهريًا ما فعله أخوه، وعلى الرغم من أن الطريق إلى هؤلاء الأشخاص لا يتجاوز الساعة



والنصف بالسيارة إلا أنهم مروا على «نعمة» كالسنين العجاف، ولم تهدأ عينا «نعمة» من البكاء رغم أن الشيخ «يونس» أخبرها أن النفق يُفتح بمواعيد، وهناك أمل كبير في أن يبقى «عمران» يومًا أو اثنين قبل نزوله النفق، لكن لمن تقول تلك الكلمات؟ الأم لا تستطيع أن تأخذ ابنتها بين أحضانها، ذلك من المستحيل أن يُحدث مع حرقة قلبها شيئًا.

أخيرًا قد وصلوا إلى منزل «أنس»، وسأل الشيخ «يونس» عن صديقه فأدخلوه إليه، وبعدما رحب الصديق بصديقه سرد الشيخ «يونس» ما ألم بـ «نعمة» ولم ينطق «أنس»، وكان صمته دليل عدم خير، فعاود الشيخ سؤال «أنس» عما يستطيع أن يقدمه لأم الطفلة، فلم يستطع «أنس» إلا أن يقول الحق فيما يعرفه، وأعلن لهم صراحة أن النفق قد فُتح من ساعة واحدة وقد أغلق من بعدها مباشرة، وأن «عمران» ومعه «مسلمة» مع الذين نزلوا النفق، وقد وافق على نزوله بعدما أخبره كذبًا أن والدة «مُسلمة» قد توفيت أثناء وضعها، وأنهما ليس لهما أحد يراعهما، وأنه يريد أن يبتعد عن الدماء لأجل ابنته.

لم تستطع نعمة أن تتمالك نفسها بعد سماعها ما أعلنه «أنس»، وظلت تقسم عليهم أن يذهبوا بها إلى النفق حتى وإن كان قد أغلق ليفتحوه لها، ويستثنوا قواعدهم مقابل قلب أم لعلها تستطيع اللحاق بابنتها، وعلى الرغم من أن «أنس» أخبرها مرارًا أن ذلك النفق لا ينزل فيه الناس إلا جماعة وبمواعيدٍ محددة، إلا أنها لم تقتنع بما قيل حتى أقنعتهم هي أن ينزلوا معها لعلهم يستطيعون حلًا.

ستون دقيقة يمشون في النفق بأقصى سرعةٍ لديهم على أمل اللحاق بـ «عمران»، لكن الأمل انقطع عند نعمة وجثت على ركبتيها تبكي



فقدانها الأمل في إرجاع ابنتها، إلا أن صرخ الشيخ «يونس» لإسكات الجميع ليفكروا بهدوءٍ فيما هم عليه، وحل الصمت في المكان، وإذ بصوتٍ يأتيهم من بعيدٍ كأن أناس يصرخون من شدة الخوف، ولم تنتظر نعمة وجرت خلف مصدر الصوت وخلفها كل من الشيخ يونس وأنس ومفيد، وعندما اقتربوا من الجمع سمعوا أحدهم وهو يقول: «لقد مات»، وانتفض قلب نعمة وكأنها كانت تشعر من قبل أن ترى الشخص المقصود بأنه زوجها «عمران»، وعندما تأكدت من ذلك ظلت تضرب الأرض وهي تقول أين ابنتي؟ وجاءها لطف الله سريعًا، فقد أتى بالطفلةِ شابٌ قوي البنية، سنه ما بين السبعة والعشرين والثلاثين يُسمى «كارم»، ذلك الشاب الذي دخل النفق هاربًا من تتبع الآخذين حقه في الوطن دون وجه حقٍ منتويًا الذهاب إلى مصر.

وضع «كارم» مسلمة بين أحضان «نعمة» وهو يقول:

ـ لقد أنقذها والدها من الموت.

فالتفتت نعمة إلى ذلك الشاب وسألته:

ـ كيف؟

قال «كارم»:

ـ لقد فداها من حجرٍ كاد يهشم رأسها فحماها هو برأسه.

ـ حجر!!

رددت «نعمة» لرغبتها في فهم المزيد.

ـ نعم لقد جلسنا لنستريح قليلًا من السير، ولقد وضع «عمران» طفلته إلى جواره وجلس يحتسي كوبًا من الشاي، وإذ بصوتٍ غريب يحدث في المكان، وحجارة صغيرة تتساقط علينا،



فجرى «عمران» بنظرِه نحو «مسلمة»، ولقد رأى حينها حجرًا كبيرًا كاد أن يأخذ حياة الصغيرة، فحماها برأسه التي تهشمت جراء وقوع الحجر عليها والتي أودت بحياته إلى خالقها.

سمعت نعمة حديث الشاب ولم ترد عليه بكلمة، وتوجهت نحو زوجها ووضعت رأسه على صدرها وهي تقول:

- لماذا يا «عمران» فعلت بنا كل ذلك الذي لم نتفق عليه يومًا؟ لقد قلت لك سابقًا أن الموت لا فرار منه سواء هنا أو هناك وما آمنت أنت بحديثي، قل لي الآن ماذا أفعل في حياتي بدونك؟

ساعات أخرى مرت على الجميع وهم في فزع، وقرر كارم تكملة السير ومن معه بعدما قررت «نعمة» حمل زوجها لدفنه في وطنه بعدما لم تقتنع بحديث أحد في تركه في النفق، وأقسمت ألا تترك زوجها لأقدام الداخلين والخارجين في النفق.

«أسوأ ما يفعله المرأ في نفسه ألا يقاوم بؤس واقعه»





بمعبد الحزن دخلت نعمة تبكي فقد زوجها وغدره بها في آخر مواقفه معها بالحياة، فكيف لرجلٍ وصاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء أن يفعل ذلك بامرأته؟ كيفَ ينسى قول رسولنا العظيم حين قال: «رفقًا بالقوارير»؟ كيف له أن يهين زوجته بحرمانه لها من ابنتها؟ بأي دينٍ وبأي حقٍ وبأيةِ إنسانية له أن يفعل ذلك؟ في النهاية ما امتلكت نعمة من أمرها إلا أن تسامح زوجها وأن تدعو له بغفرانٍ من الله، وأن يجعل الله لابنتها من الخير نصيب.

وبعد فترةٍ خرجت نعمة من بؤس ما فعله بها عمران لبؤس واقعها المرير؛ لتفكر في طعامها وابنتها إضافة إلى شرابها وكسوتهما، من أين لها توفير أساسيات الحياة وهي التي لا عمل لها ولا مصدر دخل وزوجها يرحمه الله ليس له معاش؟ وما وجدت إلا حلًا مؤقتًا وهو أن تبيع جزءًا من ذهبها حتى تجد عملًا شريفًا يكفل لها العيش وابنتها، وفعلت نعمة في الصباح ما انتوت عليه وخرجت رافعة ابنتها على كتفها تبحث عن عملٍ يعولها، لكنها وفي المساء جرت أقدام الخيبة ورجعت إلى منزلها دونً أن تجد عملًا، ووضعت الثلاثة آلاف جنيهًا في خزانة ملابسها إلى جوار نصف الذهب المتبقي، ومن بعدها صلت فرضها وهي تدعو ربها أن يجد لها مخرجًا قبل أن ينفذ مالها وذهبها، ومضت نعمة لأكثر من سبعين يومًا تعيش أيامها متشابهة، فتمضي نهارها في البحث عن عمل وليلها تضرعًا لله عز وجل في إخراجها من أزمتها إلى أن نفد مالها وكل ذهبها ولم تستطع حلًا.



وفي اليوم الخامس والسبعين دخلت إلى مطعم لطلب العمل حتى لو كان مسح أرضياته، فنهرها صاحبه وطردها بعد أن وبخها ووصفها بالحمق لأنها تطلب عملًا وعلى كتفها طفلة، فمن ذلك الذي سيوافق على طلبها؟ وانهارت نعمة لشعورها بإهانة كرامتها، وفكرت أن تذهب إلى «مفيد» عم «مسلمة» لعلها تجد ضالتها عنده، وتوجهت بالفعل نحو داره وأدخلها، لكنه لم يُحسن ضيافتها وفعلت رضوانة مثلما تصرف زوجها، فاستحت نعمة أن تتحدث إليهما في شيء، لكنها ظلت تفكر فيما فعلوه معها، فهل أخطأت في شيء وهي لا تدركه، وظنت في نفسها السوء وخرجت تنتوي الذهاب إلى منزلها، ومضت نصف الطريق لكن قلبها أبى أن يعود قبل أن تعي ما في قلبيْ «فيد ورضوانة» لها، ورجعت إليهما وعودتها تلك كانت بغرض بر زوجها في قبره، اتجهت نعمة إلى منزل «مفيد» وتلك المرة لم تكن من أجل مصلحة لها أو مساعدة، وإنما لأجل الاعتذار منهما إن كان قد بدر منها ما يزعجهما وهي لا تدرك، أو تساعدهما في شيءٍ ما إن كانا يحتاجان لذلك، وكانت صدمتها حين وصلت دار «مفيد»، فقبل أن تطرق بابه سمعت غصبًا عنها حوارًا قاسيًا بين «مفيد ورضوانة»، في البداية أدهشها غضب «رضوانة» من عدم استقبالها بأدب، لكن تلك الدهشة زالت حينما سمعت «رضوانة» تقول «لمفيد»:

- لقد تركت من قبل والدتك وأختيك للموت كي لا يشاركوك في إرث والدك، وتركتهم تحت رحمة العدو ولم تساعدهم، واستغليت عدم حب عمران لمعارضة أحد له في قراراته وأوهمته أنك لا ترغب في رحيله حتى يعاندك ويصر على



رأيه، ولم تحاول معه بالعقل بل حاولت معه بفرض سيطرتك عليه وإشعاره أنه دائمًا يفكر بالطريقة الخطأ، فأشعرته بصغر عقله ليصر هو على موقفه في ترك الوطن لتستغل أنت ماله وترسل له الفتات بحجةٍ تليق بالموقف وقتها، والآن تستغل خطأ أخيك «عمران» في عدم إخباره «نعمة» بأمر ميراثه، فتقسم عليَّ أن أعاملها بذلك الجفاء كي لا تعود لنا ثانية؛ لأنك تدرك جيدًا أن «نعمة» لو اقتربت مني لن أصمد أمامها وسأخبرها بحقها لأنني لا أستطيع أن أتحمل ذنبها وذنب ابنتها أمام الله.

- لقد اختاروا قدرهم، فلو استطاعوا الهروب ما ماتوا، ذلك بالنسبة لأمي وأخوتي، ولو اختار «عمران» البقاء ما رحل، قال «مفيد».
- سندخل في جدلٍ فلسفي ولن أقتنع أنا بفلسفتك، ولن تفعل أنت مع قناعاتي، لنترك هذا الجدل جانبًا ولترد الحق لصاحبته، قالت «رضوانة».
- لقد كان عمران لا يثق بها لذلك لم يخبرها أن له إرثًا، ولن أعطي لمن لا يثق بها زوجها شيئًا، قال « مفيد «.
- الله أعلم بما كان في نفس أخيك تجاه زوجته، ليس لنا أن نحكم بعدم ثقته بها لمجرد أنه أخفى عليها ذلك الأمر.

قالت «رضوانة» ولم يرد «مفيد» بكلمة، فباغتته «رضوانة» بإخباره أنها تعلم أنه فتح خطاب «عمران» الذي أعطاه له قبل سفره ليوصله لـ «نعمة»، وأنه أخفى الورقة التي يعترف فيها عمران لنعمة بأمر



إرثه وأنه ما فعل ذلك، فانفعل مفيد على رضوانة وأمسك ذراعها بقوةٍ وكاد يضربها وهو يسألها من أين لها معرفة تلك الأشياء، فارتعبت رضوانة وأخبرته أنها وجدت الورقة ملقاة تحت خزانته واشتد العراك بينهما، وحينها هددته إن لم يُعطِ نعمة حقها فستخبرها بأمر الخطاب، وأعلنت له بقوة من يتمسك بتعاليم ربه أنها لا تريد أن تربي ابنها بمالٍ حرام، وإثر ذلك الإعلان انهال «مفيد» على رضوانة بالضرب، وما وجدت «نعمة» حين سمعت صراخ «رضوانة» حلًا إلا أن تتدخل لإنقاذها من بين يدي «مفيد» الذي طردها وزوجته خارجًا معلنًا لنعمة وهو ينزع ضميره قبل أن يتحدث أن تذهب لتثبت ما سمعته، وأنها أقرب للموت من أن تثبت أن لها شيئًا، وصمتت «نعمة» أمام شر « مفيد»، وفعلت «رضوانة» نفس الشيء وخرجا معًا قاصدين الله أن يفك كربيهما.

طوال الطريق ظلت نعمة تفكر في كلمات «مفيد» وثقته في أنها لن تستطيع إثبات حقها، وأرهقها التفكير وأخبرت «رضوانة» أنها ستذهب للشيخ «يونس» لعله يستطيع مساندتهما في الأمر على الأقل لأجل «مسلمة ويوسف».

داهمتها «رضوانة» بأن الشيخ «يونس» لن يستطيع حلًا مع «مفيد»، فقد باع «عمران» قبل سفره لـ «مفيد» كل إرثه معتقدًا أنه سيصون المال من أجل «نعمة» وابنتها، وذلك آخر ما عرفته «رضوانة» من الخطاب المكتوب بيد «عمران»، والتي قد قرأته بقدر من الله، وانهارت «نعمة» لسوء ما فعله بها «عمران»، وبكت ضعفها وعدم استطاعتها تحريك ساكن.



أسوأ ما يفعله المرأ ألا يقاوم بؤس واقعه، فقد ظلت نعمة بمعبد حزنها ما يقرب من العشرة أيام دون أن تحاول حل الأمر أو أن تغير واقعها وخاصة بعد مغادرة رضوانة لها وذهابها لبيت أبيها، وأفاقت نعمة حين شعرت بضعف جسدها لقلة طعامها، وهذا أثر على طعام ابنتها، فما وجدت حلًا إلا أن تقاوم كل ذلك الخذلان وتبادر بالبحث عن عملٍ يقيها ويقي ابنتها العوز، وخرجت نعمة في الصباح وسرعان ما امتلكها اليأس ثانية بعد ثلاثة أيام من البحث عن عملٍ دون جدوى، وفي صباح اليوم الرابع وأثناء سيرها شعرت بأحد الرجال يناديها من بعيد، في البداية تجاهلت الأمر اعتقادًا منها أنه يريد غيرها، إلى أن اقترب الرجل منها أكثر واستوقفها وطلب منها أن تسامحه، للوهلةِ الأولى لم تتذكر نعمة الرجل ولم تفهم لماذا يطلب منها السماح، وبعد أقل من ثلاث دقائق تذكرته، إنه سليمان صاحب المطعم الذي وبخها ونهرها وطردها خارجًا، لكن ما الذي تغير كي يطلب منها سماحًا وهو الذي أشعرها بغلظة القلب التي لم تعهدها من قبل من أحد؟ استشعر الرجل دهشتها فاسترسل في حديثه معها وأخبرها أنه أفاق من غفلته على وفاة ابنه الأكبر، وتذكر الطفلة التي كانت على يديها فندم كما لم يحدث له من قبل، وظل يدعو الله أن يجدها كي تسامحه لعل الله حينها يغفر له قبح ما فعله بها، لقد شعر بمأساة أن يكون لك ابن وتهون عليك كرامتك لأجله حتى وإن عز عليك ذلك، ولم تتردد نعمة في العفو عن الرجل الذي ترجاها للعمل في المطعم، ووافقت نعمة بعد أن أخبرها أنه يحتاج إلى عاملة نظافة، وحمدت نعمة ربها على ذلك الرزق الذي جاءها من حيث لا تحتسب.



ومرت الأيام تكتسب نعمة قوت يومها نهارًا، أما ليلًا فتجلس وتقرأ في أذن ابنتها القرآن وهي تتذكر بُشرى رسول الله لها بمسلمة قبل مجيئها، ومرت أيامها دون أن تطلب مساعدة من أحدٍ سواء مفيد الذي استحل حقها أو رضوانة التي تذهب للاطمئنان عليها من حينٍ إلى آخر، إلى أن جاء صباح الخامس عشر من نوفمبر وخرجت نعمة كعادتها إلى عملها، فاستوقفها أحد جنود من استباحوا احتلال وطنٍ ليس بحقهم، وأجبرها ذلك الجندي على الرجوع من حيث أتت منذرًا إياها بتحمل عقبات رفضها للرجوع، أنذرها وهو ينظر إلى ابنتها وكأنه يقول لها أن العاقبة ستمس ابنتكِ، لم تيأس نعمة وأخبرته أن عملها في ذلك الشارع، فنهرها الجندي وكاد أن يأخذ طفلتها غصبًا، فرجعت غير مدركةٍ ما الذي يحدث تحديدًا إلى أن سمعت أحد المارة وهو يتحدث إلى غيره مخبرًا إياه أن جنود الاحتلال قد أخذوا سليمان من مطعمه عنوة بعد أن انهالوا عليه ضربًا.

تساءل أحد العابرين:

- كل ذلك بسبب ماذا؟
- كان يدافع عن طفلٍ صغير يهتف ضد جنود الاحتلال ويرميهم بحجر، ولقد سلب جنود الاحتلال الطفل من يد والده وصفعه أحدهم وانهال الباقون على والده ضربًا، فلم يستطع سليمان صمتًا وتدخل لينقذ الطفل، وفشل هو في الأمر ونجحوا هم في دك مطعمه رأسًا على عقب، ثم أخذوه في سيارتهم بالقوة دون أن يعي أي أحدٍ قبلتهم.



لم تستطع نعمة تفكيرًا لمدة دقائق، ثم حاولت الرجوع إلى المطعم ثانية لكنها بالأخير فشلت في التحرك بوطنها، أهناك ذل أكثر من أن يعيش الإنسان في وطنه بلا حقٍ في أي شيء؟ وعادت نعمة إلى دارها وهي تُفكر فيما حدث لسليمان وما تستطيع أن تقدمه له، ووجدت نفسها ضعيفة أمام ما حدث للرجل الذي ساعدها، وفي صباح اليوم التالي خرجت نعمة متجهة نحو المطعم كعادتها، ولم تكن تتخيل أنه دُك إلى الحد الذي لا ينفع به لشيءٍ من بعده، لقد أتوا بالأعلى للأسفل ولم يتبقَ ما يستطيع أحد إصلاحه بسهولة، المكان أصبح لا يجوز له إلا أن يهدم ويبنى من جديد، وانقطع بذلك عيش نعمة ومن قبلها انقطع عيش زوجة سليمان وابنته المتبقية له «صفية».



«وما جزاء الإحسان إلا بمثله»



شهور مضت ورضوانة لا تستطيع خلاصًا مع مفيد، لا لين معه ولا قسوة نفعت، فحينما جاءها يومًا ليرى يوسف ببيت أهلها سألته تقوى الله في ابنه ونفسه وأن يرد الحق لصاحبته، فرفض بكل قوته، وحينها سألته انفصالًا بالمعروف لتستطيع تربية يوسف بهدوءٍ وبما أمرها الله به، نهرها رافضًا أن يُلبي لها ما رغبته، ومضت رضوانة أيامها حزنًا على معصية زوجها لربه، فهي لم تنسَ حبها له ولا تستطيع أن تدعو عليه، وإنما ما استطاع قلبها إلا أن يدعو له وأن يفكر فيما يجب عليه فعله تجاهه، ففي مساء أحد الأيام فكرت رضوانة أن تذهب للشيخ يونس لعله يستطيع مساعدتها في إصلاح زوجها بعدما كانت مقتنعة في السابق أنه لن يستطيع تغيير الأمر، لكنها في الأخير تعلقت بقشة، ولم تتردد رضوانة للحظةٍ وطرقت دار الشيخ الذي استقبلها بأدبٍ وفعلت سمر ابنته مثلما فعل أبوها، اندهش الشيخ يونس مما سمعه من رضوانة، ووعدها أن يذهب إلى مفيد لعل الله يُحدث الخير على يده.

لم يتأخر الشيخ يونس في وصل مفيد، لكنه لم يتخيل أنه أصبح عبدًا للمال بتلك الدرجة، وأنه لا يهمه في الحياةِ سوى الثراء، وحاول الشيخ إقناعه بكلماتٍ من كتاب الله عز وجل، لكنها الغشاوة ملأت عقله وقلبه، ولم يقتصر مفيد على رفض طلب الشيخ وإنما طرده من داره حينما شعر أن الشيخ يضغط عليه بكل ما امتلك من وسيلةٍ لرد المال لصاحبته، وإصلاح ما بينه وبين زوجته، ومن قبل كل ذلك إصلاح ما بينه وبين الله، ولم يحترم مفيد سن الشيخ ومقامه، واتخذ من شيطانه سبيلًا له ونسيَ أننا سنعرض على محكمةٍ لا نستطيع لها تبرير سوء أفعالنا.



كانت رضوانة تتوقع رد فعل مفيد، فلم تستغرب ما حكاه الشيخ لها بعد رجوعه، ولم تمتلك من أمرها إلا أن تدعو الله أن يبدل الحال للخير بكلمة كن فيكون.

طلب الشيخ يونس من رضوانة أن تصطحبه لنعمة ليرى أحوالها بعد كل ذلك الذي حدث لها ووجدها على غير ما يرام، ورغم ذلك عندما سألها الشيخ عما ألم بها لم تذكر له إلا حمدًا، ولم تبُح له بكل ما جرى لها في الأيام الفائتة، ولم تنطق بكلمةٍ عن تفكيرها في قوت يومها بعد ما حدث لسليمان، وصمتت لكرامتها وحفظًا لعزتها.

- من أين تعيشين؟ باغت الشيخ يونس نعمة بذلك السؤال.

تلعثمت نعمة في الإجابة، ثم أخبرته أنها تعمل عند سليمان في المطعم، فباغتها الشيخ بمعرفته ما جرى لسليمان ومطعمه، فما كان من نعمة إلا الصمت،

وكسرت ذلك الصمت رضوانة التي طلبت من نعمة أن تذهب للعيش معها في بيت والدها، لكن كيف لعزة نفس نعمة أن توافق بأمرٍ كهذا؟ وفضلت نعمة البحث عن فرصة عملٍ أخرى بدلًا من أن تكون عالةً على أحدهم.

ذهب الشيخ يونس ورضوانة وهما يشفقان على تلك الحالة التي تعانيها نعمة، ومر يومان آخران وفي صباح الثالث طُرق باب دار نعمة، وإذ بها سمر ابنة الشيخ يونس تطلب منها أن تعمل معها كممرضة، تهلل وجه نعمة فرحًا وبدأت عملها مع سمر في ذات ذلك اليوم.



في حقيقة الأمر لم تكن سمر تحتاج لمساعدة نعمة، لكنه الشيخ يونس ما وجد حلًا ترضى به نعمة إلا ذلك، وحفاظًا على كرامتها اقترح يونس على سمر أن تستعين بنعمة كممرضةٍ لها.

واستقرت أوضاع نعمة ولم تنسَ فضل الله عليها وفرجه، كما لم تنسَ فضل سليمان عليها، فراحت لتفتح على زوجته وابنته حينما علمت أن سليمان انقطعت أخباره وساءت حالة أسرته، ولم تتردد لحظةً في مساعدتهما جزاء إكرام سليمان لها من قبل، فما جزاء الإحسان إلا بمثله.



«المجد أن تكون إنسانًا»



ومرت السنين وعلموا خلالها أن سليمان أدخلوه المعقتل ومنعوا عنه الزيارة ولم يخرج منه إلا ميتًا، حزنت عليه نعمة وكرهت من يومها عجزها عن إنصاف أحد المظلومين بوطنها، وأقسمت أن تُربي مسلمة على الحق وعدم السكوت على الظلم؛ لأن السكوت ظلمٌ ووجعٌ لا يتحمله صاحب ضمير، وأقسمت أن تُعلمها أن الموت في سبيل حرية وطنها شهادة، وأن المجد هو أن تكون إنسانة في تصرفاتها، وأن السعادة هي أن تُدرك الله في حياتها، وكذلك بدأت تعليمها القرآن بتفسيره، وأصبحت تُؤكد عليها في كل ليلةٍ أنها بُشرى رسول الله لأمها، وعليها أن تحفظ ذلك جيدًا، وكانت مسلمة سريعة البديهة، فتعلمت ما رغبت فيه نعمة بسهولةٍ وبوقتٍ قصير.

وبعدها سُمح لسن مسلمة أن تلتحق بالمدرسةِ الابتدائية، التحقت بتلك التي التحق فيها يوسف ابن عمها سابقًا، تلك المدرسة التي مدحت فيها رضوانة لنعمة، رضوانة التي ما زالت على ذمة مفيد كل تلك السنوات رغم طلبها في كثيرٍ من الأحيان الانفصال بسبب أكله مال اليتيم، لكنه كان يرفض بصرامةٍ طلبها، ولقد ساومها ذات مرةٍ أن تترك له يوسف كتابة مقابل انفصالها عنه، لكنها رفضت ذلك بكل ما امتلكت من أمومةٍ، ومرت السنوات واليوم أصبح يوسف في عامه الدراسي الثاني من المرحلةِ الابتدائية، وأصبحت مسلمة في عامها الأول من ذات المرحلة، ولم تكن تتخيل نعمة حين أدخلت مسلمة التعليم أن ابنتها ستتعرض لمأساةٍ لن تنساها ما دامت حية، فذات يوم وفي الثامنة صباحًا طرقت رضوانة باب نعمة بفزعٍ وهي تقول لها سيموتٍ يوسف وكذلك مسلمة،



وأكملت قائلة: «إن الذين استباحوا وطننا استباحوا دم أولادنا، لقد دخلوا المدرسة عنوة ليوسِّعوا بها منطقتهم».

كانت رضوانة تتحدث عن منطقةٍ قد أحاطها من استباحوا الوطن بالأسوار كي يفصلوا بينهم وبين أهل الوطن الأصليين الذين يعتبرونهم فئة دنيا مقابل علو شأنهم، ولم يكتفوا بما اغتصبوه وأحاطوه من الأرض سابقًا، وإنما أرادوا توسيع جنتهم بالمدرسة وبالمنازل والمساجد المحيطة، وليذهب أهالي المنطقة أصحاب الحق إلى الحجيم، ولا يهمهم من الأمر شيئًا، المهم مدينتهم هم ومميزاتها ومرافقها، والأهم أولادهم الذين عليهم من وجهة نظرهم أن يكونوا أثرياء المال والعلم والنفوذ وكل شيءٍ طاب في الدنيا، حتى لو كان ذلك الثراء سرقةً من وطنٍ غير وطنهم، واغتصابًا لحقوقِ غيرهم من الأطفال أصحاب الوطن الحقيقين، ولم تأخذهم شفقةً بالأطفال في المدرسة، ودخلوها مدخلين الرعب في قلوب الجميع، وأرعبوهم بطلقات بنادقهم، وارتعب يوسف ابن مفيد كما مسلمة وبقية أقرانهم، وتراوح عدد الشهداء من الأطفال نحو المائة والعشرين طفلًا وأصبحت مذبحة بمعنى الكلمة، ودخلوا صف مسلمة فصرخت كما بقية زملائها، فانتفض بالخارج قلب نعمة وما استطاعت سكونًا وصفعت نعمة الضابط الذي حال بينها وبين دخولها لابنتها على وجهه، فانهال عليها ضربًا بظهر بندقيته دون رحمةٍ إلى أن نزع إحدى عينيها وصار الدم ملء المكان، فاح الظلم حد عنان السماء وما استطاعت رضوانة في وجه الظلم إلا صراخا، رضوانة العاجزة عن أخذ نعمة إلى المستشفى في مقابل بقائها في محاولةٍ لإنقاذ يوسف ومسلمة، حاول الشيخ يونس الذي وصل إلى المدرسة بعدهما لسماعه



الخبر متأخرًا أن يصحب نعمة إلى المستشفى، لكنها رفضت وأصرت على البقاء رغم دماء عينها المنتشرة في كل مكان، فابنتها أغلى لديها من نور بصرها، وكيف لها أن تترك مسلمة في كربتها وهي نورها التي من أجلها تستطيع البقاء رغم كل ذلك القبح في وطنها.

ثلاث ساعاتٍ من الصبر على ذلك الأذى، ثلاث ساعاتٍ من ذل العجز ومهانة النفس ورعب الأطفال أمام القتل، ثلاث ساعاتٍ من عيون الأمهات الدامية من الدمع، الراجية الله أن ينقذهن وأبنائهن مما هم عليه، إلا أن سمعنَ صوت أحدهم عبر مكبر الصوت يقول: «لتنقذن حياتكنَّ عليكنَّ بالابتعاد عن المبنى، انسينَ أمر أبنائكن واتركوهن ومصيرهم».

لم يكن ذلك بالنسبةِ للأمهات إلا صوتًا من شيطان، الشيطان الذي حذرهن الله من أن يطعن له كلمة، وذلك ما اتخذنه في موقفهن مذهبًا، فلم يستمعن إلى مكبر الصوت وتعليماته بالرحيل، وأصررن على المقاومة رغم البدء في أعمال الهدم، ودخلن رغمًا عن الطلقات النارية ورغم سقوط العشرات منهن ما بين قتيلات وجريحات، وأنقذت بعض الأمهات أطفالهن غير مصدقاتٍ أن الله مد لهن يده بالمساعدة، وأخريات خرجن بأطفالهن يصرخن غير مصدقاتٍ أن فلذاتهن فارقوا الحياة ظلمًا، ومن بين الأمهات اللواتي استطعن أن ينقذن أطفالهن كانت رضوانة، لقد دخلت المدرسة بقلبٍ من حديد تبحث عن يوسف دون هوادة، ولما وجدته في ركنٍ من صفه الدراسي يجلس إلى جوار أحد الأطفال المكتوب عليهم الشهادة تهلل قلبها واحتضنته وسارعت به إلى الخارج، وكان همْ رضوانة الوحيد هو إنقاذ ابنها من الموت، وغير ذلك لم يأتِ



بخاطرها، لعلنا لسنا ملائكة أو مثاليين، فحين يحيطك الخطر وابنك لن يهمك حينها ولن تفكر بغيركما، وهذا ما فعلته رضوانة، إنها لم تفكر في أمر نعمة الفاقدة عينها والتي تبحث عن مسلمة بعينٍ واحدة، وخرجت رضوانة من الداخل بأعجوبة، وبعدما استكان قلبها سألها الشيخ يونس عن نعمة ومسلمة، انتفض قلب رضوانة فهي لم تفكر في أمر البحث عنهما وهي بالداخل وكان همها يوسف، وأعلنت رضوانة بخيبةٍ للشيخ يونس أنها لم ترَ إحداهما، وظل أمر نعمة ومسلمة معلقًا فوق الساعتين لا يستطيع أحدهما التكهن بما حل لهما.

وقرر الشيخ يونس أن يدخل المبنى رغم ضعف جسده وقلة صحته ومخاوف سمر عليه، دخل الشيخ إلى المبنى رغم كل ما يحاوطه من خطر، وفي بداية الأمر لم يكن يدرك لأيةِ جهةٍ يذهب، ولقد استقر في نهاية الأمر أن يتجه يمينًا، وما خاب ظن قلبه؛ لقد سمع من بعيدٍ صوتًا صغيرًا يناديه، فاقترب من الصوت واذ هي مسلمة ترتكن إلى جوار نعمة المغشي عليها إثر رصاصةٍ أصابتها جهة ذراعها الأيسر، ارتبك الشيخ لا يستطيع حملها، وجاءته نجدة الله في سمر ابنته، إذ أنها لم تستطع صبرًا على انتظاره بالخارج، ودخلت المبنى من خلف الشيخ يونس، فناداها الشيخ حين لمحها مستنجدًا بها في محاولةٍ لإنقاذ نعمة وحملها وابنتها خارجًا، وفعل الشيخ مع سمر ما استطاعا عليه، ولقد قدرهما الله عز وجل على إخراج نعمة ومسلمة من المبنى، ولقد استطاعت سمر إخراج الرصاصة من كتف نعمة، لكنهم وبعد ذهابهم إلى المستشفى لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا بشأن عينها، وقُدر لنعمة أن تعيش المتبقي من عمرها بعينٍ واحدة، وقُدر لمسلمة أن يظل ذلك الموقف في ذاكرتها



طوال عمرها، وكانت على درايةٍ بأن فقد أمها لعينها هو عين الظلم ممن استباحوهم، وبعد عدة أيام من ذلك الحدث علم أهل الوطن الأصليين أن المغتصبين أكملوا توسيع مدينتهم وفصلوها بسورٍ كبير يفصلهم عن فقراء الوطن أصحاب الحق، وانتصر شرهم ولم يُحرك العالم ساكنًا.



«اللهم نعمة الصبر على الأذى»



كل ذلك الوجع ولم يهتز مفيد للحدث، ولم يتحرك قلبه ليطمئن على ابنه، وانتظرته رضوانة كثيرًا على أمل أن يتلهفها وابنه لكن خاب ظنها ككل مرة، وعلى الطرف الآخر كانت نعمة التي جلست تواسي رضوانة، ورغم أن المنطق لكل عاقلٍ هو أن يحدث العكس وأن تواسي رضوانة نعمة لعينها المفقودة، لكن الله عز وجل وهب نعمة الصبر على الأذى والرضا مع القضاء، وهكذا مرت أزمة نعمة عليها يسيرة، ومرت عدة أيام لم تفارق فيها رضوانة منزل نعمة، وفي مساء اليوم الثالث زارتهما سمر ابنة الشيخ يونس لتطمئن على عين نعمة، لكنها كانت شاحبة الوجه، عيناها حزينتان وليست كعادتها، سألتها نعمة عما بها، وأنكرت سمر أن بها شيئًا، لكنها سرعان ما انهارت في البكاء حينما استحلفاها أن تتحدث عن ذلك الألم الذي ظهر على وجهها، ونطقت سمر بذلك الذي بداخلها، وباحت بخوفها من تأخرها في الزواج وضياع فرصتها في أن تنجب طفلًا، باغتتهما أن عمرها خمسة وثلاثون عامًا، وفي كل ليلةٍ ترتعب من فكرة أن تقل فرصتها في الإنجاب، تموت خوفًا من أن تظل طوال عمرها تتمنى أن تمارس الحب دون جدوى، يؤلمها فكرة أن هناك احتمالية أن تموت وحيدة ومن الممكن ألا يشعر بها أحد إلا بعدما يظهر ريحها، باحت بدواخلها المحطمة ثم انهارت بعدها من البكاء، ولم تستطع أن تهدأ إلا بعد مرور أكثر من ساعة، ثم قالت وهي تهم لمغادرتهما:

- لم أكن أرغب سوى برجلٍ واحد يتفهم امرأةً تريد أن تحب من أعماق قلبها.



وغادرت سمر المكان دون أن تنتظر لسماع نعمة ورضوانة، واعتبرت أن أي حديثٍ لهما لن يكون سوى نوع من الشفقة، وهذا ما لا طاقة لها عليه، وهي المرأة التي تفضل كرامتها فوق كل شيء.

الاحتلال، الظروف، الأذى، كل ما يمر بذلك الكون لن يمنع الإنسان من أن يفكر في الحب، الحرب ما كانت إلا دافعًا قويًا لسمر لأن تحتاج إلى الحب وإلى أطفالٍ لتخوض كل ذلك الألم وفي قلبها إشراقة أملٍ لأطفالها، لم تكن سمر غاضبة لتأخر رزقها في الزواج، لكنها كانت تأمل وتتمنى وتدعو الله أن يحدث لها ذلك قريبًا، ومرت الأيام وانتكست سمر تلك المرة ليس من أجل الزواج المتأخر وإنما من أجل رحيل أقرب الأشخاص إليها على هذا الكون، الشيخ يونس والدها وصديقها وونيسها، ربما كان سيهون على سمر أن يتوفى الشيخ على فراشه لكن هذا لم يحدث، الأسوأ بالنسبةِ لها أن يخرج الشيخ ليصلي العشاء ويعود إلى بيته أشلاءً، لم يكن أحد يصدق ما حدث للشيخ من اعتداءٍ من قِبل هؤلاء الذين لا حرمة ولا دين لديهم، وربما كان سلوان سمر في تلك الحادثة هو دعاء كل أهل المنطقة للشيخ يونس بالرحمة من الله، وكان سلوانها الآخر هو حكايات الشارع عن بطولة الشيخ في مقاومة الظلم واحتسابه عند الله شهيدًا.

في تلك الليلة التي توفى فيها الشيخ يونس خرج كعادته لإمامة الناس لصلاة العشاء، وجلس بعد الانتهاء من الصلاة في المسجد ما يقرب من الساعتين يُعلِّم بعض الصبية مما علمه الله، وخرج قاصدًا بيته، لكنه وقبل أن يصل بسبع دقائق سمع صوت استنجادٍ من فتاة، فتحرك نحو الصوت فما وجد إلا غدرًا من جنودٍ لا يعرفون الله على «صفية»



ابنة سليمان صاحب المطعم الذي عملت عنده نعمة قبل حادثته، كانوا يأخذون منها عزتها وكرامتها واستخسروا أن يتركوا لها شرفها، وأرادوها بالقوةِ كما اغتصبوا وطنها من قبل، وكما انتهكوا والدها سابقًا، أرسل الله الشيخ يونس في الوقت المناسب ليدافع عن كرامة سليمان في ابنته رغم رحيله عن الحياة، واقترب الشيخ يونس في شجاعةٍ وحاول أحد المعتدين إبعاده، لكنه أبى أن يترك صفية لينجو بحياته وحده، وحاول تفريقهم بكل وسيلةٍ لديه إلى أن انشغلوا به وتركوا صفية لكن بعدما حدث لها ما حدث، فصرخ الشيخ بها بأعلى صوته أن تفر من المكان، وفعلت صفية ما أمرها به الشيخ وهرولت نحو الشارع مستنجدة بما قابلتهم من شبابٍ لعلهم يستطيعون إنقاذ الشيخ، وأقبل الجميع في محاولةٍ لإنقاذ الشيخ، لكنهم ما نالوا إلا خيبة، لقد وصلوا إلى المكان المقصود بعدما انهال الجنود على الشيخ بالضرب ومن بعدها بالسلاح، ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم قطعوا يده وقدمه تخويفًا منهم لمن تُسول له نفسه أن يقتدي بالشيخ أو أن يتخذ من موقفهِ مذهبًا، ورحل الشيخ لكن سيرته الطيبة لم ترحل وبقيَ في قلوب الجميع، وكلما ذكروه تحدثوا عنه بالحسن، ولم تستطع صفية ووالدتها مواساة سمر، فكل كلمات الشكر لن تُجدي نفعًا في مقابل روح الشيخ يونس رحمة الله عليه وشعور سمر بالوحدة من بعده أكثر مما كانت عليه.



«الأصعب ألا تقول لا في وجه الظلم»



أنتم تعلمون أن الشيخ يونس كان قبل موته قد دُكت داره وقد اضطر للعيش وابنته سمر في منزل أخيه طاهر، ولم يكل أخيه به وبابنته يومًا، وبعد وفاة الشيخ يونس طمأن طاهر سمر بأن مكانتها ومكانها لن يتغيران مهما حدث، وأنها بمنزلها وعليها ألا تشعر بغربةٍ فهي لها ما لهم في ذلك المكان.

كان طاهر رجلًا طيبًا وودودًا كما أخيه رحمة الله عليه، ولقد وهبه الله بولدٍ وحيد أسماه «بكر»، وكان يصغر سمر بخمسةِ أعوام، ودرس بكلية التجارة وعمل موظفًا بشركةٍ تابعة لوالد حسام أحد أصدقائه من ذوي سلطة المال، ولقد نجح في عملِه كما لم يتوقع منه يومًا صاحب الشركة.

وبعد شهرين من وفاة الشيخ يونس اقترح طاهر على بكر أن يخطب ابنة عمه سمر، ولقد أقنعه بها فهي ذات دينٍ وخلق، واقتنع بكر رغم أنه يصغرها، لكنه ورغم اقتناعه إلا أن «قدرية» والدته لم تكن على وفاقٍ في الرأى معهما، واعترضت على سن سمر، إلا أن طاهر وضعها أمام موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من زواجه من السيدة خديجة، وكان سنها أربعين سنة، وكانت تكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر عامًا، وبذلك وضعها طاهر أمام فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أطهر البشر، فلم تستطع من بعد ذلك رفضًا، ومن بعد ذلك فاتح طاهر سمر في الأمر ولم تأخذ وقتًا في التفكير، وتلهفت بكر وكأنه النجدة لها من أحزانها ووحدتها، لم تفكر بسنه أو تعليمه أو تفكيره ولا بأي شيء، كان شغلها الشاغل أن يكون لها رجلًا، وأن تنجب منه طفلًا، وكانت مؤمنة تمامًا أن بكر لم يفكر في الزواج منها إلا لأنه



يكن لها حبًا، فمن ذلك الذي سيذهب لفتاةٍ تصغره وهو لا يكن لها ودًا عظيمًا بقلبه؟ وتمت الخطبة بعد ثلاثة أسابيع من مفاتحة طاهر لابنة أخيه، وسعدت سمر بعوض الله لها عن كل الأيام التي كانت ترتعب فيها من فكرة الوحدة.

ومرت الأيام أهدأ من سابقتها عند سمر، وكان بكر يعاملها بودٍ، وتعلقت حياتها عليه، وأحلامها في وجوده، وأيامها بحضوره، واستقرت سمر نفسيًا في الفترةِ الأخيرة أفضل مما كانت سابقًا.

أما عن نعمة ففي غضون شهرٍ من بعد حادثة عينها عادت للعمل عند سمر، ولقد كانت تصطحب مسلمة في الكثير من الأيام معها، وعلمتها أن أي عملٍ شريف على الإنسان أن يفتخر به، وأنه ما دام يكسب قوت يومه بالحلال فعليه أن يرفع رأسه عاليًا، وأحيانًا أخرى كانت نعمة تترك مسلمة عند رقية صديقتها ليُعلمها والد رقية مما علمه الله، وليُحفظها كتاب الله، وما فعلت نعمة ذلك من تلقاء نفسها، وإنما هي وصية الشيخ يونس لها، وما وجدت أفضل من رقية لتكون صديقةً وفية لابنتها، تلك الفتاة ابنة الرجل الصالح، ولقد كانت مسلمة تسأل نعمة في كثيرٍ من الأيام عن عودتها للدراسة، فما تستطيع نعمة إجابة، فبماذا ستجيب عليها؟ أبأنها حُرمت من الدراسة لعام كامل بفعل من لا يقدسون حرمة الآخرين؟ أم تقول لها أنهم أضعفٌ من أن يقولوا لا في وجه الظلم؟ كانت نعمة تعلم أن أيةِ إجابة على مسلمة سيكون بها من الألم ما لا يتحمله أحد، فكانت تُفضل الصمت عن الكلام الذي لن يُجدي نفعًا، وفيما بعد أصبحت مسلمة تلح بذات السؤال، فما كان من نعمة إلا بإخبارها أن عليها الانتظار للعام القادم لتستطيع أن تُقدم



أوراقها بمدرسةٍ أخرى، وصمتت مسلمة عن السؤال من بعدها، ولعلها أدركت حجم المأساة التي يعيشونها رغم صغر سنها، ومرت الأيام كلها متشابهة في حياة نعمة ومسلمة لعام كامل من العمل إلى البيت، ومرت الأيام واستطاعت نعمة بالإضافة إلَى رضوانة إلحاق أولادهما بمدرسةٍ أخرى آملين من الله أن تكون خيرًا لهما.

وفي منتصف ذلك العام قُدر لطاهر عم سمر أن يلتقي بربه دون أي إنذارٍ مسبق، لكنه قضاء الله عز وجل، ولم تقل سمر حين سمعت الخبر إلا ما يُرضي ربها: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، اهتز بكر لوفاة والده، ولعل ذلك لعدم توقعه أن يحدث هذا في ذلك الوقت، وذكَّرته سمر بأن يرضى بما كتبه الله، وأن يدعو له بالجنة ذلك أفضل له، واجتهدت سمر في إزالة الغم عن ابن عمها وخطيبها إلى أن أخذ الله عز وجل بيده وخرج من تلك المحنة.

ومنذ ذلك الحين لم يعد بكر وسمر مخطوبين بالعادات فقط، وإنما قد بث الله في قلبيهما ودًا لبعضهما البعض، وأظهر بكر لسمر ذلك الحب، فتعلقت به أكثر مما كانت عليه، وعقدت العزم على أن تصونه وتحبه كما لم تفعل امرأة مع رجلٍ من قبل، وبالنسبةِ لسمر كانت ستمر أيامها عظيمة لولا إحساسها أن قدرية والدة بكر تعاملها بجفاءٍ وهي شخصيًا لا تستطيع أن تعي ما الذي طرأ ليغير معاملة قدرية لها، لم تكن تتخيل يومًا أن قدرية ما وافقت على خطبتها من بكر إلا لعدم قدرتها على مواجهة زوجها طاهر، وبالنسبة لها الآن سمر ما هي إلا غريبة عن المنزل ولا تمت له بصلة، وفي مساء أحد الأيام وبعد انتهاء سمر من موعد عملها دخلت عليها نعمة تستنجد بها لإنقاذ طفلةٍ قد تعرض



جسدها للحرق جراء اشتعال النيران في منزلها، واختلفت الأقاويل على سبب الحريق، فمنهم من قال جنودَ مغتصبين الوطن جاءتهم تعليماتٍ بتوسيع ملكهم وحرق كل من يعترض على الأوامر، ومنهم من قال أن تلك الدار لم تكن ضمن المنطقة المنكوبة، وأن الحريق نشب نتيجة ماسٍ كهربائي، لكن سمر لم يهمها الأسباب بقدر ما همها إنقاذ حياة الطفلة، وأمرت نعمة بإدخال الطفلة إلى غرفة العمليات، وعلى قدر استطاعتها فعلت ما قدَّرها الله عليه مع الطفلة، وتركتها تحت رعاية نعمة وهرولت نحو منزلها لتأخر الوقت، وكانت في حالةٍ يُرثى لها لتأثرها بحالة الطفلة «دانة» ووالدها عاصم الذي انهار لأجلها، وزوجته التي فقدت وعيها إثر معرفتها الخبر، كانت سمر تعلم مدى سوء حالة دانة، وما استطاعت أن تبوح بحقيقة تلك الحالة لوالدها، ورغم كل ما تشعر به سمر ورغم سردها الحدث الجلل لقدرية إلا أن الأخيرة لم تعطها عذرًا، وظلت توبخها على تأخيرها، ولقد وصفتها بالمنحلة، وأن ذلك التصرف ما هو إلا سوء تربية، وأنها ما وجدت من يحكم تصرفاتها وعليها الرحيل من دارها إن ظلت على تلك السلوكيات.

لقد أهدرت قدرية كرامة سمر، وانهارت سمر من تلك الطريقة، ولم ترق قدرية لسوء حالة سمر وظلت على موقفها، فما وجدت سمر حلًا لحفظ كرامتها إلا أن تترك دار قدرية، وحتى أنها لم تهاتف بكرًا، ولم تشكي له سوء صنيع قدرية معها، فهي تُؤمن أن لقدرية في بكر أكثر منها بكثير، وغادرت المنزل دون أن تستوقفها قدرية، بل إنها أكدت عليها ألا تعود إلى الدار مجددًا، واتجهت سمر نحو العيادة الصغيرة ولم تنطق بكلمةٍ إلى نعمة التي حاولت معها طويلًا لتفهم ما الحدث الذي جعلها



تعود إلى العيادة، وظلت على صمتها إلى أن جاء الصباح دون أن ترى عيناها النوم.

وبعد مرور ساعتين هاتفها بكر، فلم تستطع الرد عليه، فأرسل لها معبرًا عن مدى قلقه عليها، وأنه من حقه عليها أن تطمئنه، لكنها ظلت على موقفها السلبي، وتوقع بكر مكان خطيبته فتوجه نحو العيادة.

بكر الذي عاد من عملِه صباحًا فما وجد سمر، فسأل والدته عليها فسردت دون حياءٍ ما حدث، كما أنها حاولت إرغامه على عدم البحث عنها وإرجاعها إلى البيت، وكانت ترى ذلك لأن سمر من وجهةِ نظرها لا تصلح لبكر، إنها ترغب في تزويجه من ابنة أختها سهيلة، إن سهيلة بالنسبةِ لها هي الأنسب لابنها، إنها ذات العشرين من عمرها، صاحبة المال والجمال، المال الذي ورثته عن والدها والتي لم يشاركها فيه أحد لكونها وحيدة والديها، وتلك الفكرة استحوذت على فكر قدرية بعد وفاة والد سهيلة، وعلى كل حالٍ رفض بكر إغراء المال؛ فهو لديه عمله الذي يغنيه، ورفض ألا ينفذ وصية والده في زواجه من سمر التي يشعر أنها تحبه، وأن خلقها يغنيه عن مال سهيلة وجمالها.

وصل بكر إلى سمر فعنفها على تركها المنزل وعلى عدم ردها عليه، وصمتت سمر أمام شعورها بقلق بكر عليها، فهي لأولِ مرةٍ تشعر أن على هذا الكون بشريًا يضعها ضمن أولوياته، واستجابت لطلبه وعادت إلى المنزل معه، لم تحترم قدرية عودة سمر، وأول ما تحدثت به عند دخول سمر للمنزل: «أما وجدتِ مكانًا لكِ إلا هنا؟»، وكادت أن ترد سمر بما يليق بالموقف، لكنه بكر نظر لها بأن لا تفعل، وأشار لها أن تذهب لغرفتها، وفعلت سمر ما رغب به بكر، لكن قلبها ظل يغلي جراء أقاويل قدرية.

- أنا أحب سمر، عليكِ أن تعرفي ذلك جيدًا يا أمي، قال بكر لوالدته بعد دخول سمر إلى غرفتها.
- لن تُجدي سمر معك نفعًا، حتى الطفل من الممكن ألا تقر به عينك، أنسيت أنها تكبرك؟ أجابت قدرية.
- سيكون هذا قدر الله الذي لن أعترض عليه، ثم إن سمر ليست بالعجوز، إنها تمتلك خمسة وثلاثين خريفًا، لتدعي لنا يا أمي بالخير بدلًا من كل تلك التصرفات التي لن تُجدي نفعًا، قال بكر.

لم تجب قدرية على ولدها، بل إنها غادرته وعلى وجهها كل العلامات التي تؤكد أنها لن تسمح لبكر أن يتزوج من سمر، وأن يترك إرثًا كذلك الذي بين يدي سهيلة ليكون ملكًا لرجلٍ آخر، وليذهب الحب إلى الجحيم من وجهة نظر قدرية مقابل سلطة المالً.

«كلما عرف الآخرون عن معاناة المرء زادت معاناته،
كافكا»



لم تكن تتخيل نعمة أن مسلمة ستتعرض لقسوةٍ كتلك التي حدثت لها عن طريق معلمتها «وجيدة»، ففي اليوم الحادي والعشرين من إبريل عادت مسلمة من المدرسة وهي في شدة الانهيار بملابسٍ مهلهلة، حاولت نعمة أن تُهدأ من روع مسلمة ونجحت في ذلك بعد ما يقرب من الساعة، توضأت مسلمة وصلت فرضها، فجلست إلى جوارها نعمة تسألها عن خطبها، وصُدمت نعمة مما سردته ابنتها عليها، لقد أخبرتها أن معلمتها «وجيدة» انهالت عليها ضربًا، أما عن السبب فهو الذي لم تصدقه نعمة، فقد دخلت «وجيدة» الغرفة الدراسية كعادتها وشرحت درسها، وفي نهاية الحصة بدأت وجيدة في إهانة اللغة العربية والدين الإسلامي كما لم تفعل من قبل، ثم أخبرت الطلاب أن من سيتعلم لغة «الماندرين» سيكون له النصيب الأكبر من الدرجات والمكافآت، ولم تستطع مسلمة أن تصمت أمام ما تقوله معلمتها، واعترضت على إهانتها للغتها والتي هي أساس هويتها، ورفضت حديثها بالسوء عن دينها الذي هو أعظم شيءٍ بحياتها كما علمتها نعمة، وأعلنت لها بقوةٍ أن اللغة العربية لغة القرآن وهي أعظم اللغات وأحبها إلى قلبها، وأن المدرسة مدرسة إسلامية عربية لا تدعم لغة الماندرين، تلك اللغة التي يريد من اغتصبوا الأرض فرضها على أصحاب الحق ليمحوا هويتهم ويصبح الوطن تابعًا لهويتهم.

- من علمكِ ذلك الهراء؟ سألت وجيدة مسلمة بكل ما امتلكت من كراهية.
- الإيمان، إيماني بأحقيتنا في ممارسة هويتنا في بلادنا بحرية، قالت مسلمة.

مسلمة التي ما وجدت بعد ردها سوى الضرب المبرح من قِبل «وجيدة» التي استباحت بيع القضية مقابل سلطة المال، نعم سلطة المال التي جعلتها تتخلى عن كل إيمانٍ لها ومخالفة كل الحق وبيع الأمانة، أمانة تعليمها الأطفال دون خاينةٍ لهوية وطنها، وقبلت وجيدة من السلطة المعادية أن تحصل على المال الشهري مقابل إقناع الأطفال التي تدرس لهم بعدم استخدامهم للعربية في حياتهم اليومية، وطمس هويتهم الإسلامية تحت شعارات الحرية المطلقة.

وما توقعت وجيدة أن تجد في أول محاولةٍ لها لتحويل الأطفال عن قبلتهم معارضة قوية من قِبل مسلمة التي ما نالت جزاء حديثها سوى الضرب المبرح والإهانة لكرامتها وطفولتها، ولقد كانت رقية صديقة مسلمة شاهدة على الموقف لكنها خافت أن تتحدث كي لا يحدث لها مثلما حدث لمسلمة، رقية التي ذهبت وسردت الأمر لوالدها الصالح، فعلمها أن أعظم ما قد يفعله المرء في حياته هو أن يدافع عن دينه ووطنه وعرضه، وأن مسلمة لم تخطئ بل إنها عظيمة في عين الله.

نعمة تؤمن أن السكوت عن الحق فعل شيطاني، فلم تستطع بعد أن حكت لها مسلمة ما حدث أن تلومها على المقاومة رغم ما تعرضت له من افتراءٍ جراء ذلك، كما أنها أيدتها فيما فعلته، بل إنها في صباح اليوم التالي اتجهت إلى المدرسة برفقة ابنتها منتوية سرد ما حدث إلى المديرة لعلها تستطيع اتخاذ إجراءٍ مناسب مع وجيدة، لكنها وبعد أن تحدثت إلى المديرة رجعت بخفي حنين، إنها ما وجدت من المديرة إلا خيبة لوقوفها بصف وجيدة معلنة صراحة أنها لا تمتلك معلمة بهذا القدر من السوء الذي تتحدث به نعمة عنها، وأخبرت المديرة نعمة بحزمٍ



أن وجيدة ما ضربت مسلمة إلا لتتعلم الرد بأدبٍ على من يكبرونها سنًا، وبذلك لم تستطع نعمة أخذ حق ابنتها من مديرةٍ استباحت قبل معلمتها وطنها مقابل سلطة المال، ولم تكن تتخيل نعمة أن الفساد وصل إلى ذلك الحد، وأن وجيدة ما كانت لتستطيع أن تفعل فعلتها إلا بموافقة مديرتها.

كل إحباطات الكون كانت في قلب نعمة إثر ذلك الموقف؛ لعجزها عن فهم ما يحدث، وعجزها عن نقل ابنتها لمدرسةٍ أخرى، ولعجزها عن إيقاف كل ذلك الظلم الذي يمر به هؤلاء الأطفال سواء ابنتها أو غيرها، والذي من المتوقع أن ينجرف أغلبهم لتوجيهات وجيدة لصغر سنهم، وما استطاعت نعمة في ذلك اليوم إلا أن تسلم أمرها لله لعله يُحدث بعد ذلك أمرًا، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن بؤس المديرة ووجيدة جعلهما تمارسان الضغط النفسي على مسلمة بعدما تركتها والدتها في المدرسة لإكمال يومها الدراسي كما رفقائها، لقد أرهبوها بالعقاب إن تحدثت بكلمةٍ مما تحدث داخل الحرم الدراسي خارجه، وكأنهما تدركان مفهوم كلمة حرم ويؤمنون بأخلاقياته!

ومرت الأيام وازدادت وجيدة ظلمًا وقهرًا في وجه التلاميذ، وكلما زادت المكافآت التي تأخذها من مغتصبي الوطن ازدادت هي في تلقينها للأطفال أن الدين ما هو إلا قيد عبودية، وأن الحرية هي ألا يؤمنون إلا بأنفسهم وبقدراتهم، وما يُحزن بشكلٍ كبير أن هناك جزءًا لا بأس به من التلاميذ انجرفوا خلف وجيدة التي ما إن وجدت أمامها طفلًا لا يعارضها ويفرح بما آتته من جوائز إلا وضغطت عليه بأكثر مما تفعل مع زملائه، حتى إنها استطاعت أن تجعل من بعض الطلاب الأكبر سنًا



من مسلمة حلقة وصل بينها وبين التلاميذ الذين يعارضونها في القول، فينقلون لها ما يُقال من خلفها.

كتب كافكا في رسائلهِ إلى خطيبته فيليس: سأبقى مقيدًا إلى ذاتي للأبد، أدرك أنني مرئي وعلى قيد الحياة فقط عندما أكبت قدر استطاعتي ما يتعلق بي، كلما عرف الآخرون معاناة المرء زادت معاناته، إن لم تزد أصبحت أقل طهارة.

تلك الكلمات ما قرأتها مسلمة من قبل، لكنها وبعد إهانة وجيدة لها في كل مرةٍ تلتقيان فيها، أصبحت تمارس تلك الكلمات دون أن تدرك أن كافكا كتبها ومارسها قبلها بسنوات عديدة، لم تعد مسلمة تتحدث عن وجع ما يواجهها في الصف إلى أحد حتى والدتها، ربما ضمت والدتها إلى قائمة عدم البوح لها بشيءٍ لأنها كلما تحدثت إليها عن شيءٍ وقع لها رأت دمع عجزها وانهيارها لفقد الوسيلة التي تحمي بها ابنتها عن كل ذلك الذي لا يرضى عنه رب ولا عبد.

«أن تصادفك عاطفة صادقة مرة واحدة على الأقل في عمرك، هذا رزق عليك أن تحمد الله عليه ما دمت حيًا»





قيل أن عاطفةً صادقة أعظم من كنوز ذلك الكون، وما تمنت أحلام أخت يوسف والإبنة الكبرى لمفيد ورضوانة إلا أن يصدق أبيها حبها لكنه لم يحدث يومًا أن تحققت أمنيتها في ذلك، حلمت أن يعتني بها كما جميع الآباء، ورغبت أن يباغتها مفيد يومًا بزيارةٍ عند رضوانة ليطمئن على أحوالها لكنه لم يحدث بعد، إنه لشيءٍ محبط أن ترغب بمعايشة مشاعر معينة ولا تستطيع أن تفعل، تمنت لو أن تعيش لحظة خوفٍ واحدة من مفيد عليها، ولحظة ودٍ ولحظة قسوة لكونه يريدها الأفضل، لكن هناك أمنيات في حياتنا تظل مع إيقاف التنفيذ فلا يحدث أن تتحق يومًا.

سنوات عجاف لا يزور فيها مفيد زوجته ولا أولاده ولا يظهر نيةً لرد الحق لأصحابه، وحدث في مساء ليلةِ شتاءٍ قارصة البرودة أن دق مفيد باب منزل والد رضوانة، ففتحت له مصدومة من كون الطارق زوجها، وصمتت رضوانة متخيلة أن ما جاء بمفيد هو صحوة ضمير، لكن أعاشق المال يعود إلى فطرته دون أدنى تأثير خارجي؟ ذلك من النادر أن يحدث ولم يحدث مع مفيد، إنه ما جاء إليهم إلا لمصالحه الخاصة، فعندما سألته رضوانة عن سبب مجيئه باغتها برغبته في تزويج أحلام من أحد رجال الأعمال الأثرياء ويُدعى «برهان».

- تقصد ابن برهان؟

سألت رضوانة لمعرفتها المسبقة أن برهان صديق مفيد المقرب المماثل له في السن ومن الممكن أن يكون مفيد يُلقب العريس باسم والده.



وباغتها مفيد بأن المتقدم لخطبة أحلام هو نفسه برهان صديقه الذي تعرفه رضوانة جيدًا، وما امتلكت رضوانة أمام عرض زوجها إلا رفضًا، وعارضته بكل ما امتلكت من خوفٍ على ابنتها، فكيف لها أن توافق على زواج ابنتها ممن هو في سن والدها؟ والأصعب من ذلك سوء خلقه الذي تدركه رضوانة جيدًا، إنه حتى ما عامل زوجته المتوفاة يومًا بحسن، وهذا ما تعرفه رضوانة مسبقًا من لسان زوجته الراحلة شخصيًا، وحاول مفيد أن يُغير رأي رضوانة باللين، لكن ذلك ما أدى بنفع معها، ولم يتمالك نفسه من بعدها وصرخ بها قائلًا: «ليس لكِ في الأمر شيئًا»، ثم نادى بصوتٍ غليظ على أحلام، فانتفض قلبها مما سيعلنه لها والدها، وكان إعلانه قاسيًا كما قلبه عليها، فقد أمرها مفيد أن تكون جاهزة لعقد قرانها على برهان في يوم الخميس، أي بعد ثلاثة أيام من وقتهم الراهن، ولم تستطع أحلام صبرًا على أذى والدها، وقد عارضته رافضة كل ما قاله لها، فحاول مفيد إغرائها بسلطة المال فما استجابت أحلام، وما كان رد مفيد عليها إلا أن انهال عليها ضربًا، وكادت أحلام أن تفقد هبة من هبات الله عليها جراء فعل والدها لولا أنها هرولت نحو باب الدار خارجة منه، وحاول مفيد أن يتبعها مباشرة إلا أن رضوانة عطلته خوفًا على ابنتها من شره.

فكرت أحلام بعد خروجها أن تتوجه نحو دار نعمة، وفعلت ما جال بخاطرها لكنها لم تدخل الدار بعدما طرقت بابها ولم يجب عليها أحد، وأخبرها أحد الجيران أن نعمة ما زالت في عملها، فما فكرت وتوجهت مباشرة نحو عيادة سمر طالبة النجاة من فعل مفيد، بأي منطقٍ



يوصل الأب ابنته لأن تطلب النجاة من أذاه؟! وبأي قلبٍ يفعل الأب ما لا يرضي ربه في ابنته؟!

وصلت أحلام إلى العيادةِ فوجدت أن نعمة وسمر يستعدان إلى إنهاء عملهما، ولما وجداها بهيئتها الباكية تلهفاها ليعرفا السبب وراء ذلك الانهيار، ولقد خجلت أحلام في البداية أن تعلن لهما أن السبب وراء وجعها أبوها، ولم تخرج نعمة أو سمر من أحلام بمعلومةٍ مفيدة حول حالها إلا حينما أخبراها أنهما يسأخذانها إلى منزل رضوانة، فما كان منها إلا رفضًا وإفصاحًا عما حدث لها، وكما رفضت الذهاب إلى بيت رضوانة رفضت الذهاب إلى دار نعمة خوفًا من أن يستنتج مفيد مكانها ويتبعها، واستجابت نعمة لأحلام لعل في ذلك هدوءها، وما توقعته أحلام كان صحيحًا، فقد تبعها مفيد نحو بيت نعمة ولم يجدها هناك، ولقد تذكر أن نعمة تعمل عند سمر، فتوجه نحو العيادة فلم يجد أحدًا، فسرى الغيظ في قلبه ورجع إلى رضوانة يُقسم عليها بالموت إن لم تأتِ له بأحلام، وحدثت رضوانة نفسها بأن أحلام من الممكن أن تكون قد توجهت لعيادة سمر معلنة لمفيد ذلك، مفيد الذي أخبرها بأن عيادة سمر مغلقة، ثم صمت قليلًا وجال بخاطره أن يذهب لبيت سمر لعله يجد ضالته هناك، ولم يتناقش مع رضوانة بشأن ما انتوى عليه؛ بل إنه خرج من منزل رضوانة ولم يجبها على سؤالها: «أين ستذهب؟»، ولما وجدت تجاهلًا منه هرولت خلفه خوفًا من أن يجد أحلام فيبطش بها، أحلام التي ما إن وصلت مع سمر ونعمة إلى البيت استقبلتهن قدرية بأسوأ ما يمكن للمرء أن يفعله، وكادت نعمة أن تأخذ أحلام وترجع حيث أتت إلا أن بكر استدرك الموقف وأقسم على الضيوف بعدم تركهن للمنزل،



وهدأ الموقف وسردت نعمة لبكر سر زيارتهما، فاستنكر بكر فعل مفيد، ولكنه في نفس الوقت خشى على رضوانة من قلقها بسبب جهلها مكان ابنتها، واقترح أن يذهب إليها ليطمئن قلبها بشأن ابنتها، وما كاد أن يفعل حتى وجد باب داره يطرق وأحدهم يقول بلا أدبٍ: «سأكسر الباب على رؤسكم إن لم تخرجوا أحلام»، فارتعبت أحلام واحتمت بظهر نعمة، وفشلت نعمة في أن تطمئنها، وقبل أن يفتح بكر الباب لمفيد ورضوانة كانت قد دخلت أحلام إلى غرفة سمر ومن خلفها قدرية، فاعتذرت أحلام عن كل ما تسببت فيه من إزعاج، إلا أن قدرية لم تقبل اعتذارًا ولامتها على رفضها للزواج من برهان الرجل الثري الذي لن يجعلها تحتاج لشيءٍ في ذلك العالم.

- إنه ثري المال فقير الود والسعادة والحب، قالت أحلام مجيبة على نصيحة قدرية.

واستحقرتها قدرية بنظرةٍ بائسة إليها، وخرجت نحو رضوانة ومفيد الذي كان يوبخ نعمة ويتهمها أنها هي من تُقوي قلب أحلام عليه وتجعلها تعصي أوامره لأجل أن يعيد لها مالها في زوجها، وكادت أن ترد عليه نعمة إلا أن قدرية أسكتتها بصوتها الصاخب وهي تُوجه حديثها نحو مفيد: «ابنتك غبية، كيف ترفض المال وكل ذلك العز من أجل شعاراتٍ لا تُغني من جوع؟»، سمع مفيد تلك الكلمات وتهلل فرحًا لأنه وجد طوقًا من نجاة، فهناك امرأة فيمن حوله تؤيد أفكاره، واستطاعت بذلك قدرية أن تلفت نظر مفيد خاصة بعد وصفها للذين يربطون حياتهم بالفقراء تاركين راحة المال بالأغبياء، وكانت بذلك تقصد أحلام إضافة إلى بكر ابنها المتمسك بسمر.



هدأ مفيد وخاصة بعد طلب قدرية منه أن يتحدثا سويًا في غرفة الإستقبال دون أن يرافقهما أحد، وكانت تلك الجلسة بمثابة إعلان توافق بينهما، فقد فتحت قدرية قلبها لمفيد وأخبرته رفضها فيما يخص زواج بكر من سمر، وأعلنت له صراحةً أنها ترغب في تزويجه من ابنة أختها سهيلة، لكنها في نفس الوقت لا تستطيع إقناع ابنها بذلك، وأنها بقمة الحزن لتمسك بكر بسمر، وانتهت الجلسة فيما بينهما، ووعدها مفيد ألا تكون الأخيرة مشيدًا بذلك لأفكار قدرية وانحيازه لها، وخرجا من غرفة الاستقبال وأعلن مفيد للجميع أنه لن يغصب أحلام على الزواج من برهان ولا غيره، وأخبرهم أن قدرية قد أقنعته بذلك، واستغربت سمر من قول مفيد؛ فكيف لقدرية التي تؤمن بما يؤمن أن تقنعه لترك ابنته لرغباتها؟ ولكن سمر لم تستطع أن تخبر أحدًا بما في قلبها خاصة بعدما رأت من أحلام فرحة استجابة أبيها لها، وكما أحلام فعلت رضوانة، حتى نعمة لم تدقق في كلمات مفيد وفرحت لما هم عليه من فرح.

وخرجت أحلام مع أبيها وأمها متجهين إلى بيت رضوانة دون أن يتحدثوا في شيءٍ طوال الطريق، وعادت نعمة إلى منزلها مع ابنتها مسلمة داعية الله أن يصلح حالًا يحسبه البشر لن يتغير مهما مر الزمن.

«ثمة نوع من الشقاء.. هو أنك تختار ما لا يليق بإنسانيتك»





«الواجب بالنسبة إلينا هو أن نكمل ما بدأه من سبقونا إليه، علينا أن نحقق التوسعات المنشودة في المدينة الكبرى، وعلينا لتحقيق ذلك أن نسحق كل من يعترض طريقنا حتى لو ملأنا الكون بدمائهم، علينا أن ننجح وأن نكتب في تاريخنا ما يفخر به أبنائنا، وأن يتباهوا بقولهم آبائنا صنعوا لنا وطنًا ومدينة فاضلة كأنها الجنة»، ذلك هو الخطاب الذي بدأ به رئيس من يستبيحون أوطان غيرهم ليجعلوا منها جنة لهم مهما كلفهم ذلك من نفيس.

تهلل الجميع إثر تلك الكلمات، ورددوا كلمات الولاء والطاعة للأوامر، ثم صمتوا ليستمعوا لما تبقى في حلق رئيسهم من كلماتٍ، والذي قام بإمساك مكبر الصوت ثانية ثم قال: « علينا كما توسعنا في الفترة الأخيرة بالأرض أن نتوسع بنشر هويتنا في تلك البلاد، وذلك لن يكون إلا بسكانٍ منا ليصبحوا مواطنين هناك، لا تخافوا من فكرة الموت أو الحرب، نحن القوة العظمى التي يهابها الجميع، نحن من نمتلك أعظم البنادق التي ستسحقهم، مدينتنا هناك مغلقة علينا، لا يجرؤ أحد من الغرباء المساس بها»، كلمات الرئيس تلك المرة كانت موجعة لأن شعبه لا يريد الاقتراب من تلك المدينة إلا وهي خالية تمامًا من الحرب والدماء، إنهم يكرهون الموت ويهابون الحجارة رغم أن مقابلها البنادق الساحقة، وبهت الجميع وصمتوا، ولكن دهاء الرئيس جعله يُكمل حديثه قائلًا: «من سيذهب سيهب له منزلًا بالمجان، ورصيدًا بنكيًا يحميه من الفقر، وتعليم وزواج على نفقة الدولة لأبنائه، سيوهب الجنة وهو على سطح هذا الكوكب»، وكانت كلماته تلك رنانة في قلوب البعض من بينهم جورج وامرأته كريستينا، كما رنت في قلب جيرانهم كهيل وامرأته صوفيا.



حماس من الأسرتين للذهاب إلى المدينة الفاضلة المتاح بها كل شيءٍ دون مقابل، فما دام وعدهم رئيسهم أنهم سيبقوا فيها مدنين لا شأن لهم بحربٍ ولا بدماء، ولن يدخل عليهم أحد ممن يكن لهم العداء، فما الذي يجعلهم يترددون في الأمر؟ إن لديهم التزامات تربية أبنائهم، وجورج وكهيل يتشاركان في محلٍ لبيع الأعشاب، ولم يعد الحال به من اليسر كما في السابق، والاثنان يريدان المال دون عناء، فاتفقا فيما بينهما على كتابة أسمائهم في الكشوف الراغبة في الرحيل إلى الوطن الجديد، الوطن الذي ليس من حقهم، إنه فقط طمعهم جعلهم يستبيحون غيرهم وينسوا أن لهذا الكون من هو أقوى وأعدل منهم، وجاء الكشف ودوَّن كلاهما أسمائهم وأسرهم في الراغبين في المال والمسكن المجاني حتى وإن كان على حساب غيرهم من أصحاب الحق، لا يهمهم شيئًا، المهم رغباتهم وملذاتهم هم، وعاد الجيران مع بعضهم البعض إلى ديارهم ينتظرون بشغفٍ الوقت المحدد لسفرهم، وكان لجورج من الأبناء توأم وهما ألدو وشيرا، وكلاهما في سن العاشرة، وانزعجا حين فهما أنهما سيتركان مدارسهما وأصدقائهما وكل ما لهما من أجل شيءٍ لا يفقهانه، ولكن لم يكن لرفضهما وزن أمام رغبة جورج وتأييد زوجته كريسينا في ذلك الرأي لحبها سلطة المال وامتلاك الرفاهية فوق كل شيء.

أما كهيل كان له من الأبناء ابن واحد يسمى أندرو، وكان يكبر شيرا بعامين، ولم يفرق معه حين أبلغه كهيل أنهم سيرحلون إلى مكانٍ آخر أي شيءٍ سوى أن يكون المكان الجديد أفضل ممن هم فيه في وقتهم الراهن.



خمسة عشر يومًا ويُحدد موعد سفر الأسرتين مع بعض الأسر الأخرى التي وجدت الجنة في اختيار المجهول الذي عظمته الدولة لهم، ووجدوا متعتهم في اختياراتٍ ليست من حقهم.

وأخيرًا تحقق حلمهم ووصلوا إلى مدينتهم الفاضلة، ووجدوا كل ما وعدوا به خلال الثلاثين يومًا الأوائل من وصولهم، فها هم لديهم المسكن والحساب البنكي والتعليم المجاني، لكنهم ما تخيلوا يومًا أن هناك مقابل، إنهم تخيلوا أن كل ذلك دون شرطٍ أو قيدٍ، وباغتتهم قواعد المدينة التي لم يكونوا على علم بها من ذي قبل، أولًا لا يمكنهم الرجوع حيث أتوا أو حتى الرحيل لأيٍ مكانٍ آخر ولو على سبيل السياحة، ثانيًا وهو الأمر البالغ الأهمية وهو أنهم سيكلفون ببعض المهمات التي تضمن لهم عدم الخروج من المدينة وعدم تعرض أحدهم للخطر يومًا، من بينها أنهم سيزوجون أولادهم الذكور من فتيات أهل البلد الأصليين ليكون الجيل الجديد على هويتهم ومدموج فيه، فيضمنوا عدم الاستمرارية في النزاعات فيما بينهم.

وهناك البعض منهم سيكلفون بمهماتٍ خاصة من الواجب عليهم تنفيذها دون فهم أو اعتراض.

هو سجن كبير على الجميع احترام قواعده من أجل سلامة صنيع وطنهم، وجاءت مواعيد الدراسة والتحقت كل من شيرا وتوأمها ألدو بالإضافة إلى أندرو صديقهما وجارهما إلى مدرسة الدولة، هكذا يُطلق عليها «مدرسة الدولة»، أيةُ دولةٍ تلك التي يصنعوها على غير أرضهم، وبشعبٍ يمشي بقواعدٍ محكومة؟ولم يكن الالتحاق بتلك المدرسةِ من اختيارٍ آبائهم، وإنما فرض السلطة الواجب تنفيذه دون اعتراض، وكما



قيل لهم ذلك التنفيذ من أجل مستقبل وطنهم وأبنائهم ليجدوا ما تمنوا أن يكونوا عليه.

وكانت مدرسة الدولة صارمة في تعليماتها، وعلى جميع الطلاب السمع والطاعة وإلا العقاب بأشد الأساليب التي لا يمكن لبشري أن يتخيل أنها تُمارس على من هم في أعمارهم، هكذا جرت الأمور في مدارسهم التي كانت تلقن الأطفال أن الولاء للمدينة هو هدفهم السامي، وأن الحق هو العداء لكل من يكن لها سوءًا أو يحاول هدمها أو فض سلامتها.



«وإن حاربوك جاهد لتبقى إنسانًا»



وحين يسألونك عن الطهر قل هو رجلًا لم ينسَ إنسانيته في غمار الدنيا وأخبرهم أنه رجل لديه القدرة على أن يظل على نقاء قلبه، وأنه يجاهد في سبيل سلامته النفسية بإسعاد الآخرين، وهذا القول ينطبق على كارم، أتمنى لو أنكم تتذكرونه، ذلك الشاب الذي شهد حادثة سقوط حجرٍ على رأس عمران مفاديًا ابنته مسلمة، ذلك الرجل الثلاثيني الذي فر من وطنه عبر النفق لينقذ نفسه من الموت بلا حقٍ على يد مغتصبي الوطن، والذى ظل هاربًا في وطن غير وطنه مدة تزيد عن السبع سنوات، لقد هرب بجسده لكن قلبه ظل عالقًا بوطنه وبحريته وبإظهار الحق جليًا لذلك العالم الذي يصمت عن قول الحق، مرت السبع سنوات عليه شاعرًا بالعجز عن مواجهة الظلم والذل لكونه هاربًا من قضيته، وظل طوال السبع سنوات يبحث عن طريق العودة بطريقةٍ تجعله يواجه كل ظلم، وذات مرةٍ نصحه صديقه أن الحل في العودة إلى بلاده أن يغير هويته؛ لأنه إن لم يفعل فسيكون الموت أمرًا حتميًا، ولن يستفيد شيئًا كما وطنه، واقتنع كارم بما قاله صديقه وبحث كثيرًا عن طريقةٍ ليغير بها هويته لكنه فشل في النهاية، وقرر أن يعود لنهاية النفق ليعبره ثانية وليكن ما قدر له، وعاد كارم ووجد هناك مسؤلي العبور الذين منعوه باللين لمراتٍ ألا يفعل، وبالقوة مرات إلى أن جلس مع كبير مسؤلي النفق في ليلةٍ مقمرة، ولقد سرد له معاناته السابقة في محاولاته لتغيير هويته لدخول البلد مرة أخرى لكنه فشل، ولقد سرد مدى يأسه من الهرب ورغبته في العودة إلى وطنه، صمت كبير النفق وأطال النظر فيه بعدما سمع سرده، ثم طلب من كارم أن يعطيه مهلة أسبوعين لعله يستطيع أن يساعده في أمره، ووفى الرجل بوعده، وفي خلال أسبوعين استطاع أن يفعل شيئًا، لقد أتى لكارم بهوية شابٍ مماثل له في العمر، ومشابه له في



الشكل، ولقد توفي منذ ستة أشهر، وسعد كارم كما لم يحدث له منذ سبع سنوات، الآن سيستطيع الدخول إلى وطنه مجددًا، وسيرى أهله ويلامس أحضانهم من جديد، الآن لن يبقَ بذُل العجز وهون الانتظار، دخل كارم النفق وعاد إلى وطنه في أقل من سبعة أيام، ولقد اشتاق لأمه وأبيه وإخوته ولم يستطع الانتظار، فذهب إليهم بلهفة المحب وسرد لهم كل ما مر به وما انتهى إليه، وطلب منهم مساعدته في الأمر، وأن لا يبوحوا بأمر هويته الجديدة لأحد، ولقد أفهمهم أنه لن يستطيع أن يعيش معهم؛ لأن الكثير من جيرانهم سيشتبهون به رغم أنه أطلق لحيته وغيَّر من تفاصيل وجهه بمواد التجميل ليتقارب مع هويته الجديدة، وتفهم أهل كارم الأمر، وعلى الرغم من صعوبته عليهم إلا أنهم وافقوا لأمان ولدهم، وجاء الليل وما استطاع كارم أن ينتظر للصباح، إن في قلبه شغفًا ليرى الطفلة الصغيرة وماذا أصبحت عليه بعدما أنقذها والدها من الموت، ولقد عرف كارم عنوان نعمة من ابن الشيخ أنس، ولم يتردد في الذهاب إلى مسلمة ونعمة ليرى أحوالهما؛ خاصة وأن نظرات نعمة الحزينة وبكاء الطفلة لم يخرجا من رأسه منذ الحادثة، ولقد عزم كارم على التوجه إليهما ليرى نظرة اطمئنانٍ من نعمة بدلًا من تلك الحزينة التي علقت في عقله تجاهها، وتوجه ليلًا إلى العنوان الذي قد عرفه مسبقًا، وفتحت له فتاة تمتلك من العمر ما يقرب من السبع سنوات، فنظرت له متسائلة عما يريده فباغتها بقوله: « أنتِ مسلمة؟»، فاستغربت، رجل يعرفها جيدًا وهي لا تعرف عنه شيئًا، وأدركتها نعمة ولم يكن شكل كارم قد ذهب من عقلها، وإنما اختلط عليها الأمر لكونه أطلق لحيته وغير لون شعره إلى البني وغير في ملامحه بقدرٍ ما، وكادت أن تنطق باسم كارم لكنها تراجعت بالأخير، فلحقها كارم بقوله: «لقد تقابلنا في موقفٍ لا يسر»،



فتيقنت نعمة بذلك من تخمينها وقالت: «كارم!»، فابتسم لها معلنًا صحة ذاكرتها.

تحاورا كثيرًا، وفهمت نعمة كيف دخل للبلد ثانية، وما الحكمة من أنه غير ببعض شكله، ولم تستوعب مسلمة بالأخير مَن ذلك الشخص ومن أين عرفته نعمة، إن نعمة لم تخبر مسلمة يومًا بما فعله عمران قديمًا، إنها ترغب في أن يظل عمران طاهرًا قديسًا في ذاكرة ابنته، ولقد احترم كارم رغبة نعمة في عدم البوح أمام مسلمة بالسالف، وغادر كارم نعمة على وعدٍ منه بزيارةٍ أخرى قريبة، وكيف له ألا يفعل بعدما صُدم من رؤيته لنعمة المصابة في عينها جراء ظلم الآخرين، وخرج كارم قاصدًا عبد الله صديق طفولته للمبيت لديه.



«لا يترك الله عباده الصابرين»



طقوس من ظلم جديد تدب بمدرسة مُسلمة، وسيادة من قهرٍ لقلب أم يدمي قهرًا على فَقد طفلها، ففي الساعة الثانية عشر ظهرًا دخلت وجيدة في موعدها لفصل مسلمة الدراسي، وكانت وجيدة في الفترة الأخيرة بَنت لنفسها قاعدة شعبية بداخل المدرسة، إلا أن هناك البعض كانوا لا يستساغون حديثها من بينهم على سبيل المثال مسلمة وصديقتها رقية ابنة رجلٍ طيب اعتاد المساجد وعلم ابنته مما علمه الله، وقد كانت كثيرًا ما تذهب نعمة بمسلمة إليه ليعلمها مع ابنته فضل الإسلام وطهارته، بالإضافة إلى يوسف وغيرهم من الأطفال الذين شابوا من الحرب قبل أوانهم، ولقد كانت وجيدة تُغري الأطفال عن طريق الهدايا سواء المالية أو المادية، وتستغل سن الأطفال حيث لا علم لهم بالفرق بين هدية المصلحة وهدية الحب.

المهم في آخر خمس عشرة دقيقة وجهت وجيدة حديثها للطلاب وقالت: «لمن يستطيع منكم تذكر أغنية وطني الأم في فيلم «المعركة على جبل القوة» ذلك الجهاز»، وأشارت بيدها إلى هاتفٍ محمول قد وضعته مسبقًا على مكتبها، ولقد هلل أحد الأطفال فور سؤالها لأنه يمتلك الإجابة التي ستجعله يحصل على الهاتف المليء بالألعاب، وانفعل قائلًا الأغنية تقول: «انهضوا يا من ترفضون أن تكونوا عبيدًا»، فاستوقفته وجيدة قائلة: «أتعرف متى نكون عبيدًا؟، فأجاب الطفل بـ «لا»، فقالت وجيدة فيما معناه وكما يفهمه طفل في عمره: «حينما ترفض فكرة الأديان».



لم تستطع رقية صديقة مسلمة أن تصمت، وخرج صوتها معترضًا على قول وجيدة وقالت: «إن الدين الحرية، إن الإسلام العظيم جاء ليحررنا من العبودية»، ولم تتخيل وجيدة أن طفلة بسن رقية تنطق بتلك الكلمات أو تعارضها، وما استطاعت أن ترد على رقية إلا بصفعها فسقطت أرضًا، فانتفض قلب مسلمة التي كانت تتجنب الرد على وجيدة في الفترة الأخيرة كسلاحٍ منها لعدم العقاب، لكنها تلك المرة نزلت لتساعد رقية على النهوض وهي تقول: «لقد علمنا شيخنا أن الإسلام دين عظيم، وأنه من غير النبل أن تتطاولي عليه وعلينا»، وانفجرت وجيدة إثر تلك الكلمات وأمسكت بمسلمة ورمت بها نحو حائط الفصل الخلفي فوقعت أرضًا وجرحت يدها إثر ذلك، ولم تكتفِ بل أمسكت رقية ثانية ورمت بها ناحية الحائط الأمامي فارتطم رأسها بالسبورة وأصبح المكان غارقًا بدم رأس رقية، وانتشر الزعر بالفصل الدراسي المفترض أنه حرم لا يحدث فيه إلا ما طاب للإنسان أن يراه.

هرولت مسلمة نحو صديقتها لكن وجيدة بجبروتها منعتها من الاقتراب، فظلت مسلمة تملأ المكان بصوتها الهزيل تنادي على صديقتها: «رقية يا رقية»، لعلها تجد إجابة، لكن ظلت النتيجة هي الفشل.

هرج ومرج بالصف الدراسي، بكاء وزعر للبعض منهم، وعدم سيطرة من وجيدة على الحادث، وكيف لها أن تفعل وهناك طفلة غارقة في دمائها؟ وجاءت من شدة الصوت مديرة المدرسة لتندهش من سقوط رقية والدم يحاوط رأسها من كل مكان أرضًا، وتساءلت في زعرٍ ما الذي حدث؟ وأجابتها وجيدة بزعرٍ عن سؤالها، ثارت المديرة لكنًّها



هدأت قليلًا وأمرت وجيدة ألا تنطق بشيءٍ مما حدث أمام السائلين الذين سيتوافدون على الفصل الدراسي تباعًا سواء مدرسين أو مساعدين ورجال أمن، وأقسمت وجيدة ألا تفعل أو تنطق بشيء.

نصف ساعة وامتلأ الفصل الدراسي على أشده، واضطرت المديرة أن تصرح للطلاب بالعودة إلى منازلهم لأن الأمر غير مؤهل لإتمام العمل.

وخرج طلاب المدرسة لا سيرة لهم غير القتيلة الطفلة، وبدأت الأخبار تسلل إلى الأهالي وانزعجوا حتى عاد كل ابن إلى حضن داره.

ولقد خرجت مسلمة من الصف غصبًا عنها، لم تكن تريد ترك رقية صديقتها، كانت تتخيل أنها من الممكن أن تنهض لتذهب معها، وتوجهت مسلمة إلى المنزل فباغتت نعمة بوصولها المبكر، نعمة التي لم تكن تعلم أي شيءٍ عن الحادث، فانزعجت حين رأت مسلمة قادمة في غير موعدها وبهيئتها الباكية المذعورة.

- ماذا بكِ؟ ما الذي حدث؟ تساءلت نعمة وهي تمسك بذراعي ابنتها زعرًا عليها، وتلعثمت مسلمة في الحديث ثم نطقت أخيرًا قائلة:
- طلاب المدرسة جميعهم غادروها إلى منازلهم بأمرٍ من المديرة.
- لماذا؟ عليكِ إجابتي.

قالت نعمة وصمتت مسلمة، ثم نظرت نعمة إلى ذراع مسلمة المجروح وتساءلت عما به. .



- لقد رمت المعلمة وجيدة رقية نحو الجدار الأمامي للصف والذي به السبورة، فارتطم رأس رقية بها وسقطت أرضًا وحاوطتها الدماء، وأمرونا بمغادرة المدرسة.

لم تستوعب نعمة كلمات مسلمة، فأجلست ابنتها لتفهم منها تحديدًا ما سبب كل ذلك، وشرحت مسلمة الذي حدث تحديدًا، فاعتقدت نعمة أن رقية قد أصيبت في رأسها إلى أن دخلت عليها سمر تبحث بنظرها عن مسلمة لتطمئن عليها، وما إن وجدتها حتى احتضنتها وحمدت ربها على أنها لم يُصِبها مكروه، ثم صدمت نعمة بخبر مقتل رقية.

لم يكن وصل لأحد من الأهالي خبر عن القاتل الحقيقي، لكن ما فهمته نعمة من مسلمة أن القاتلة هي وجيدة، وهذا ما أخبرت به سمر التي اقترحت أن يذهبن إلى المدرسة حيث الرجل الصالح والد رقية ووالدتها لعلهن تستطعن تخفيف الحمل عنهما، وما لبثت نعمة حتى ارتدت ملابسها وتوجهن نحو باب الدار الذي فتحته سمر وتسمرت عنده لوجود رجال الأمن عنده، ليسألها رجل طويل أبيض الوجه قوي البنية عن مسلمة.

- ما الذي تريده منها؟

سألت سمر واحتضنت نعمة ابنتها خوفًا عليها، فنظر رجل الأمن إلى الطفلة القابعة في أحضان والدتها وسألها:

- أأنتِ مسلمة؟

فأجابته الطفلة بتلقائيةٍ:

- نعم.



فانتزعها من أمها وأدخلها سيارة الأمن، وقال لهما وهو غير ناظرٍ إليهما:

- ابنتكم متهمة بقتل رقية رفيقتها في الصف الدراسي. ثم انطلقت السيارة من بعد صوت الرجل الذي لم تستوعبه نعمة، والتي انهارت إثر كلماته لتسقط مغشيًا عليها لعجزها، ولظلم واقع على طفلتها الصغيرة التي من الممكن ألا تتحمل كلَّ ذلك العبث، ولإيمانها بطهارة ابنتها من ذلك الذنب.



«لكن التجارب قاسية»



كل تجربة تمر بك هي بمثابة قوة تحتمي بها في مواقفك القادمة، لكن التجارب تكون قاسية أكثر مما يتوقعه المرء في كثيرٍ من الأحيان، ولم تكن أحلام ابنة مفيد تتوقع تجربة غدرٍ من والدها بذلك الشكل، ربما لو قلنا أن هناك عقوق والدين سيكون في الجهة الموازية عقوق أبناء، وذلك العقوق هو ما جنته أحلام من مفيد، لقد غدر بها حين قال لها أنه صرف نظره عن فكرة زواجها من برهان، ولقد صدمها في ليلةِ أخذ رجال الأمن لمسلمة بأن أتى ببرهان وسيادة الشيخ الذي من المفترض بعَقد قران أحلام على برهان، ولقد هددها إن لم تبره وتوافق على الزواج من برهان سيقوم بإنهاء حياته، فكيف له أن يعيش مرفوع الرأس بعد أن يعلم الجميع أنه لا يستطيع الحكم على ابنته، وأنها لا تحترم كلمة رجلها.

الموت لها أم لوالدها؟ على أحلام أن تختار ذلك في أقل من خمس دقائق، واختارت أن تفقد حياتها بموافقتها على الزواج من برهان على أن تكون سببًا في فقد أبيها لكرامته وعزته، وليبقى مرفوع الرأس كما يرى، اختارت أن تُسجن في قصر برهان على أن تحمل ذنب أبيها إن نفذ تهديده لها بإنهاء حياته إن لم تطع أمره.

وما استطاعت رضوانة أن تفعل شيئًا حيال موقف ابنتها، فأحلام قد أوهمتها أنها أعادت تفكيرها، وأنها ستكون ممتنة لو عاشت حياتها بقصرٍ كقصر برهان، واستقلت سيارة فخمة كما التي يمتلكها من سيكون رجلها.

- لكن الحياة لا تقاس بالمال يا أحلام وأنتِ تدركين ذلك جيدًا.

قالت رضوانة لابنتها التي صمتت عن الرد، فأقسمت عليها رضوانة أن تحكي ما حدث بينها وبين أبيها حين كانا وحدهما بالغرفة، فرفضت أحلام أن تبوح بثمة شيء، لكنها دخلت بأحضان والدتها وهي تقول:

- كل ما أحتاجه هو أن تطلبي الدعاء لي يا أمي لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا. ثم من بعدها أفلتت حضن رضوانة لتخرج إلى عاقد القران لتقول له: «موافقة».

ثمة اختياراتٍ تزعجنا ما دمنا على قيد الحياة، وثمة تصرفاتٍ لم نكن أبدًا نتخيل أننا سنفعلها يومًا، وثمة فقدٍ كان يومًا أغلى من كل ذلك الذي نتمنى فقده ليظل معنا ما فقدناه، وأحلام التي لطالما تمنت أن تعيش قصة حبٍ كعمر الشريف وفاتنته، وأن تقابل ذلك الرجل الذي لا يتردد أن يغير مفاهيمه لأجلها، وأن تُرزق رسائل عظيمة كالتي كتبها كافكا لحبيبته، وأن تصبح ناجحة برفقته كما سارتر ومفكرته سيمون، أحلام التي كانت ترغب بتفاصيل الحب كتذكر الموسيقى التي سمعتها مع رجلها لأول مرة، الآن تبيع كل ذلك من أجل أبيها لترحل إلى قصر برهان الذي لم تكن يومًا تتخيل أنها ستسجن به، وانتقلت إليه في نفس ذات ليلة عقد القران؛ لأن مفيد رفض حتى أن يؤجل الأمر لبعدما يطمئنوا على مسلمة، ولقد نفذت الأوامر دون أن تتألم تلك المرة كثيرًا؛ لأن ذلك الألم أصغر بكثير من سابقه، أصغر من وجعها بشأن ربطها برجلٍ لا تريده ولم تحب به أي شيءٍ حتى ماله.



دخلت أحلام قصر برهان الكبير الذي رغم اتساعه لم يسع قلبها، ولم يشهد على فرحةِ يوم من المفترض أن يكون من أعظم أيامها، اليوم الذي تتمنى ذاكرة أية فتَاةٍ لو أن يتكرر كل يومٍ أحلام تتمنى لو أن يُبتر من أيامها.

نظر إليها برهان نظرة اشتهاء، وأنتم أدرك كم أن المرأة تكره أن ينظر لها رجل لا تحبه تلك النظرة، تكره أن يلمسها رجل بغير حب لأنها تعتبره سارقها الذي من المفترض معاقبته، وحاولت أحلام أن تعبر لبرهان عن عدم استعدادها للأمر الذي يريده، لكن برهان الذي يعتبرها سلعة اشتراها بماله لم يكن أبدًا ليحترم دواخلها ورغباتها ونفسيتها ويتركها لحين أن تهدأ، هو رجل لا يفهم كيف لامرأةٍ سيجعلها تعيش بكل ذلك الثراء أن تقول له: «لا»، أو أن تكون دواخلها بها من البؤس ما يجعلها ترفض زوجها في أول يومٍ لهما معًا.



«إنه من أقسى حالات الحزن أن يتآمر ضدك الأقربون»



من المفترض أن يكون الأقربون منك لديهم قدسية من مشاعرٍ تجاهك فلا يتآمرون ضدك وإنما يسندوك في مواقفك، ويشدون على يدك لتختار الصواب، وإن من أقسى حالات الحزن التي قد يتعرض لها المرء أن ينسى أهله تلك الفضيلة ويتآمرون ضده لنيل مكسب أو مصلحة، والأوجع أن يتحالفون مع الغرباء كي يصفقوا لأنفسهم؛ حيث أنهم كسبوا حربهم وأجبروك على اختيار ما لذَّ لهم، وهذا بالتحديد ما فعله مفيد، لقد تحالف مع قدرية ضد ابنته أحلام، فقد قابل مفيد قدرية مرة أخرى بعد لقاءهما الأول في منزلها.

مبدأيًا عليكم أن تعلموا أن قدرية هي السبب الرئيسي الذي جعل مفيد يوهم أحلام أنه غض نظره عن أمر زواجها بمفيد كي تعود معه إلى البيت، وأن تطمئن فلا تعود لفكرتها في الهرب مجددًا، وفي النهاية هي من اقترحت عليه فكرة مباغتة أحلام ببرهان وعاقد القران، وأن يهددها مفيد بإنهاء حياته إن لم تفعل.

من أسوأ الأشخاص الذين يمرون بك في الحياة هو شخص عرف نقطة ضعفك فاستغلها ضدك، ولكن لمن تقول ذلك؟ ألقدرية التي قرأت نفسية أحلام منذ اللحظات الأولى التي رأتها فيها، وعرفت أنها فتاة مرهفة الحس رقيقة المشاعر تحب والدها كثيرًا رغم بعده وسوء تصرفاته؟ فانتهزت نقطة ضعفها في جعلها توافق على رغبة مفيد وقد كان له ما أراد.

ولم يتأخر مفيد بعد انتهاء مراسم ذهاب ابنته إلى قصر برهان أن يهاتف قدرية ليشكر لها جميل صنعها معه ونجاح فكرتها فوعدته أن يكون لهما لقاء قريب.

«من البؤس أن تتصيدك الأحزان قبل أوانك»



أن يطحنك وطنك وأنت لم تتجاوز الثامنة من عمرك، وأن تقتلك الدهشة مما يتهمونك به، وأن تشيب قبل أن تتقن اللعب مع رفقائك على جنبات الطريق، وأن تتصيدك الأحزان قبل أن تنضج، وأن يُرهقك عدم فهم ما يدور حولك من حدث، وأن تُحرم من ممارسة طفولتك كمن هم في سنك؛ هذا قدر، على الله وحده إعطاء الصبر للشخص المُبتَلى به، ولقد تعرضت مسلمة لكل ذلك السابق ذكره، مسلمة المتهمة بقتل رقية، مسلمة التي لا تعرف مفهومًا للقتل ولا معنى لجريمةٍ كتلك، حتى أنها لا تعرف لماذا اتهمتها وجيدة بفعلةٍ كتلك؟ لا تعلم أنها تحاول أن تخرج من فعلتها سالمة بإلصاقها لغيرها، وجيدة التي نفذت أوامر مديرتها بالحرف في أن تخبر رجال الأمن أنها ذهبت لغرفة المديرة بناءً على طلبها، وما إن عادت حتى وجدت شجارًا بين الطفلتين أدى إلى ذلك الحدث، وما ترددت سيادة المديرة بالتصديق على كذبها.

الأغرب من ذلك أنهم أتوا ببعض الأطفال القريبين منهم ليلقنوهم ما سيقولون حين يطلبهم رجال الأمن للشهادة، ولقد كانت وجيدة والمديرة في حالة هدوءٍ توحي بأن هناك يدًا ستساعدهما في الأمر دون تحقيقاتٍ ودون شهادات، وإن كانت فستكون صورية، لقد كانتا مطمئنتين أن السلطات اللاتي تعملان لصفهما لن يفلتونهما بتلك السهولة كي لا ينتشر بين الذين ينون العمل معهم أنهم يتخلون عن من يعملون معهم بمجرد سقوطهم بمأذق، إنهم يتمسكون بالمسلمين الذين يقبلون بسلطة المال مقابل مساعدتهم في تغيير هوية من حولهم بأيديهم وأسنانهم، ولقد وعدوا وجيدة بأن يظلوا بظهرها حتى ينتهي الأمر وتلصق



التهمة بمسلمة الفتاة المشاغبة التي لا تقبل في كثيرٍ من الأحيان بحديث وجيدة، والتي من المتوقع أن تثير ضدهم الشغب مستقبلًا.

ولقد علموا أن القضية أُرفقت لمركز تحقيقٍ تابعة لهيئة المسلمين، إنهم في الفترةِ الأخيرة حوَّلوا كثيرًا من مراكز التحقيق إلى سلطاتهم الشيوعية، ومن المخطط أن يحوِّلوا كل المراكز لتكون تابعة إليهم، لكن منطقة مسلمة كانت ضمن المناطق التي لم يتغير فيها مركز التحقيق وظل وطنيًا إسلاميًا كما هو، ولما علموا ذلك كان لهم تدخل، حيث توسطوا لتكون القضية بيد السيد «نائل»، ذلك الرجل الأربعيني والذي يعرفون نقطة ضعفه جيدًا، نائل في الفترة الأخيرة لم يكن يهمه بحياته سوى علاج والدته التي أرهقها المرض، الذي أفقدها كثيرًا من نظرها وقوتها وشعرها ونضارتها، والتي تنتظر الموت بين لحظةٍ وسواها، وهذا ما كان يجعل نائل في كثيرٍ من الأحيان لا يركز بعمله لتفكيره المتواصل بشأن والدته، وخاصة بعد معرفته بأنه من الممكن علاجها بدولةٍ أوربية، ولكن من أين له المال الذي يسهل له نقل والدته إلى خارج البلاد؟ وحتى وإن وجد المال فمن أين له الواسطة التي تجعل السلطات توافق على إخراجه وأمه من البلاد؟ ذلك لأن أمر الخروج أصبح شبه محرم في الفترة الأخيرة، فالسلطات تخشى أن يخرج أحد المواطنين الأصليين إلى الخارج لتصل أخبار العنف والقتل إلى البلاد الأخرى، فتتحرك ضدهم الهيئات والمنظمات الحقوقية، وعلى الرغم من ذلك لم ييأس نائل يومًا من رحمة الله وجبره، ولم ينقطع يومًا عن الدعاء لله ليبسر له الأمر ويخرجه وأمه من أزمتيهما.

دخل نائل غرفة التحقيق التي انتظرته مسلمة فيها لأكثر من ثلاثين دقيقة، ليفاجأ بطفلةٍ هادئة الملامح، يعلو على قسماتها عدم فهم ما هي عليه من مأساة، ابتسم لها فبادلته التبسم وأجلسها إلى جواره، وحاول أن يمنحها الأمان ونجح في ذلك فقال لها:

- هل يمكنكِ إخباري بشيءٍ ما أحتاج معرفته؟

قالت مسلمة:نعم، لكن هل تعدني أن تعيدني إلى أمي من بعدها؟ لا أريد البقاء هنا وحدي دونها.ابتسم لها نائل، هو لا يستطيع إبرام ذلك الاتفاق معها، وعاود سؤالها عن الأحداث التي وقعت بصفها الدراسي وأدت إلى وفاة رقية، فسردت له مسلمة بالحق كل ما حدث، ولقد اقتنع نائل بروايتها، فمن غير الممكن أن تؤلف طفلة كمسلمة تلك الرواية لتنجو بفعلتها، أما وجيدة فروايتها بأن شجارًا قد حدث بين طفلتين أدى لقتل إحداهما للأخرى لم تكن مقنعة تمامًا بالنسبة له، ولقد أدى به تفكيره لأن يأتي بالأطفال إلى مركز التحقيق لأخذ شهادتهم، لكنه تراجع عن الفكرة كي لا يهين طفولتهم، وهداه الله أن يذهب بنفسه للصف الدراسي وليرى ماذا سيقول له رفقاء مسلمة، ولقد أمر مساعده باحتجاز مسلمة حتى يتبين له الأمر، وكان أمر نائل ذلك بناءً على قوانين بشرية قد تُخطىء في كثيرٍ من الأحيان، أما قلبه فكان يبكي لبكاء الطفلة لاحتياجها للذهاب إلى أمها ودارها، وارتعبت وجيدة حين علمت من مصادرها أن نائل سيزور المدرسة، كانت تتوقع أن نائل إن طلب فسيطلب طفلًا أو طفلين للشهادة، ولقد كانت أعدتهم مسبقًا ليقولوا له ما أرادت هي، أما أن يذهب للمدرسة فهي لن تستطيع السيطرة على كل الطلاب لينطقوا بما رغبت وبما يحميها من المساءلة.



لم يتأخر نائل كثيرًا، ولقد اتجه نحو المدرسة في الثامنة صباحًا من اليوم التالي، ودخل إلى الصف الدراسي فبُهت وجه وجيدة، ولقد لاحظها نائل ومن بعدها طلب منها الخروج لحين أن يتحدث إلى الطلاب للحظة، وسأل الطلاب عن الواقعة، فكانت إجابات الطلاب أغلبها يقول أن وجيدة هي السبب الرئيسي، وهناك البعض من الطلاب ممن اختلط عليهم الأمر واعتقدوا أن مسلمة وهي تحاول مساعدة رقية للنهوض قد قتلتها، لكنهم بعد أن تناقشوا مع زملائهم احتاروا بين الرأيين، وظل ثلاثة طلاب متمسكين في الرأي بأن مسلمة هي العامل الأساسي في الحادثة، واحتار نائل بدايةً في الأمر، وما لبث أن سمع صوت عراكٍ بالخارج، فخرج ليرى ما الأمر، فوجد يوسف ابن مفيد يحاول أن يخلص نفسه من يديْ وجيدة التي تمنعه من الدخول إلى نائل، وما إن رأى يوسف نائل حتى قال:

ـ قل لها تتركني، إنها تحاول منعي من الحديث معك.

صمت نائل ليرى رد فعل وجيدة التي ارتبكت بدايةً، ثم قالت:

ـ لا أريده أن يدخل كي لا يشغلك عن مهامك.

ـ اتركيه.

بتلك الكلمة رد نائل على وجيدة فقالت:ـ لكنه ليس من صف مسلمة ولم يشهد على شيء.

ـ اتركيه.

قالها نائل ثانيةً بحزم،

فاضطرت وجيدة فعل ما سمعته، فهرول يوسف نحو نائل قائلًا وهو يشير إلى وجيدة:



- لقد قال لي مصطفى أن المعلمة وجيدة قالت له ولفهد إضافة إلى ياسر الكلمات التي سيقولونها لك حين تسألهم في أمر رقية، لقد أخبرتهم أن من سيقول لرجل الأمن أن مسلمة هي التي رمت برقية ستكون جائزته نجاحًا وهدايا، ولقد أخبرني أنه حين اعترض على قولها هددته إن لم يفعل فسيكون مصيره كما رقية، ولقد حاولتُ معه أن يقول الحق لكنه يخشى المعلمة.

ولقد سمعت وجيدة حديث يوسف فانهارت وحاولت إمساك الطفل والشرر يتطاير من عينيها، لكن يوسف احتمى بظهر نائل، نائل الذي أمر مساعده بالتحفظ على وجيدة لحين دخول الفصل ثانية وإتمام عمله، ولقد استدعى نائل كل من مصطفى وفهد وياسر، ولقد أعطى لثلاثتهم الأمان، ثم وجه لهم الحديث متسائلًا:

- هل تحبون الله؟

وأوجعته أجوبة الثلاثة طلاب، فقد جاءت على النحو التالي:

- إن الله يحرمنا من أشياءٍ كثيرة نحبها، هذه كانت إجابة مصطفى.
- إن الله لا يحبنا، لقد خلق النار ليعذبنا بها، وتلك كانت لفادي.
- متأكد أن الله يكرهني لقد أمات أمي وهو يعلم أنني أحبها كثيرًا، وهذه لياسر.

وصدمت الإجابات نائل لكنه أمسك بزمام نفسه وهو يتذكر مسلمة التي أخبرته أن وجيدة قد غضبت من رقية لأنها تدافع عن الله، واقتنع

أن قولها لا يتنافى مع إجابات رفقائها، المهم أن نائل أخذ عميق نفسه ثم سأل الثلاثة:

- من أخبركم بتلك الأشياء؟

أجمعوا الثلاثة على كونها وجيدة، فابتسم لهم وأعطى كل واحدٍ منهم باكو من الشيكولاته ليطمئنهم جهته أكثر ثم قال:

- الله كثيرًا ما يحرمنا من أشياءٍ نحبها لأنه يحبنا كثيرًا ولا يريد الضرر بنا، مثلًا يحرمنا من الكحوليات لأنه يعلم أن ضررها أكثر من نفعها على أجسادنا، والله كما خلق النار خلق الجنة لعباده الصالحين الذين لا يؤذون غيرهم، ويميتنا ليبين لنا قدرته عز وجل فنؤمن به.
- معنى ذلك أن الله يحبنا؟ قال مصطفى.
- نعم، أجاب نائل وهو يمسح على كتف الطفل.وهل سيدخلنا الجنة؟ سأل فادي.
- نعم إن تصرفنا تصرفات إنسانية لا تغضبه فلا نكذب، أجاب نائل.
- لا نكذب حتى لو طلبت منا المعلمة ذلك؟ سأل ياسر.
- نعم لأن الكذب في كثيرٍ من الأحيان يضر بغيرنا ونؤذيهم به، أجاب نائل بطول صبر على سؤال ياسر.

تيقن نائل أن وجيدة هي اليد الخفية لقتل رقية، لكنه أراد أن يسمع ذلك من الطلاب، فحاول معهم ثانية وقد أشار ليوسف وهو يقول:

- لقد قال لي صديقكم يوسف أن معلمتكم وجيدة طلبت منكم أن تكذبوا عليَّ بشأن رفيقتكم رقية.

فصمت ثلاثتهم فتدخل يوسف في الحديث قائلًا:

- أنت ذكرت لي يا مصطفى أنك ستكذب وستقول أن مسلمة هي السبب في موت رقية لأنك خائف من وجيدة.
- لقد أخبرتك ألا تتفوه بهذا الحديث لأحد يا يوسف، بعفويةِ الأطفال قال مصطفى.

لم يُدَنس مصطفى كثيرًا، إنه على الرغم مما يتعرض له من أفكارٍ سيئة إلا أن طفولته وعفويته ما زالتا موجودتين، ويمكن محو أفكار وجيدة من دواخله بسهولة.

- قلنا أن الكذب يؤدي إلى إيذاء الغير، قال نائل.

وخر من بعدها الثلاثة أطفال بالاعتراف بالحقيقة، فأحدهم قال: «وجيدة هي التي رمت برقية»، وقال آخر: «المعلمة وجيدة هي التي أخبرتنا بأن نكذب وخفنا من العقاب»، وثالثهم قال: «لننجح ولنأخذ الهدايا العظيمة كان علينا أن نُرضي معلمتنا». وبذلك ظهرت الحقيقة واضحة أمام الأعين، ولقد أمر نائل مساعده أن يأخذ وجيدة إلى مركز التحقيق آملًا أن يخرج منها باعترافٍ سريع لتُعاقب على جرمها بقتلها رقية وجرمها الأخلاقي في تغيير هوية الأطفال وإبعادهم عن كل أصلٍ ودينٍ لهم.



«ما الفخر في اتخاذ الباطل سبيلًا؟»

- ما الذي يبكيكِ الآن؟ سأل أندرو موجهًا حديثه نحو شيرا صديقته وجارته.
- التدريبات الشاقة وألعابي التي نسيتها ورفقائي الذين كنت أضحك معهم من قلبي وكل ذلك التعقيد الذي أصبحنا عليه، ألا يكفي كل ذلك لأبكي؟ أجابت شيرا.
- التدريبات الشاقة أخبرونا عنها أنها هامة لأجل المحافظة على وطننا يا شيرا، عليكِ أن تفتخري بذلك كما قال لنا معلمنا وسيدنا أنطوان، قال أندرو.
- ما الفخر في مشقةٍ كتلك التي نتعرض لها؟ لماذا لم نعد كالسابق ندرس المواد التي نحبها، ثم نذاكر دروسنا ومن بعدها نشاهد برامجنا المفضلة على شاشة التليفزيون أو نخرج سويًا لنلعب أمام المنزل؟ ما الذي تغير؟ قالت شيرا.
- السيد أنطوان أمرنا أن ننسى حياتنا الماضية، وأن نتحمل كل تلك المشقة من أجل المحافظة على ذلك الوطن الذي تعب أسالفنا في تأسيسه، قال أندرو.

صمتت شيرا لأنها لم تقتنع بكل ما يقوله أنطوان، كما صمتت لعجزها عن إفهام أندرو ما في داخلها تحديدًا، ربما لأن أندرو اتخذ من أنطوان قديسًا فلا يستطيع أن يعارض كلماته، بل إنه يتخذها منهجًا.

بعد ذلك الحديث أوصل أندرو شيرا إلى منزلها؛ ذلك لأن ألدو أخيها قد تركهما ليسير هو مع أصدقائه.

ألدو وشيرا لم يتأقلما على وجودهما في المدينة الفاضلة كما يدعونها، فلطالما طلبا من أهليهم العودة حيث أتوا لكنهما لم يكونا على علم بأن أهليهم أصبحوا عاجزين عن الخروج والعودة حيث أتوا؛ فقوانينً المدينة لا تسمح بعملٍ كذلك لكونهم يريدون بناءها وقوتها وعظمتها في البداية، ولو أذنواً لأحد الخروج فمن وجهة نظرهم لن يستطيعوا الوصول إلى رغباتهم سريعًا، إن سلطاتهم ترغب في نشء جديد يعلموهم ويدربوهم ليصبحوا سلاحًا لهم ضد أيةِ هوية من شأنها هدم مدينتهم.

أما أندرو فقد تأقلم على الأوضاع سريعًا، ولقد أحب نظام الحزم والقوة والقوانين، ربما لأنه أصبح سريعًا مقربًا من سيده أنطوان، وأصبح له سيادة وهبها له أنطوان على صفه، فما الذي يضايق طفل يشعر بقيمته المضاعفة عن ذويه؟

«الوطن ليس شرطًا أن يكون أرضًا كبيرة، فقد يكون مساحة صغيرة جدًّا حدودها كتفيك، غسان كنفاني»





لم تكن مسلمة تُدرك أنها تخوض حربًا للوطن الكبير، بدايتها مقاومة كل ذلك الأذى الذي تتعرض له بسبب وجيدة، وطنها الذي تعرفه هو كتفي نعمة وما يهمها في أيامها سوى أن تكون إلى جوار أمها، أما أن تُحرم منها لسببٍ هي بريئة منه هذا ما لم تكن تفهمه، وتلك كانت بداية فهم مسلمة لمفهوم أن تُظلم، وأن تعرف أن في قولها لم أقتلها، إنها صديقتي علاوة على بكائها بداية فهم لمقاومة الظلم، وفي سرد حقيقة أن المعلمة وجيدة هي من ارتكبت ذلك الجرم بداية لحربٍ ضد كل من لا يمتلك فضيلة المحافظة على الوطن.

نعمة لم تكن تسمع صوت ابنتها، إلا أنها شعرت بكل ما تعانيه، نعمة التي انهارت حين حدث لابنتها كل ذلك الأذى والتي ذهبت خلفها برفقة سمر، ولقد منعوها من أن تدخل أو أن تكون مع مسلمة، وظلت بداخل المركز الأمني إلى أن حل الليل، فأخرجوها وسمر آمرين إياهما أن يأتيا صباحًا، ورفضت نعمة أن تترك مكان ابنتها، وتمسكت بموقفها وهو أنها لن تترك الشارع حتى الصباح لتستطيع الدخول إلى ابنتها، وما استطاعت سمر أمام موقف نعمة إلا أن تبقى معها، وهاتفت بكر وأخبرته بالأمر، ولم يكن بكر على طبيعته، صوته به ألم وغضب، سألته سمر عن ما به فأخبرها أن لديه بعض المشاكل بعمله، وأنه سيأتي إليهما فور الانتهاء من العمل.

ساعتان من خروج نعمة وسمر من المركز الأمني إلى أن باغتهما كارم بوصوله.

- كان عليكِ مهاتفتي يا أم مسلمة، قالها كارم فور وصوله عند نعمة.

ثم أكمل حديثه:

- لقد علمت من أحد جيرانكِ حين ذهبت للاطمئنان عليكِ ومسلمة.
- ولم تستطع نعمة أن تنطق أو تبرر شيئًا، إنها مرهقة وسلامتها النفسية بها من الأذى ما يكفل لها ألا تعاتب أو تشرح أو تبرر واتخذت من الصمت موقفًا، حتى بعد أن جاءهم بكر ظلت كما هي لا تنطق بكلمة، وحتى بعد أن تحدث ثلاثتهم إلى بعضهم ليتعرفوا على بعضهم البعض ظلت هي صامتة ممسكة بكلام ربها تقرأ فيه وتدعوه ليقر عينها بنجاة ابنتها مما هي عليه، وجاء الصباح وكان كئيبًا جدًّا على نعمة العاجزة عن أخذ ابنتها بين أحضانها، ولقد رأت نعمة نائل من بعيد فهرولت نحوه وأقسمت عليه أن يجعلها ترى ابنتها، فوعدها أن ينفذ لها رغبتها بعد القليل من الوقت.

ولقد لمح كارم امرأة أربعينية تنزل من سيارة الأمن، ولقد أشار إلى كل من نعمة وسمر عليها فعرفتها نعمة، إنها المعلمة وجيدة، ودب الأمل في قلبها وشعرت أن الحق من الممكن أن ينتصر، وكان بكر قد استأذن من نعمة ليعود لعمله وقد أذن لسمر أن تبقى إلى جوار نعمة حتى يحدث الله أمرًا.



«واصبر لقدر ربك»

- أتدرين ما الأسوأ؟ الأسوأ أن تؤذي وطنكِ باختيارٍ حر منكِ، الأسوأ أن تفسدي نبتة الوطن، والأسوأ من قتلكِ رقية يا وجيدة هو فساد قلبكِ وضميركِ، قال نائل إلى وجيدة التي قبعت للتحقيق بشأن حادثة رقية.

وكانت وجيدة صلبة رغم وزرها، عنيدة رغم جرمها، فأجابته قائلة:

- ليس لك أن تُسلم بأنني قتلت رقية، عليك أن تنتقي مصطلحاتك، أنا لم أقتل أحدًا، المذنبة الوحيدة في ذلك الأمر هي مسلمة.
- ألا تخجلين من إلصاق قبح جرمك بطفلةٍ لا حول لها ولا قوة؟ قالها نائل، ثم عرض عليها اعترافات كل من مصطفى وياسر بالإضافة إلى فادي، غير أنها وصفت حديثهم بالحديث الطفولي الذي لا يمكن لأحدٍ الاعتماد عليه في إثبات جريمةٍ على الآخر.

ما لحق نائل أن يرد عليها، حيث دخل عليه فرد من معاونيه يستأذنه في دخول محامي وجيدة، فأذن له وما استغرب نائل من دخول المحامي الشيوعي المشهور كارل، ونظر إليه ثم إليها نظرة استهجانٍ كأنه يقول لها: ذلك المحامي أكبر دليلٍ على أنكِ مدانة.

جلس كارل بكبرياءٍ أمام وجيدة، وأعلن لنائل بكبرياءٍ رغبته في إخلاء سبيل موكلته، لكن نائل أفحمه بأن وجيدة مذنبة بشهادة من لا يعرفون اللوع، وأنه حينما يطلب طلبًا عليه أن يختار طلبًا منطقيًا باستطاعة الآخر تنفيذه له.



ودار حوارًا قاسيًا بين نائل وكارل، تيقن منه كارل أن نائل لن يترك وجيدة، وأنه ينتوي إظهار الحق بكل ما امتلك من قوة، فاستأذنه كارل وخرج ليتصل بأسياده وسلطاته ليشرح لهم بدقة صعوبة الموقف مع نائل، ولقد أخبروه أن يحاول مع نائل لحين أن يتخذوا موقفًا.

ولقد أتى نائل بمسلمة بعد دخول كارل ثانية وطلب من وجيدة أن تسرد له بالتفصيل ثانية ما حدث، فحكت وجيدة رواية مهلهلة مغايرة في أحداثها التي سردتها سابقًا، وطلب من مسلمة أن تروي ما حدث، فحكت الأحداث بتفاصيلها كما المرة الأولى التي حكت فيها، فواجه نائل وجيدة بتناقض روايتها، وضغط عليها حتى أنها قالت دون أن تدري كيف نَطَقت بمثل تلك الكلمات:

ـ لم أكن أقصد أن أقتلها، كنت أهددها فقط .

وبذلك أخذ نائل اعترافًا من لسان وجيدة بجرمها، ولم يستطع كارل مع اعتراف وجيدة تحريك ساكنًا.

ولقد أمر نائل حجز وجيدة وسرعة عمل اللازم لإخلاء سبيل مسلمة، ولقد ترك معاونه لإجراء ما يلزم، وخرج إلى نعمة ليجبر خاطرها بإخبارها أن ابنتها لن تراها فقط وإنما ستعود إلى الدار معها، ودق قلب نعمة فرحًا وشعرت أن نور عينها الغائب قد عاد، وتهلل وجه كارم إضافة إلى سمر، أخيرًا قد زالت الغمة وسينعمون بالهدوء فور انتهاء الإجراءات.

انهارت وجيدة من أمر نائل، وظلت تصرخ بكارل ليفعل أمرًا وليتصل بأحدهم لإخراجها من ورطتها، وطمأنها كارل أن الأمر لن يظل على شاكلته أو على هوى نائل، وبالفعل قام كارل بمهاتفة السلطات ثانية وأخبرهم بكل ما وقع، فما كان منهم إلا إرسال أحد رجالهم إلى



نائل ليوعده بعلاج والدته على نفقتهم الخاصة، والموافقة على تأشيرة خروجها لبلدٍ أوربي لتلقي العلاج في مقابل نسيان اعتراف وجيدة ومحو ذلك من الدفاتر، فبُهت وجه نائل لعرضٍ كذلك الذي لم يتوقعه، وصمت عن الرد مباشرة وطلب مهلة يومين ليفكر في الأمر، ولقد وافق الرجل على المهلة مقابل ألا تخرج مسلمة من الحجز، فوافق نائل شريطة ألا تخرج وجيدة هي الأخرى من الحجز، كلنا نائل أمام ورطاتنا، نُفكر هل نبيع الفضيلة مقابل مصالحنا أم لا؟ وسعيد هو من أعطاه ربه الثبات على الطهر واختيار الفضيلة.

وهكذا لم تتم لنعمة فرحةٌ، لكنها كانت صابرة على قدر ربها في ابنتها الوحيدة، وقالت حين أخبرها معاون نائل بأن مسلمة ستُحتجز يومين آخرين:

- لن أقول إلا ما يرضي ربي، فالحمد لله، ولكن صبرًا من عندك يا الله على تحمل ذلك الألم.

لم تستطع نعمة مقابلة ابنتها ولو لبضع دقائق، الأوامر كانت مشددة، حتى أنهم أمروها أن تترك المركز الأمني وتعود إلى دارها وأن تأتي فيما بعد اليومين لترى ما الجديد، لكن قلب نعمة لم يطاوعها، وصممت على استمرار جلوسها أمام المركز حتى يخرجوا لها ابنتها التي لا تستطيع إلى الآن توكيل محامي لها، إلا أن كارم وبكر وعداها أن يأتيا لمسلمة بمحامي في الصباح.

كم كان الأمر قاسيًا على نعمة، وكم تمنت للحظةٍ لو أن عمران استطاع أن يفر من الوطن بابنته ليحميها، وكم قاومت اليأس الذي حل بها حين تغير ما كان من المقرر أن يحدث من إخراج ابنتها، وشعر بها



كارم وحاول إخراجها بكل ما امتلك من قوةٍ ليخرجها من سوء دواخلها، وحاولت سمر هي الأخرى، لكن شيئًا لم يتغير.

سمر التي اضطرت أن تعود مع بكر للمبيت في المنزل خاصة بعد أن علمت أن قدرية تفتعل المشاكل بحجة قُبح تصرفاتها، وتتحجج حتى يبتعد ابنها عنها.



«مؤلم أن تعجز عن الفهم»



أسوأ ما قد يمر به المرء هو أن يفقد غصبًا عنه ما هو متعلق قلبه به، وأن يشعر أن ثمة خطرٍ يحاصره، وأنه عاجز عن فعل أي شيءٍ من شأنه إخراجه من ورطةِ الفقدِ القاسية، ودخلت رضوانة في باب الحزن من يوم أن تركت أحلام لبرهان، ورافقها كل الأسى لعجزها حتى عن فهم ما الذي أجبر أحلام على الموافقة لأمرٍ مرير كزواجها من برهان، التفكير والتفاصيل وكل الأحداث التي مرت عليها يوم زواج أحلام لا تفارقها، ورغم ذلك هي عاجزة عن الفهم، ثمة حلقة غائبة عنها، هي تعلم أن مفيد السبب الرئيسي في جعل أحلام توافق على ما كانت ترفضه، لكنها لا تستطيع تحديد وبشكلٍ دقيق الأمر الذي فعله ليكسب معركته في إقناع أحلام به.

انطفت رضوانة كما لم يحدث لها في أشد لحظاتها أذى من قبل، فكرت أن تذهب إلى مفيد وتشتبك معه ليعيد إليها ابنتها، وفكرت أن تذهب إلى قصر برهان لتأخذ ابنتها من سجنه، وفكرت أن ترفع قضية ظلم ضد أب حتى لو وصفوها بالعته والجنون، وبالأخير ظلت في ركن غرفتها لا تُحرك ساكنًا، باهتة بأكثر مما يتخيله المرء، وقاطع وحدة رضوانة ابنها يوسف الذي دق بابها ودخل يبكي، فانتفض قلبها عليه، فيكفيها أحلام وفقدها.

- ماذا بك يا يوسف؟ قل لي ما الذي حدث؟ قالت رضوان.
- مسلمة لم تأتِ إلى المدرسة، والكل يقول أنها تجلس مع المجرمين واللصوص، ولقد قلت الحقيقة لرجل الأمن وما عرفته من مصطفى، ولقد وعدني أنه سيخرجها، فلمَ لم يوفِ بوعده؟ أليس ذلك ظلمًا يا أمي؟ ولقد قلتِ لي من قبل أن



من أسوأ الأشياء عند الله أن يظلم أحدهم الآخر، أليس ذلك حديثكِ لي؟ قال يوسف.

حاولت رضوانة أن تُعلم يوسفًا درسًا، وهو أن الإنسان يتمسك بالحق مهما حاوطه الظلم، وأن يحارب من أجل إعطاء كل ذي حقٍ حقه، حقيقة الأمر لم تكن رضوانة تُعلمه ذلك من أجل ما وقع لمسلمة فقط، إنما على أملٍ أن يكبر ويعلم أن لمسلمة إرثًا عند أبيه ويحاول أن يرد الحق لصاحبته.

في الأخير تمسك يوسف برأيه على أمه، وهو أن يذهب إلى مسلمة، ولقد ذكر رضوانة أنها في غمار حدثها مع أحلام لم تذهب إلى نعمة ولو لمرةٍ واحدة، وقررت في الأخير أن ترتدي ثوبها وتصطحب يوسف وتذهب إليها لتجبر بخاطرها لعل الله يجبر قلبها، لكن أين تذهب؟ هي لا تعرف أنها لم تتابع أحداث مسلمة، ولا تعرف ما انتهوا إليه، وقررت بالنهاية أن تذهب إلى دار نعمة فلم تجدها، وأخبروها أنها عند المركز الأمني لا تتركه آملة أن يخرجوا لها بفلذة قلبها.

ولما وصلت رضوانة إلى نعمة، بكت نعمة كما لم يحدث لها من أول حادث ابنتها، لم تعاتبها ولم تنتظر منها شرحًا لتأخرها في السؤال عليها في كربها، وقدرت نعمة لرضوانة سبعين عذرًا رغم أنها لا تعرف بحدث أحلام، وعاملتها كأختها كما كل المرات السابقة، وأخيرًا تحدثت نعمة الصامتة، تكلمت وهي تنظر إلى رضوانة وتقول: «مسلمة مظلومة، أقسم عنها أنها ما فعلت جرمًا كذلك»، ولم ينتظر يوسف ردًا من والدته على نعمة، وإنما تدخل في الحديث وقال: «نعم وجيدة هي السبب، مسلمة مظلومة، لقد حدثني مصطفى بحقيقة الأمر».



ولما استفسرت نعمة عما يقوله يوسف، حدثها بكل ما عرفه من مصطفى، وهو كلام مطابق في جوهره لما سردته لها مسلمة من قبل، وتساءلت نعمة برعبٍ عن سبب تأخر خروج ابنتها رغم أن الحقيقة ظاهرة لنائل كما الشمس، وهدَّأت رضوانة نعمة وطلبت منها أن تلجأ إلى الله؛ علَّه يغير الأمر بين لحظةٍ وأخرى.



«وفضل من الله لقلبي»



ـ ما الذي يعكر صفوك؟

سألت سمر بكرًا وهما في طريقهما للعودة إلى المنزل، سمر التي لم يرق لها صوت بكر في الهاتف، ولم ترتَح لانطفاء وجهه حين ذهب إليها عند نعمة، ولم تطمئن لصمته ولا حتى لابتسامته الكاذبة، إحساسها لا يكذب عليها أبدًا، حتى لو أنكر بكر ألف مرة أن ليس به شيء، هي لن تصدقه وتُكذِّب ما يقوله قلبها، إنها تؤمن بـ «أيمن العتوم» في كتابه «كلمة الله» حين قال: «اسمع لقلبك ولا تتجاهل نداءاته العميقة، لأنه لا فائدة من ذلك، هو لن يكف عن نداداتك حتى تُصغي إليه، وأنت إن لم تستمع إلى ما يقوله، فلن يفعل ذلك أحد آخر».

وصمت بكر عن الرد، فعاودته سمر السؤال فقال لها:

ـ أنتِ دُرتي وصاحبتي ومؤنستي وفضل الله لقلبي ورزق حياتي وغاليتي التي انتظرتها طويلًا، فكيف لي أن يكون بي ثمة وجعٍ ولو قليل وأنتِ معي.

احمر وجه سمر خجلًا، وصمتت قليلًا، ثم عاودت حديثها مخبرة بكر أنها ستكون سعيدة إن تحدث لها لتسمعه على الأقل، ستكون بقمة سعادتها إن أشعرها أنها المرأة التي يأتي إليها ليرمي عليها أثقاله لتحملها معه بكل ما امتلكته من ودٍ له، فأخذ بكر نفسًا عميقًا، ثم أخبرها أن صاحب العمل أي والد صديقه حسام كان يعامله بكل لطف، وفي الفترة الأخيرة شعر وكأنه لا يكن له أي تقدير، فأصبح يلومه على أي شيءٍ لا يستحق اللوم، وأشعره أنه لا يريده في شركته، ويشعر أنه لولا صديقه حسام ما كان أبقاه صاحب الشركة للحظةٍ واحدة أخرى، وربما كان قد أقاله على وجه السرعة، وأن ما يوجعه أنه لا يفهم ما الذي حدث؟ وما



الذي غير الرجل تجاهه لهذه الدرجة؟ عدم الفهم من الأشياء المريرة التي قد يتعرض لها الإنسان، فربما لو فهم بكر السبب وراء كل ذلك الذي يشعر به ما توجع لتلك الدرجة، أما أن تشعر أنك منبوذ ولشيءٍ تجهله هذا ما لا طاقة لأحدٍ عليه.

وبآذان صاغية سمعت سمر بكرًا، وحاولت تخفيف الأمر عنه، وأخبرته أن الرجل من الممكن أن يكون لديه ضغوطات، أو حتى أنه يتنفس عن ما به في أي شخص يخطأ ولو خطأ صغير، وأن الأمر من الممكن ألا يكون متعلقًا به شخصيًا، ونصحته بالأخير أن يتحمل الرجل، ويعطي له من الأعذار ألفًا، وأن يكمل عمله على أكمل وجه حتى يظهر الله الحق له، ومن بعدها ليقيم الموقف، ثم ليتخذ قررًا لا يندم عليه فيما بعد، ولقد اقتنع بكر بحديث خطيبته، وشعر بتحسن دواخله، وعادت له سلامته النفسية قليلًا، وتوجه الاثنان على الدار لتباغتهما قدرية بما لم يتوقعانه.

لم تكن قدرية بمفردها في الدار، إنما كان معها سهيلة ابنة أختها، ولقد باحت سهيلة لقدرية صراحة أنها تحب بكر منذ الصغر، ولكن تلك السمر أصبحت تمثل الحاجز الأكبر بينها وبينه، ودخل بكر وسمر عليهما فسمعا قدرية وهي تعد سهيلة بأن بكر سيكون لها، وأن سمر فترة بحياته ستنتهي في القريب العاجل، انتفض قلب سمر ألمًا ولم تستطع أن تواجه الأمر، واتجهت سمر نحو غرفتها فور سماعها ذلك الحديث، فاستوقفها بكر الذي فكر جيدًا كيف يطيب خاطر من ستكون في عصمته، وأعلن لوالدته التي لم تكن على درايةٍ أنه وسمر سمعا حديثها لسهيلة أنه سيعقد قرانه على سمر يوم الجمعة القادمة، ولما سمعت سهيلة ذلك التقطت

حقيبتها واتجهت نحو الباب تنتوي الخروج، واستوقفتها قدرية بعد أن صرخت بوجه بكر وهي تقول له:

- أتتزوج ممن باتت ليلة كاملة في الشارع برفقة أحدهم؟! إنها منحلة لا تليق بك.

ولم تستطع سمر أن تصمت وشرفها يهان لهذه الدرجة فردت قائلةً:

- لو تقصدين ليلة البارحة فقد كان بكر معي، ولقد صانني كما يفعل الرجال مع نسائهم.

- وماذا عن كارم الذي كان معكِ وظل معكِ طوال اليوم من بعد ذهاب بكر لعمله؟ وعندما ذهب بكر لماذا لم تأتِ إلى البيت؟ غير أن ذلك محبة في البقاء مع رجل غريب.

قالت قدرية وهنا تيقن بكر كما سمر أن قدرية تراقبهما وتتجسس عليهما لتمسك بأي خطأ على سمر، ومن ثمَّ لتبعد ابنها عنها، وكادت أن ترد سمر ثانية لإفهام قدرية أن كارم رجل يقف إلى جوار نعمة في أزمتها، لكن بكر الذي يؤمن أن الجدل مع أمه لن يجدي أوقف خطيبته عن الحديث، وتوجه نحو والدته وقبَّل يدها وهو يقول بأدبٍ جم:

- عليكِ أن تفرحي لابنكِ، إنه يحب فتاة محترمة ابنة رجلٍ ذي خلقٍ كعمي يونس، سمر ابنة أصل وذات خلق ودين يا أمي.

ولم تستطع قدرية أمام فعل ابنها أن تنطق بكلمة، فتوجه بكر بحديثه نحو سهيلة ابنة خالته وقال:

- يا أختي أنتِ عظيمة، جميلة، ودودة، ويتمنى ألف رجلٍ لو أن يكون بالقرب منكِ وأتمنى أن تلتقي بشبيهكِ ورجلكِ قريبًا لتقري به عينكِ وليجمل الله حياته بكِ.



وكان بود سهيلة أن تُعلن لبكر أنها لا تريد من الرجال غيره، لكنها اكتفت بابتسامةٍ باردة، وخرجت بعد أن سلمت على قدرية التي وعدتها أن تزورهم في صبيحة اليوم التالي، وبذلك اطمأن قلب سمر أن الله رزقها برجلٍ يعرف كيف يصون ويحب امرأته.



«ما يزعجني أكثر شعوري بتلك الوحدة التي تكسر قلبي»



إنني متعب ومرهق، ولقد حاصرني تفكيري واستولى عليَّ حبي لوالدتي، وأنا الذي لم أضع مصلحتي الخاصة يومًا ضد الحق، اليوم يضعني الحب ضد ما أؤمن به، وما يتوجب عليَّ القيام به، وما يزعجني أكثر شعوري بتلك الوحدة التي تكسر قلبي، وحدتي في عدم إيجاد شخص واحد على هذا الكون لأقص عليه ما بداخلي من ضجيج وتفاصيل لا يمكن لصاحب حقٍ أن يتحملها، التفاصيل مميتة والاختيار أوجع من أن يتخيله أحد، فلو اخترت علاج أمي بذلك أعلن صراحة مسئوليتي الكاملة في ظلم طفلة لا شأن لها بقبح ذلك الجرم، ولو اخترت الحق فأكون بذلك اخترت ضياع فرصة علاج أمي، الفرصة التي من المؤكد أنها لن تتكرر ثانية، واستطاع نائل رغم كل ذلك الحديث الذي في نفسه أن يبكي أخيرًا، البكاء الذي كان عصيًا عليه منذ أن علم بمرض والدته، البكاء الذي وهبه الله إليه لعله يريحه ولو قليلًا مما هو عليه، وحاول نائل أن يقاوم كل ذلك الأذى ليلجأ إلى الله بصلاته لعل قلبه يستكين لخيرٍ في هذا الأمر، وانتهى من صلاته وجلس إلى الله يدعوه أن يصلح له الأمر بما لا يضر بأحدهم، ثم صمت لبرهةٍ وقال بصوتٍ مسموع: «كيف لي أن أبكي إلى الله وأن أحتار في اختيار ما لا يرضيه؟»، ودخلت عليه والدته وهو على تلك الشاكلة وجلست إلى جواره وهي تقول له:

- اختر ما يُرضي ربك، اختر ما يجعلك تنام ليلًا دون أن تشعر بذنب.

بكى نائل في أحضان والدته وهو يقول:

- هي فرصة لنذهب لأوربا لعلاجكِ، وصعب عليَّ ألا أفكر في قبول الأمر.



- الأعمار بيد الله يا نائل، وأنا لا أقبل أن أعيش بصحةٍ جيدة وشعوري بالذنب يحاصرني طوال حياتي، الله لقاءه أعظم ألف مرة من أن تختار ما لا يرضيه، علينا فعل المستحيل لنتشرف بلقاء ربنا يا نائل.

واختار نائل بعد كلمات أمه شجاعة الرفض، حتى أنه لم ينتظر انتهاء المهلة ليرد على السلطات الشيوعية، وإنما هاتف الوسيط معلنًا له بكل ما تعلَّمه من حقٍ أنه يرفض رفضًا نهائيًا أن يستمع لشيطانهم وأن يقبل عرضهم.

- إنني لن أهددك بإنهاء حياة والدتكِ، وإنما ردنا سيصلك قبل أن تأخذ وقتك في التفكير.

ماذا يا تُرى ردهم؟

ولم يكن نائل يتوقع ردًا مأساويًا كذلك الذي حدث، لقد قررت السلطة الشيوعية أن يكون المركز الأمني التابع لنائل تحت قيادتها كما المراكز التي أخذوها عنوة من قبل.

دخولهم إلى المركز لم يكن سلميًا، وقبل المواعيد الرسمية لعودة نائل إلى عمله، دخلوا المركز ببنادقهم وهددوا كل العاملين فيه بالموت إن اعترضهم أحدهم من تأدية واجبهم، إنهم يسمون الظلم واجبًا، ولقد اعترضهم أحد معاوني المركز فما كان ردهم سوى رصاصة انتصفت رأسه، ولقد حاول كارم الاقتراب منهم ليفعل ما عليه، لكن نعمة استوقفته خوفًا من أن تُعرف هويته فيقتل.



ولقد كانت قوة المركز أضعف من أن تواجه طغيانًا كذلك الذي تعرضت له، واستسلموا بعد أن استشهد بضعة رجال عاملين، وبضعة ممن دخلوا المركز لينجزوا بعضًا من أعمالهم، وأثناء ذلك هرول أحد المعاونين إلى نائل ليخبره بالأمر المأساوي، فاتجه فورًا إلى المكان ليرى ما الذي يحدث، ولم يكن يتخيل أن بشاعة الأمر وصلت لتلك الدرجة، وقابله محامي وجيدة وأعلن له صراحةً أن المركز الأمني ومن فيه أصبحوا تحت السيادة الشيوعية، وأنهم لن يؤذوا مسجونين فيه، فصرخ فيه وهو يقول لا سيادة لنا إلا سيادة الله والحق، وأنتم لا تعرفون عن الحق شيئًا، فلا سيادة لكم، وحاول نائل إدراك الموقف مستنجدًا بقوات مراكز أخرى، لكن الضعف قد حل بالجميع، أقصد جميع أصحاب الحق سواء مدنين أو عسكريين، ولم تستطع المراكز حتى الموافقة لنائل على الاستعانة بهم لإدراك الموقف، ولقد استشاط نائل غضبًا لكل ذلك الضعف والخراب الذي حل بوطنه، فأمسك بسلاحه ودخل غاشمًا يريد الانتقام بقتل قائدهم، ولقد أصابه بالفعل في كتفه الأيمن، لكن الانتقام كانت رصاصة مضادة في قلب نائل أنهت حياته، ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم جروه وهو يخرج في الروح إلى خارج المركز، ولما رأته نعمة هرولت نحوه فما سمعت منه قبل أن تفيض روحه إلى الله غير كلمة «أمي».

ولقد أعلنوا في مساء ذلك الحدث أن كل من عنده تهمة في المركز سيكون تحت السيادة الشيوعية التي ستحكم بما تراه صلاحًا للفرد، ولقد نصبوا بذلك أنفسهم قضاة على من ليس لهم سيادة عليهم وافترضوا ظلمهم عدلًا، وانهارت نعمة لشعورها الغاشم بأن مسلمة لن تنجو من هؤلاء الظالمين بسهولة.



ولما وصل الخبر لوالدة نائل احتسبت ابنها عند الله شهيدًا، وظلت أيامها تدعو الله أن يغفر لابنها كل هفواته، وأن ينعم بصحبة الصديقين، وأن تلقاه على خير.

وفي صباح اليوم التالي خرجت وجيدة التي أقسمت أن يكون ولائها للشيوعية بأكثر مما كانت عليه، أقسمت بالله كأنها تعرفه ولم تتورع من ذكر اسم الله العادل العظيم على لسانها وهي المرأة التي باعت دينها من أجل زينة الدنيا الفانية، وبعد ثلاثة أيام كان قد أكل فيهم القلق قلب نعمة على ابنتها أعلنت السلطات الشيوعية ودون تحقيق ودون محاكمة أن مسلمة ولجرمها ستخضع للإصلاح مدة خمس سنوات، السجن لطفلة لم تذنب، فما خمسة أعوام في إصلاحيتهم سوى سجن مظلم ظالم، ولم تصرخ ولم تنهار نعمة تلك المرة، بل إنها قالت جملة واحدة: «حسبي الله ونعم الوكيل»،

ولكي لا تظهر السلطات الشيوعية أنها ظالمة فقد قرروا أن تغادر المديرة المدرسة اعتقادًا منهم أن المجتمع سيصفهم بالعدل لرفضهم استمرار عمل مديرة حدث بعصرها واقعة قتل لإحدى الطالبات، المديرة التي عينوها بالإضافة إلى وجيدة في مدارس إصلاحياتهم.

هكذا كُتب لوطن مسلمة أن يعيش مواطنيه فيه كأغراب يقام عليهم قضاء ظالم وسلطات من المفترض ألا تكون لها وجود في الوطن، وطن لم يعد بحق لأصحابه، ولكم أن تعرفوا أنه من أقذر الأشياء التي تمر بالإنسان أن يشعر بغربةٍ في وطنه لأنه لا يستطيع أن يشتري وطنًا آخرًا يتمتع فيه بإنسانيته.



«لم تنَل حبًا»



أن يمنحنا الله شخصًا يصون كرامتنا، وينزل لرغباتنا، ويقدس وجودنا بحياته، ويمنحنا الود والرحمة والسكن، ويصادقنا إن تخلى عنا كل الأصدقاء، ويتحمل مزاجيتنا وانطفائنا وكابوسيتنا، فهذا هو رزق الحب، وما كانت أحلام ترغب سوى برجلٍ تَهبهُ قلبها، ويحترم هو حب امرأة تحبه كل ذلك الحب، وأن لا يجعلها تندم ولو للحظةٍ على إيداعها قلبها بين يديه، لكن أحلام لم تجد بحياتها سوى صدمة لم تحسب لها وقوعًا طوال حياتها، ولقد حاولت أحلام أن تتقي الله في رجلها برهان، لكنه لم يحترم امرأة تحاول أن تُرضي ربها فيه، إنه رجل متسلط متحكم لا ينزل على رغباتها ولو لمرةٍ واحدة، لقد طلبت منه مؤخرًا أن تذهب إلى نعمة لتطمئن عليها بعد أن عرفت ما حدث لمسلمة، لكنه لم يوافق، غير ذلك وصف مسلمة بالفتاة التي تحتاج للإصلاح ولا يصح معها شفقة ولا سؤال، ولقد حاولت معه كثيرًا أن تفهمه أن مسلمة ضمن الكثيرين ممن ظلموا بالوطن، لكن برهان لم يلق بالًا لقول أحلام، كما أنه زيادة على ذلك أشاد بقوة وسلطة الشيوعين، إنه كما قال لها لا يحب السلطات الضعيفة حتى وإن كان ينتمي إليهم، ولمَّا جادلته أحلام محاولة بذلك تغيير رأيه في أمر زيارتها لنعمة؛ أهانها وضربها ضربًا مبرحًا أدى لكسر ذراعها، كتمت أحلام وجعها بداخلها ولم تنطق بكلمةٍ إلى رضوانة التي زارتها بعد ذلك الحدث بثلاثة أيام، وادعت أنها وقعت من فوق درج السلم فحدث لها ما حدث، لم يكن قلب رضوانة مطمئنًا لرواية ابنتها، لكن ما دليلها لرفض حديثها؟ عجزت رضوانة عن تقديم دليلٍ لكذب



ابنتها، وعادت إلى دارها لا تفكر إلا في انطفاء ابنتها، ذلك الانطفاء الذي يجعل الإنسان عاجزًا عن شرح تفاصيل بؤس دواخله، الانطفاء الذي يُفضل معه الإنسان ألا يسرد حقيقة وجعه، وأن يخترع أيةَ رواية من شأنها إسكات السائل عن حال المسئول وما به، الانطفاء الذي يُفضل الإنسان معه العزلة والغرف المغلقة والموسيقى الحزينة وكتابات دوستويفسكي الكابوسية.



«ويغارُ عليها من شدة حبه»

- لقد ازدهر قلبي بلقاءكِ، أنتِ امرأة عظيمة، يكفي انسانيتك، ومن وجهة نظري يكفي للرجل في امرأته أن تكون إنسانة، تلك الصفة التي انقرضت يا عزيزتي كما الديناصورات، قال بكر لسمر صباح يوم الجمعة المقررة لعقد قرانهما.
- حتى وإن لم أنجب؟ قالتها سمر دون أن تعي أن ذلك السؤال أوجع بكر لشعوره أنه لم يكفِها لتثق بكل ذلك الحب الذي يكنه لها.

صمت بكر ثم ابتسم لها وقال:

- إن أحدًا لا يستطيع أن يمنع رزق الله، وإن أحدًا لم يرضَ بما كتبه الله له لن يسعد أبدًا، وإنني أرضى برزقك كله يا سمر، وأريد أن أسعد معكِ بكوني أرضى بقسمة الله.

لم تمنح قدرية سمر فرصة لأن تُكمل حديثها مع بكر لدخولها المباغت عليهما، ولقد أعلنت لهما صراحة أنها تريد على الأقل تأجيل عقد قرانهما، وما استطاعت سمر تلك المرة أن تتحمل كلمة أكثر من قدرية التي ما تركت يومًا إلا وعبرت عن عدم رغبتها في إتمام زيجتها بابنها، ودون أن تفكر خلعت خاتم خطبتها ووضعته على منضدةٍ قد استقرت أمام بكر وقدرية، ونظرت إلى بكر وقالت له:

- أعتذر منك، إنك رجل ودود تصون امرأتك، وتتمنى ألف امرأة أن تكون إلى جوراك، أغادرك ليس تخليًا مني وإنما لنفاد طاقتي وصبري، وأدعو الله أن يرزقك بخيرٍ أفضل مني.

سمر لم تتخلَّ عن بكر، وإنما تخلت عن فقد كرامتها وعزتها، تخلت عن الأذى حتى لو كانت ستفقد حبًا انتظرته طويلًا وحاولت إقامته كثيرًا، لقد اكتشفت مؤخرًا أن الكرامة أساس الحب، وهي لن تستطيع إعطاء حبٍ وكرامتها مهانة وكل يومٍ تتعرض للأذى بسبب حبها.

لقد ابتسمت قدرية فرحًا، ولو أنه من العيب لغالت في مظاهر السعادة، ولما وجدت سمر من بكر صمتًا، ومن قدرية سعادة، دخلت غرفتها تنتوي أخذ ملابسها والتوجه إلى عيادتها؛ فشعورها أنه ليس لها مكان في تلك الدار من بعد أبيها وعمها سيطر عليها، وعندما خرجت وتوجهت إلى الباب سمعت قدرية تقول لبكر حمدًا لله لقد تخلت هي عنك، عليك أن تسعد لقد أبعد الله عنك شرًا.

كادت أن تخرج سمر لولا أن استوقفها بكر قائلًا:

- إلى أين تذهبين؟
- إلى أي مكان، قالت سمر.
- أسألك إلى أي مكانٍ تذهبين؟ قال بكر.
- لم يعد يخصك، بعنادٍ قالت سمر.
- بصفتي وليّك أسألك وأمنعك من الخروج ان كان به أذى لكِ، قال بكر بنفادِ صبرٍ.

ولما عاندته سمر محاولة الخروج بغير رضاه أدخلها عنوة إلى غرفتها، ودخل هو الآخر إلى غرفته ولم ينطق مع قدرية بكلمةٍ.



وبعد انقضاء ستين دقيقة بكت فيهم سمر خيبتها ووحدتها منذ غياب والدها وانهيار كرامتها من بعد عمها، دق باب الدار وإذ به كارم، فتحت له سمر وقبل أن يتحدث كارم عن سبب زيارته خرج بكر ليرى سمر معه؛ فيغلي الدم في عروقه ويهرول جهة الباب ليمسك بسمر من يدها وينظر لها بضيقٍ ويخفيها خلفه، ومن بعد ذلك حاول إدخال كارم الذي رفض الدخول معلنًا لهما أن نعمة التي عادت لمنزلها تاركة ابنتها بين جدران السجون فقدت وعيها وغابت عن الحياة، ولم يستطع هو فعل شيءٍ طالبًا من بكر أن يسمح لسمر أن تذهب معه لرؤية نعمة، ولم تنتظر سمر إذنًا من بكر، لكنها ارتدت ملابسها لتخرج مع كارم، ثم قالت لبكر الخارج معهما: «يمكنك ألا تأتي معي، البيت قريب وسأبيت مع نعمة الليلة»، ولقد استشاط بكر غيظًا ولم يرد عليها، وإنما أكمل معها ومع كارم طريقهما إلى نعمة التي وجدوها ملقية على الأرض، لتباغتهما سمر بعد فحصها أن بها اشتباهًا في شللٍ بأقدامها، وصُعق كارم ومن قبله بكر وعجزوا ثلاثتهم عن التفكير لمدةٍ تزيد عن الثلاثين دقيقة حتى قرروا أن ينقولها إلى المستشفى حتى يستطيعون أن يأخذوا تقريرًا دقيقًا عن حالتها.

لقد كتمت نعمة وجعها في نفسها ولم تبكِ كثيرًا يوم معرفتها بالحكم على مسلمة، لكنها الآن لم تستطع أن تتخيل كل تلك الأحداث التي مرت بها وبابنتها منذ ميلادها، ولقد انهارت نعمة وسقطت على الأرض، ولولا زيارة كارم المعتادة لها ورؤيته لها على تلك الشاكلة فيعلم الله ما الذي كان من الممكن أن يحدث لها أكثر من ذلك؟لقد نقلوها إلى المستشفى، وهناك أرهقوهم في قبول دخولها كأن المريضة



أقل من أن تكون إنسانة، ولما قبلوها أشعروهم أن ذلك عطف ومنةٌ منهم وتفضُل عليهم، ولم يعترفوا أنها مواطنة لها أحقية العلاج.

لقد أكدوا بالمستشفى ما اشتبهت فيه سمر بالفعل، لقد أصيبت نعمة في قدميها، لم تستطع مواجهة الأمر وهي صلبة واقفة عليهما، فالأمر أصعب عليها من أن تتجاوزه دون خسائر فيما وهبه الله لها من نعم.

ولقد قرروا بالمستشفى حجز نعمة، ولقد وافقوا على أن واحدًا فقط يرافقها، ولقد صممت رضوانة أن تقوم هي بذلك الدور، رضوانة التي علمت بالخبر من الجيران، فما كان منها سكونًا، وإنما اتجهت نحو المستشفى تبكي كل تلك الأحداث التي تمر بتلك العائلة، ولقد غادر كارم المستشفى على أن يذهب إليها صباح اليوم التالي، ولقد طلب بكر من سمر أن تعود معه إلى المنزل، لكنها رفضت أن تذهب معه وطلبت منه أن يتركها تذهب للمبيت في العيادة، لم يتقبل بكر أمرًا كالذي تطلبه سمر، وحدثت مشاداة كبيرة بينهما انتهت لصالح بكر، وعادت معه سمر إلى الدار، سمر التي تتلهف أن يعود لها بكر، وأن يشفي صدرها بكلماتٍ من عدم التخلي، وأن يقدم لها ألف عذرٍ؛ فما تحملته من قدرية لا امرأة في سن سمر تتحمله، فشعورها بالخوف من فوات الزواج جعلها أكثر حساسية بالنسبةِ للأمر أكثر، ترغب بأن يوبخها ويخاصمها لكونها تخلت عنه وبادرته بخلع خاتم خطبتهما، أما أن يصمت عن الأمر وأن لا ينطق فيه بكلمة هذا ما لا صبر لها عليه، تود أن يعتبرها طفلة وأخطأت، وعليه كمحبٍ أن يسامحها، وراحت سمر في نومها ودموعها لم تجف، ولسانها ما زال رطبًا من الدعاء لله أن يصلح حال قلبها.



«عند الله لا ظلم ولا سلطة إلا له»



علينا أن نعترف أن من أقذر الأشياء التي تحدث في الوطن هو أن يعيش الأطفال شيئًا أكبر من سنهم، وبؤسًا كذلك الذي يرونه في مسلمة.

لقد أدارت مدرسة مسلمة القديمة مديرة جديدة تُدعى جنات، ولم تتدخل السلطات الشيوعية في اختيارها ليغطوا على حدث وجيدة، وليوهموا الجميع أنهم لا يحكمون إلا بالعدل، بدليل عدم تدخلهم في شئون المدرسة الداخلية أو اختيار مديرة شيوعية تدير مدرسة إسلامية.

وذات يوم دخل عليها يوسف بشجاعةٍ، ولقد أجلسته وعاملته برفق، وسألها إنً كانت تستطيع إخراج مسلمة من الإصلاحية؛ لأنها مظلومة بشهادة صفها بأكمله، وحاولت جنات تهدئة يوسف الحزين على ابنة عمه وشعوره أن ظلمًا حل بها، ظلمًا ليس من المفترض أن يحل بالوطن، وإن حل فلا يحل إنسانيًا بالأطفال، إنها لم تعِده أن تساعده في أمر مسلمة وإنما وعدته ألا يحدث بالمدرسة ما حدث في عصر وجيدة ومديرتها، ووعدته أن تتخذ الإجراء اللازم ضد كل معلم يتخلى عن شرف مهنته في محاولةٍ منه لتضليل فكر الطلاب والمساعدة على انتشار الفكر الشيوعي، ولقد هدأ يوسف قليلًا، واطمأن إلى أن دماءً جديدة لن تعود، ولن تحدث مجددًا في الحرم المدرسي، واطمأنَّ أكثر حينما أفهمته جنات أن الله يرى كل ذلك الظلم الذي حدث لمسلمة، وسيُحدث لها مخرجًا قريبًا.



«بكل حال علينا أن نرضى بأقدارنا»



يوم ولادتنا لا ندرك قصة حياتنا، الأقدار تباغتنا بأحداثنا، وتفرض علينا ما نريد وما لا نرغب، هو قانون ذلك الكون ومن عليه، وينطبق القول على مسلمة التي كان قدرها أن تولد في بلد حرب، وأخيرًا كُتب عليها سجن سلطة ليس لها الحق أن تُخضعها لأوامرها، لكن ذلك هو واقعها.

الإصلاحية كما يسمونها وما لا يليق باسمها والتي دخلتها مسلمة لها قواعد صارمة، من بينها عدم استطاعة أي طفلٍ الاعتراض على أي أمرٍ يُوجَّه إليه، والتعبير عن رغبةٍ أو رأي في أمرٍ معين، ولقد كان بتلك الإصلاحية مدرسة تابعة لنفس السلطات، ولقد عينوا مديرة مدرسة مسلمة القديمة مديرةً لها، ولقد أسندوا إلى وجيدة عمل المساعدة، وكان على مسلمة ومن معها اتباع قواعد المدرسة الأكثر صرامة من الإصلاحية ذاتها وإلا تعرضوا لأبشع ما قد يتخيله الإنسان من وسائل قمع لأطفال في ذلك السن.

وفي بداية دخول مسلمة الإصلاحية كانت وحيدة لا أم ولا صاحبة ولا أنس لها، فكانت صامتة لا تتحدث في يومها إلا ببضع كلماتٍ كانت أغلبها تصديقًا على أنها قامت بالمهام التي طُلبت منها أثناء اليوم، ومن بين المهام تنظيف الغرف، وإدخال الطعام إلى الرؤساء وتنظيف أماكن الطعام وأوانيه وغيرها، ومرت العشرة أيام الأولى على مسلمة هادئة، وفي اليوم الحادي عشر أمروها أن ترتدي ثوبًا لونه أسود، وحذاءً رياضيًا أبيض اللون، ولم يكن ذلك الأمر لها فقط، بل لكل الأطفال الذين دخلوا حديثًا إلى الإصلاحية، وقد ارتدت مسلمة حجابها الذي دخلت به إلى الإصلاحية، ولما رآها المشرف نهرها وأبرحها ضربًا وخلعه لها



بالقوة، ثم قال بأعلى صوتٍ لديه ليسمعه الجميع: قواعد الإصلاحية صارمة، فلتنسوا أمر الحجاب، الصيام، ومظاهر أعيادكم، كل تلك الأشياء تؤذيكم، إنها تصرفات غير صحيحة، وسوف تذهبون من اليوم إلى مدرسة الإصلاحية لتتعلموا فيها الحرية، العلم، التفكير.

ولقد ساروا جميعًا في صفٍ خلف بعضهم البعض، ومن أمامهم القائد الذي علمهم الطريق المحدد الممنوع مخالفته يومًا وهم في طريقهم نحو المدرسة، ولقد أخبرهم أن طريقة السير خلف بعضهم البعض صفًا لن تتغير حتى ولو لم يكن المشرف معهم، ولقد أعلن لهم أن المكان كله مراقب عبر الكاميرات، ومن سيراه مخالفًا للتعليمات سيعاقب كما لم يتخيل له أن يحدث.

ومشت مسلمة بالصف منكسة الرأس لشعورها بأن ظلمًا لا تستطيع محوه قد وقع عليها، ودخلوا المدرسة لتُصدم مسلمة بأن وجيدة ومديرتها هما من ستكونان سادة عليها، لتذرف دمعة ثم تخفيها خوفًا من أن تعاقب، ولقد مشت وجيدة في الصف لتتفحص الأطفال الجدد بنظراتها المهينة، ولما وجدت مسلمة نظرت إليها نظرة انتصار، ولا أدرك شخصيًا كيف للإنسان البالغ أن يتحدى طفلًا ويفرح إذا انتصر عليه.

ولما انتهت وجيدة من فحصها للأطفال أمسكت بمكبر الصوت وقالت: «إن الأمور هنا لن تسير كما بالخارج، عليكم أن تسيروا وفقًا للقواعد، وبناءً عليه يجب عليكم الآتي: أن تتعلموا لغة الماندرين بسرعة وفقًا للقواعد التي ستقولها لكم معلمتكم بالصف، وعليكم ألا تتحدثوا في الأديان طالما أنتم موجودين في الإصلاحية أو المدرسة، وعليكم الإيمان بأن الحرية هي أساس ذلك الكون، وأن أي شخصٍ يعترضها



ليس له مكانة بيننا»، وما استطاعت مسلمة أن تعترض على كلمة ولا أن تخبرها مما علمها شيخها ووالد صديقتها رقية رحمة الله عليها، ولا أن تسكتها عن حديثها الكاذب عن دينها، وعلى الرغم من كل ذلك لم تستطع حبس دمعها فبكت، ولمحتها وجيدة المراقبة لها، فهرولت نحوها تسألها عن سبب بكائها، فصمتت مسلمة عن الرد خوفًا من العقاب، ولم تترك وجيدة مسلمة في حالها وإنما ظلت في الضغط عليها حتى نطقت مسلمة بعفويةٍ عن سبب بكائها؛ وهو أن وجيدة تتحدث بسوء أدبٍ عن الدين.

وأمسكت وجيدة بالكلمة التي ستجعل منها مشنقة لتعاقب بها مسلمة، ولتشفي صدرها منها لقولها لنائل أن وجيدة هي من قتلت رقية، ولقد أمرت وجيدة مساعدتها أن تأخذ الطفلة لتعطيها لرجلٍ ستيني يُسمى وفيق، ولقد أمرت مساعدة وجيدة مسلمة بالسير أمامها، ولما اقتربا من العجوز وفيق ذو الشعر الأبيض دفعتها من ظهرها، فلم تقاوم مسلمة شدة الدفعة وطُرحت أرضًا عند قدميْ العجوز وفيق، ونظرت إليه المساعدة وهي تقول له بصرامةٍ:

- من البداية تلك الملعونة تعترض على التعليمات والقواعد، تعترض بدموعها معتقدة أننا لن نفهم بذلك أنها لا ترغب في تنفيذ أقوالنا، وعليك اتباع التعليمات المشددة معها، نريدها أن تنسى أمر الاعتراض، وأن تفكر ألف مرة قبل أن ترفض تنفيذ أمرٍ خرج من فهم الإدارة.



لم ينطق العجوز وفيق، وإنما هز رأسه إلى المساعدة معبرًا بذلك على أنه سيقوم بتنفيذ أوامرها على الطفلة التي لا حول لها ولا قوة، ولا خطأ لها إلا حبها لربها ودينها ووطنها ولغتها وهويتها، ولما أعطت المساعدة ظهرها إليهما ساعد العجوز وفيق مسلمة لتنهض من على الأرض، ونظر إليها نظرة شفقة، وهنا بدأ فصل جديد بحياة مسلمة.



«لكنني لا أستطيع إلا أن أحبه كثيرًا»



«لكنني لا أستطيع إلا أن أحبه كثيرًا رغم كل ذلك الذي يظهره لي من عدم فهم واهتمام، قلبي ليس ملكي، ولا أستطيع أن أفهم أن كل ذلك المال الذي أملكه لا أستطيع به تحريك قلبه تجاهي»، تلك هي الكلمات التي قالتها سهيلة لقدرية معبرة لها بصراحةٍ عن حبها لبكر، قالت كلماتها قبل أن تُعلن لها قدرية أن بكرًا انفصل عن خطيبته سمر، ولما علمت سهيلة بذلك الأمر تهلل وجهها فرحًا حتى أنها أعلنت لقدرية أنها ستذهب إلى بكر لتعبر له عن ذلك الحب الذي يكسر أضلاعها، فاستوقفتها قدرية عن الفعل حتى تُحدد هي الوقت المناسب لذلك، ونظرت قدرية في ساعتها فوجدت أنها تقترب من الثامنة مساءً، فاستأذنت بحجة أن لديها بعضًا من الأعمال، وخرجت متجهة نحو مقابلة مفيد، لقد قويت علاقتهما ببعضهما بالفترةِ الأخيرة أكثر مما كانت عليه سابقًا، وأول ما وجد مفيد قدرية تقترب منه قال لها: «أبشري»

- هل حدث؟ سألته قدرية.

- اليوم وبنفس التفاصيل التي اتفقنا عليها، قال مفيد.

ولقد جلست قدرية مع مفيد لأكثر من ستين دقيقة، ثم من بعدها عادت إلى منزلها، فلم تجد بكرًا ولكن التقت بسمر، سمر التي ما إن رأتها حتى دخلت غرفتها، إنها لا تستطيع أن تتحدث إلى قدرية، وطاقتها استهلكت لدرجة أنها لن تستطيع سماع أية كلمة، مرهقة هي ومجهدة، وتريد أن تصمت وأن يتركها الآخرون وشأنها لفترةٍ حتى تستطيع استعادة قدرتها على مواجهة ذلك العالم من جديد، لكن هيهات لقدرية أن تتركها وشأنها، ودخلت عليها غرفتها تصفها بسوء الأدب وغيره من الأشياء التي اعتادت سمر سماعها من قدرية في الفترة الأخيرة، ولم



ترد سمر لأنها لا تستطيع أن تنطق بكلمة، ولقد دخل بكر وهي على تلك الحالة فانهار وعلى صوته وهو يقول: «يكفي كل ذلك العبث، لقد تركت عملي اليوم، ولم يكن بإرادتي، وإنما قد أقالوني بعدما شوَّهوا سمعتي، أما يكفيكما ذلك لتكفا عن عراككما ولو ليوم أستريح فيه»، ظلت سمر على صمتها وسألته قدرية عن سبب تركه لَعمله، لكنه لم يجب، وأخبرها أنه لا يستطيع حديثًا، وخرج بكر من غرفة سمر مفضلًا الجلوس بغرفته دون أحدهم؛ يفكر في كل ذلك الذي حدث له مؤخرًا، وظل يسأل نفسه ما الذنب الذي اقترفه ليطرده والد صديقه حسام من الشركة؟ وما الشيء الذي فعله بحق صديقه لكي يُسيء الظن به ويصدق والده في أن بكرًا يأخذ عملاتٍ لصالح شركةٍ أخرى غير شركتهم؟ ومَن ذلك الرجل صاحب الشركة المنافسة الذي ادَّعى في شهادته أمام حسام أن بكرًا أخذ منه عمولة مقابل تسهيله لإجراء عملٍ لشركته بداخل الشركة التي يعمل بها؟ وكادت رأسه أن تنفجر، ولقد انفعل حتى أمسك هاتفه متصلًا بحسام الذي لم يرد عليه، وبالأخير أرسل له رسالة نصية مفادها التالي: «لم أكن أبدًا خائنًا، وإن فرضنا أن صفةً كتلك حلَّت بشخصيتي مؤخرًا فمن المستحيل أن أمارسها على صديقي، أن أخون عملي شيء وارد، لكن أمرًا كذلك لن يحدث وأنا أعمل بشركة والد صديقي، إنني أُقسم لك ما أخذت عمولة ولا تربحت من شركةٍ غيركم، وأقسم لك أنني ما خُنت صداقتي بك في مالك».

ولقد استقبل حسام الرسالة من صديقه بكر، وكاد أن يهاتفه، لكن كيف له أن يفعل ذلك وصاحب الشركة المنافسة والذي يُدعى هيثم قد شهد أنه أعطى بكرًا عمولة؟ ولماذا صاحب شركة يُسيء لسمعته ويُعلن



أنه عرض على موظفٍ عمولة؟! ولقد استاء حسام من التفكير؛ فلم يعد يستطيع أن يُفكر في كل ذلك الذي وقع في أقل من خمس ساعات، استاء من الاختيار بين تصديق قلبه في أن بكرًا من المستحيل أن يفعل ذلك، وبين عقله وأدلته التي تقول أن بكرًا خانه في ماله.



«ليزدهر قلبك عليك أن تجد صديقًا مناسبًا»



أتتذكرون أندرو الذي تأقلم على الأوضاع بمدينتهم الفاضلة سريعًا على عكس شيرا وأخيها ألدو؟ اليوم أستاذه وسيده أنطوان رشحه إلى الانتقال إلى المدرسة العسكرية، وتلك المدرسة لا يدخلها أي طالب إلا بعد ملاحظةٍ شديدة له في مدرسة الدولة، ومن يجدوا لديه الاستعداد النفسي والبدني يختارونه ليلتحق بالمدرسة العسكرية، تلك المدرسة التي بها ما لذ وطاب وكل ما ترغب به من طعام وشراب وتكنولوجيا، حتى أنهم يصرفون لهم بعض المال شهريًا لتحفيزهم على التواجد مدة أكبر دون أن يزوروا أهليهم؛ فالمدرسة العكسرية بها مكان لمبيت طلابها بداخلها، وفي مقابل كل ذلك سماع وتنفيذ الأوامر دون سؤالٍ أو محاولة فهمٍ أو اعتراض.

ولقد فرح أندرو بذلك الترشح، غير أن الشيء الوحيد الذي كان يرهقه أن شيرا لن يراها إلا قليلًا، ذلك لأنها لم تُرشح في الدفعة الأخيرة للمدرسة العسكرية، ولقد طلب أندرو من سيده أنطوان أن يرشح شيرا إضافة إلى صديقه ألدو إلى دخول المدرسة، لكن السيد أنطوان أوضح له أن أصدقاءه ليس عندهما استعدادًا نفسيًا، وما زالا تحت الملاحظة.

ولقد غضبت شيرا فور معرفتها أن أندروا سيتركها، أندرو صديقها الوحيد المفضل الباقي من كل هؤلاء الذين تركتهم حين اختار أبواها الهجرة إلى المدينة الفاضلة، وبكت شيرا لكن أندرو نصحها ألا تبكي، وأن تكون صلبة، وعليها إضافة لذلك سماع قول السيد أنطوان وتنفيذ تعليماته بالحرف الواحد كي يرشحها لدخول المدرسة العسكرية لتكون بالقرب منه، وحتى يتمكنا من إتمام صداقتهما، ولم تكن شيرا مقتنعة بفكرة أن تذهب لتلتحق بمدرسةٍ لا تخرج منها إلا نادرًا، حتى أهلها



لا تستطيع لقائهم إلا على فتراتٍ متباعدة، ولقد قررت شيرا أن تظل بمدرسة الدولة، وأن لا ترهق نفسها بمهمات الدخول للمدرسة العسكرية على أن تتحمل مغيب أندرو عنها ورؤيته كلما سمح الوقت لذلك.

ومر شهران على ذلك وعلى مغادرة أندرو لمدرسة الدولة، وجاء يوم الحادي عشر من ديسمبر، ولقد كان الجو ممطرًا، واستدعى أنطوان شيرا بمكتبه يطلب منها أن تجهز نفسها لأنها ستنتقل إلى المدرسة العسكرية فبُهتت شيرا، أيةُ مدرسة ستذهب إليها وهي لم تفعل مجهودًا يذكر ولا أظهرت رغبة ولا ولاءً كي تلتحق بتلك المدرسة؟لم تكن تدرك شيرا أن الأوامر التي لدى أنطوان هي إرسال كل طالبٍ يشعر أن به ذكاءً تكنولوجيًا ويستطيع التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي بصورةٍ جيدة، وبالنسبةِ لشيرا كانت تقاريرها في ذلك أفضل من كل رفقائها، وما كان بوسع أنطوان إلا ترشيحها مع فتاةٍ أخرى تُسمى جولي، ولم يكن بيد شيرا أو أهلها أن يرفضوا أمرًا كذلك، إن القوانين تمنعهم من ذلك، وعلى الأغلب حتى لو كان من المتاح أن يرفض أهل شيرا لما فعلا؛ فما عرفاه من أنطوان أنهما سيتقاضيان راتبًا شهريًا عن ابنتهما التي ستلتحق بتلك المدرسة، وأنتم تعلمون جيدًا أنهما ما هاجرا إلا لإغراء المال، فكيف كانا سيرفضان رحيل ابنتهما للمدرسة مقابل المال؟المهم أن شيرا غادرت مدرسة الدولة والتحقت بالمدرسة العسكرية، ولقد فرح أندرو بقدوم شيرا بمثل ما فرح حين أخبره سيده أنطوان أنه سيلتحق بالمدرسة العسكرية.

ولقد اجتمع أندرو مع صديقته من جديد، ولقد بدأ فصل جديد بحياتهما.



«وإشارة من الله تعطي قلوبنا الأمل»



ولئنْ سألت عن الأعظم في تاريخ هذا الكون لقلت لك لقاء شخصٍ يرسله الله لك ليسند كل ذلك البؤس الذي تمر به، ويؤنس تلك الوحدةَ التي تلازمك، وينير كل ذلك الظلام الذي حل بقلبك، والأعظم من ذلك أن يرسل الله لك ذلك الشخص وقد حل بك اليأس، فيظهره كمصباحٍ لينير ولو جزءًا من ظلامك.

يومٍ أن دخلت مسلمة الإصلاحية شابت كأنها في الستين من عمرها، ويأست من أن تعيش حياةً طبيعية، وحلت بها كآبة العالم حين دفعتها مساعدة وجيدة بلا إنسانية لتقع تحت قدمي العجوز وفيق، ولقد سنَّدها وأدخلها إلى غرفةٍ مظلمة خالية من الفرش، صغيرة لا منفذ فيها للهواء ولا لنفاذ خيطٍ رفيع من الشمس، لا تُدرك مسلمة حقيقة ما فعلته تحديدًا، هي مسلمة ودينها كما اسمها، ووجيدة من المفترض أنها تدين بنفس الدين، فما الذي يجعلها تغضب حين تدافع مسلمة عن إسلامها؟ وأثناء جلوس مسلمة في ذلك المكان المرعب كانت تتمنى ولو أن شخصًا واحدًا يجيبها على تساؤلاتها، أو على أقل تقدير شخص يفكر معها في كل ذلك الذي يدور برأسها، وظلت مسلمة على تلك الحالة لمدة تسع ساعات حتى فتح العجوز وفيق باب الغرفة، ففزعت مسلمة ولم يُبدِ وفيق أي رد فعل، وقدم لها الطعام وكان عبارة عن خبزٍ لا يكفي عصفورًا، وقطعة من الجبن لا تُرى من صغرها، وللحق كانت مسلمة جائعة وتلهفت الطعام، ولما انتهت منه اقتربت شيئًا فشيئًا من العجوز وفيق رغم خوفها منه، وسألته بعفويةٍ: هل لي أن أسألك عن شيء؟ وأومأ وفيق برأسهِ موافقًا.

- ما الذنب الذي اقترفته لأكون هنا؟ لم أفعل شيئًا به ذنب، إنني فقط اعترضت على إهانة ديني، الدين الذي علمتني أمي ووالد صديقتي رقية أنه أعظم من أن يهان، إنني لم أؤذِ أحدًا، ولم أسرق، ولم أكذب، فلماذا أهان لهذه الدرجة؟

قالت مسلمة، فباغتها العجوز سائلًا إياها:

- ألم تقتلي يا مسلمة؟
- أقسم لك أنه ما حدث مني ذلك، والمتسببة في موت صديقتي هي المعلمة وجيدة.

صمت وفيق عن الرد، ونظر إلى مسلمة، وخرج دون كلمة، فصرخت مسلمة كي يسمعها:

- ألن تجيبني؟

ثم بكت وقالت:

- لا تتركني في ذلك المكان على الأقل لأكثر من ذلك.

لقد باتت مسلمة ليلتها على الأرض في ظلام يرتعب منه الكبير، فما بالكم بمن هم في سنها؟ ولقد جاء الصباح ودخل عليها من جديد وفيق، فابتسمت له الفتاة بعفويةٍ، لكنه كان صارمًا معها، فلم يبادلها الابتسام، فخافت ورجعت إلى الخلف قليلًا، ولكن العجوز اقترب منها محاولًا تطبيق القوانين على مسلمة، فهو عليه وفقًا للتعليمات أن يضرب ويُرهب من يدخلون تلك الغرفة، ويقص لهم شعر رأسهم، بالإضافة إلى حلق حاجبيهم، ويصيبهم بالألم في أظافرهم حتى يرتدعون عن المعارضة وقول كلمة لا، وما إن اقترب وفيق من مسلمة حتى باغتته بسؤالها الذي لم يتوقعه: «هل ترضى لأولادك أن يبيتون في تلك الغرفة؟



إنني أخاف أن أجلس هنا أكثر من ذلك»، تراجع العجوز وفيق عما كان ينتوي أن يفعله مع مسلمة من عقاب، وعاد بذاكرته إلى الخلف، إنه لم يأتِ إلى هذا المكان لأجل سلطة المال وإنما من أجل أولاده وزوجته، إنه وقبل الآن بعشرين عاما كان رجلًا ثوريًا لا يرضيه ما يحدث بوطنه من اغتصابٍ للحقوق، ومهانة للكرامة، وإباحة لحرمات البيوت، ولقد كان يدافع عن حقه وحق الآخرين بوطنه بكل ما امتلك من حبٍ له، حتى جاء يوم لم يكن يعمل له حساب، فقد كان الشيوعيون في ذلك اليوم يُخرجون جارة وفيق العجوز غصبًا، ولم يمتلك وفيق صبرًا على رؤيته لذلك الأذى الذي يحل بجارته؛ فاتجه نحو قائد العملية يحاول معه ألا يفعل مع امرأة عجوز ما يفعله، فلا دين ولا إنسانية ترضى بذلك، فنهره القائد ودفعه فسقط وفيق أرضًا، ومن بعدها استعاد قوته وقام، وما شعر بنفسه إلا وهو يصفع القائد بضربةٍ أسمعت كل الواقفين، وكان ذلك القائد ذكيًا، فقد أمر مساعديه بإمساك وفيق ولا يمسوه بأذى، ومن الجهةِ الأخرى أمر بالإتيان بامرأته وأولاده وأخذهم إلى المعسكر، عجز وفيق عن إيقاف ذلك الأذى، وظل على عجزه ثلاثة أيام، حتى أرسل له القائد مفاوضةُ أن يترك له زوجته وأولاده ولا يؤذي حياتهم مقابل عدم عصيان أوامره، وما كان لوفيق إلا أن يوافق على ما طلبوه منه كي يُنقذ حياة أسرته، وتركوا له أسرته وسلَّم لهم نفسه، فكان المقابل الذي طلبوه أن يعمل بالإصلاحية ليُعذَّب كل يوم بممارسة عقاب على كل طفلٍ يتجاوز ويعارض الأوامر، ومن يومها ًإلى أن دخت مسلمة الإصلاحية يمارس وفيق ما يؤمر به بصمت، وما من طفلٍ باغته بسؤالهِ عن أطفاله سوى تلك الطفلة، وما من أحدٍ حرك ذاكرته سوى مسلمة، وذرف لأول مرةٍ العجوز وفيق دمعةً، وعلى الأرجح قد حبسها منذ عشرين عامًا، ولقد



مر بذاكرة وفيق كيف أن الحال قد تغير خلال العشرين عامًا، ففي البداية لم يكن الشيوعيون يعرفون أنهم أمام مقاومةٍ أكبر من مقاومة البنادق، لم يكونوا يدركون أنهم أمام نضالٍ يحكمه ويدعمه الإيمان، ومن بعد ذلك بدأوا في إدراك أنهم لنجاح عملياتهم بوطن غيرهم، واستقرار مدينتهم الفاضلة، عليهم زعزعة الإيمان ومحو الدين من القلوب، وطمس الهوية من العقول، حتى وصلت بهم الجرأة لتجنيد مسلمين للعمل على ذلك معهم من بينهم وجيدة ومديرتها، ربما حين جندوا وفيق نفسه لم يكونوا يفعلون ذلك إلا من أجل إذلاله لما فعله بحق القائد، أما حينما جندوا وجيدة فالأمر كان مختلفًا؛ فقد كانوا يفعلوا ذلك وهم يدركون هدفهم جيدًا وهو محو كل ما له علاقة بالإيمان؛ ليندمج الجميع داخل الهوية الشيوعية، ويبقى الوطن على شاكلتهم وقيادتهم ولهم.

ولم يستطع وفيق بعد أن تآمرت عليه ذاكرته أن يؤذي مسلمة في بدنها، ولقد قال لها: «أنتِ ذكية وستفهمين ما أقوله لكِ بسرعة»، فابتسمت له مسلمة وقد ذهب الخوف تدريجيًا من قلبها نحو وفيق، ولقد أفهمها وفيق أن عليه قص شعر رأسها وحلق شعر حاجبيها، كما أن عليه أن يعاقبها بالضرب المبرح لعدم سماعها للتعليمات؛ فارتعبت مسلمة فاقترب منها العجوز وقد أفهمها بهدوءٍ أنه لن يؤذيها في جسدها بالضرب، ولكن عليه أن يقص شعرها، وعليها بعد أن تخرج من الغرفة أن تُخبر كل من يسألها عن مدى القسوة والضرب والإهانة التي لاقتها على يد العجوز وفيق، ولقد كانت مسلمة سريعة الفهم؛ فاستجابت لما قاله وفيق بسرعة، حتى أنها أمسكت بالمقص وقصت الجزء الذي طالته من شعرها، وأكمل وفيق ما تبقى منه، ولقد أزال شعر حاجبيها، وكان



سلوان مسلمة فيما حدث لها أن وفيق كان رحيمًا بها، فلم يضربها، بل وضع لها بعضًا من المساحيق على أجزاءٍ متفرقة من جسدها توحي بأنه ضربها بلا رحمة، وكان سلوانها الأكبر أنها أخيرًا وبذلك السجن وجدت شخصًا يُصدقها ويفهمها ويعرف حسن نيتها ويساندها على وحشة ما تلقاه في الإصلاحية.

وقضت مسلمة في الغرفة المظلمة من بعد ذلك الحدث ليلتين، وكان وفيق يدخل إليها كل مرة بحجة العقاب فيتحدث إليها، وكثيرًا ما كانت مسلمة تسأله خلال جلوسهما معًا عن ذلك الظلم وهؤلاء الذين يعارضون الدين، وعن شعورها بدونية من يؤمنون بالإسلام، ولما رأى وفيق من مسلمة حماسة الفهم وعدها أن يعلمها ويفهمها كل شيءٍ على أن يكون كل حديثهما سرًا، ووعدته مسلمة أن يكون كذلك.

ولقد أفهمها وفيق خلال اليومين معنى أن يكون وطنك محتلًا، وأن يكون ذلك المحتل بلا رحمة، فيحاول محو هويتك الدينية واللغوية وكل ما ينتمي لأصلك، والأبشع من ذلك أنهم لا يحاولون فعل ذلك مع البالغين فقط، بل إنهم يحاولون إفساد النشئ بتربيتهم على معتقداتهم، وفهمت مسلمة كل ما شرحه وفيق، ولقد أدركت ما يؤكده عليها وفيق في كل مرةٍ يتحدثان فيها معًا ألا تنطق بحرفٍ مما يعلمه لها، وقد فهمت أن ذلك الكتمان إن لم يحدث فسيكون له أكبر الضرر على وفيق، ولقد وعدت نفسها بعد أن فهمت قبل وفيق ألا تتحدث مع أحدٍ في الأمر، ولقد وعدها وفيق أن يعلمها أكثر عن دينها ووطنها والإيمان الصحيح والنضال والمقاومة والمعافرة للوصول إلى الحق.



ولقد انقضى اليومان اللذان في ظاهرهما عقاب، وكانا في باطنهما بداية دروس قيمة، وأساسًا لمعتقداتٍ صحيحة ستكون أساسًا لحياة مسلمة فيما بعد.

وخرجت مسلمة من الغرفةِ فور استدعاء وجيدة لها، والتي وبختها ثانية وهددتها بعقابٍ أشد إن وجدت منها أيةَ معارضة أو عدم تنفيذٍ للأوامر، ولقد أوهمتها مسلمة أنها ارتعبت من الذي تعرضت له، وكانت مسلمة في حقيقة الأمر مقررة الصمت حتى تتعلم ما يكفيها من عجوزها وفيق؛ ليؤهلها إلى التصرف الصحيح، وحتى تكون معتقداتٍ وأسس تستطيع من خلالها اتخاذ مواقف عظيمة، وتُحسب لها تجاه دينها ووطنها، وذلك القرار ما نتج إلا من خلال تعليمات عجوزها وفيق الذي قرر أن يكون لها سندًا في الإصلاحية، وأن يعلمها كل ذلك الذي يؤمن به، والذى ظل كاتمًا له في قلبه مدة عشرين عامًا ولم تسنح له الفرصة أن يُربي أولاده عليه، ويعشم وفيق أن يغفر الله له خطيئة جبنه وفعله ما لا يرضي ربه.



«فما أعظم من أن يجبر المرء كسر قلب أحدهم»



في مساء اليوم خرجت نعمة من المستشفى على كرسيٍّ متحرك، وكانت راضية بشأن فقدها لتحريك قدميها وما حدث قديمًا لنور إحدى عينيها، لكن ما كان يؤلمها هو عدم معرفتها ولو القليل عن ابنتها مسلمة ليطمئن قلبها ولو قليلًا، وكانت صامتة تمامًا منذ خروجها برفقة كارم ورضوانة وسمر، صمتت نعمة لمدةٍ تزيد عن الثلاث ساعات، ومهما حاولوا معها للحديث لم تكن تستطيع تنفيذ ما يرغبون به، وجال بخاطرها أثناء ذلك كلمة نائل الأخيرة لها «أمي»، وقد تذكرت فضل جبر الخواطر في دينها، متذكرة أنها عبادة كما الصلاة والصيام وبر الوالدين وصلة الأرحام وغيرها، وجبر الخواطر خُلق إسلامي عظيم يدل على سمو نفسٍ وعظمة قلبٍ وسلامة صدرٍ ورجاحة عقل، فما أعظم من أن يَجبر المسلم فيه نفوسًا كُسرت، وقلوبًا فُطرت، وأجسامًا أُرهقت، وأرواحًا أصابها الوهن، وتذكرت أن كلمة جبر هي مأخوذة من أسماء الله الحسنى، وهو الجبار، وإذا كان الله عز وجل يَجبر النفوس، وما أعظم قوله في ذلك: «ولسوف يعطيك ربك فترضى»، فهذه الآية رسالة إلى كل مهموم ومغموم، وتسلية لصاحب الحاجة، وفرج لكل من وقع عليه بلاء وفتنةٍ، إن الله يجبر كل قلبٍ لجأ إليه بصدق.

ولقد قررت نعمة أن تذهب لوالدة نائل لتجبر كسرها في ابنها لعل الله يجبر قلبها ويُرسل لها إشارة واحدة تُطمئنها على ابنتها، ولقد تحدثت نعمة أخيرًا إلى من يرافقونها، وأعلنت لهم أنها ترغب في الذهاب إلى والدة نائل، ورغم أن سمر نصحتها بالراحة لفترةٍ كي تستعيد صحتها إلا أنها صممت على رغبتها، فنفذوا لها ما طلبته، وتوجهوا ناحية منزل نائل ليطرقونه؛ فتخرج لهم امرأة واضح عليها المرض، المرض جعلها



تبدو أعجز من سنها والحزن كسرها، ولقد عرَّفوها بأنفسهم فتذكرت بهم ابنها نائل وانهارت في البكاء، ولقد حاولوا تهدئتها بكلماتٍ عن فضل الشهادة ومنزلة الشهداء عند الله عز وجل وتحدثوا كثيرًا معها، وعرفت والدة نائل الذي حدث لمسلمة فدعت الله أن ينقذها من كل ذلك الظلم الذي تمر به، ولقد عرضت نعمة على والدة نائل أن تذهب للعيش معها بدارها لتؤنس بها، ولقد عارضت والدة نائل الاقتراح حتى ضغطت عليها نعمة بحديثها عن فضل موافقتها عليه، فبه ستجعل الأيام تمر عليها سريعًا في انتظار خروج مسلمة، وغادرت والدة نائل دارها وكان الأمر في جوهره جبرًا لنعمة، كما أنها تكره الوحدة التي تجعل ذاكرتها حديدية متآمرة عليها، ومن بعد وصول والدة نائل إلى دار نعمة احتارت الأخيرة في المال الذي ستصرف منه، هي لن تستطيع أن تمد يدها لأم نائل، وكرامتها لا تسمح بأن تظن السيدة بها السوء بظنها أن نعمة أتت بها لتأخذ معاشها وتبقى في مأمنٍ من العوز، ولقد صرف الله عنها ذلك التفكير سريعًا حين قالت سمر أنها ترغب في تأجير الغرفة الثالثة من دار نعمة كعيادةٍ لها؛ لأن المستأجر القديم لا يرغب في تجديد العقد لها، ولقد وافقت نعمة على رزق الله لها، وتعويضه لها، وجبره من حيث لا تحتسب، وهي التي أرهقها أمر التفكير في المال بعدما فقدت عملها عند سمر بسبب مرضها، حقيقة الأمر أن سمر لم تنطق بكلمةٍ في ذلك الأمر، وإنما نعمة هي التي طلبت منها أن تبحث عن مساعدةٍ أخرى، ورفضت أن تمد لها يدها حين اقترحت سمر أن تعتبر راتبها معاشًا لها، وحل الأمر بتدابير الله عز وجل، وبعد وصول والدة نائل واستقرارها في بيت نعمة دق باب نعمة، وإذ به بكر يسأل عن سمر التي ما عادت إلى المنزل حتى منتصف الليل، وقبل أن يدخل عند نعمة لمح من بعيد



كارم؛ فتوقع أنه كان هو الآخر عند نعمة، وقد غلى الدم في عروقه حين شعر أن كل ذلك الوقت قد جمع سمر بكارم، وخاصة أن سمر لا تجيب على الهاتف منذ الصباح، دخل بكر إلى دار نعمة، وبعد أن ألقى السلام طلب من سمر أن تُجهز نفسها كي يعودا إلى منزلهما، فطلبت منه أن يدعها في بيت نعمة تلك الليلة لترعاها؛ حيث أنه اليوم الأول لخروجها من المستشفى وأرهقت بذهابها إلى والدة نائل، فوافق بكر بعدما أُحرج من نعمة وهي تقول له دعها الليلة واستأذنهم للخروج، وما إن غادرهم حتى هاتف سمر ليعبر لها عن غيظه مما يحدث، وسألها عن جلوسها مع كارم؛ فأخبرته أنه خرج قبل ساعتين من مجيئه.

- لكنني لمحته بالطريق قبل أن أطرق باب نعمة بدقيقتين، قال بكر.
- أنا لا أكذب، وقلت لك الحق، قالت سمر.
- على العموم تلك آخر مرة تبيتين فيها بخارج المنزل، قال بكر.
- لا شأن لك بي، بعنادٍ قالت سمر.
- امتنعي عن العناد لأنه إن لم تتوقفي لن تتحملي رد فعلي، قال بكر بنفادِ صبر.
- سأفكر في الأمر، قالت سمر محاولة استفزاز بكر لأكثر مما هو عليه.
- أخبرتُكِ أن تتوقفي عن العناد، ألم تسمعي؟ قال بكر.

صمتت سمر عن الرد، فأخبرها أنه سيأتي لها في مساء اليوم الجديد لتعود إلى الدار معه وأغلق معها الهاتف؛ فابتسمت هي لربما لأنها شعرت أن بكرًا حين سألها عن كارم كان يغير عليها، والغيرة من



وجهة نظرها ما هي إلا فعل حبٍ شديد، ثم تذكرت أنها لم تسأل بكرًا عن أمر عمله، وأرسلت له رسالة تسأله عن أخباره في عمله، وحين وصلته الرسالة ابتسم وقال في نفسه: «أحبها على الرغم من عنادها وعصبيتها وطفوليتها وعفويتها، وأراها صلبة في المواقف التي تتطلب ذلك، إنها على الرغم من مزاجيتها أفضل امرأةٍ أستطيع أن أسند لها اسمي، يكفيني منها أنها ابنة أصل».

تنهد بكر، وأمسك بهاتفه، وأرسل لها يطمئنها، وأنه سيحكي لها كل ما حدث حين يلقاها.

لم يكن شيءٌ في أمر عمل بكرٍ قد جد، لكن من وجهة نظره كان واجبًا عليه أن يطمئن سمر، وأن لا يُحملها فوق طاقتها.



«انطفأت كما لم تتوقع يومًا أن يحدث لها»



«كنتُ دائمًا ما أسمع عن كلمةِ اكتئاب، لكنني ما توقعتُ أن أعيش يومًا كل ذلك البؤس، لم أكن يومًا أتخيل أنني سأنطفىء، وسأكون ضمن قافلة الوحيدين الذين لا يستطيعون التحدث لأقرب الناس إليهم، ضمن الشعب الكابوسي الذي يُفضل الغرف المظلمة، هؤلاء الذين أبدًا ما تخيلوا أنهم سيعيشون تفاصيلًا لا تليق بهم، اليوم لم أغدُ أتحدث إلا نادرًا، واختفى الضحك من دنيتي، وما عاد للأمل والحلم وجود، أصبحتُ أعيش حياةً غير حياتي في لمح البصر، أنا أحلام التي ما عاد لها من اسمها نصيب، عيشتي مع برهان مستحيلة، يعتبرني قطعة أثرية اشتراها ليزين بها قصره، وباتت الأيام عندي متشابهة حتى ظهر باهر الابن الأكبر لأخ برهان، والذي انفصل عن زوجته لرغبتها هي لعدم استمرار علاقتهما لأكثر من ذلك، وقد ترك لها ولأولاده الصغار الدار؛ فهو يدرك تمامًا أن زوجته السابقة لا تمتلك دارًا بعد أن هدَّ دارها وضمها لمدينة الشيوعيين، ولقد انتوى باهر أن يجلس عند عمه برهان في قصره الكبير والذي كان لوالد باهر نصيب فيه، ولم يعارض برهان باهر؛ وإنما أقر بحقه في ماله، وصمتُّ أنا عن التعليق، ولم يشغلني الأمر، ولم تعد الأشياء وحدوثها لها وزن معي، وكل الأحداث أصبحت متشابهة حتى بعد أن عادت بسنت ابنة برهان من زوجته الأولى رحمة الله عليها من الفندق التي كانت تجلس فيه بأوامر من والدها حتى يستمتع بأحلام، وما إن زهدها هاتف ابنته لتعود إلى القصر، وعادت لتزيد من همي بإشعارها لي أنني خطفت والدها برهان وسرقته، وعلى الرغم من أن كل ذلك مر عليَّ مرور الكرام إلا أنني تلك الليلة صُدمت حين عرفت بالطريقة المعتادة للنساء أن يعرفن بها أنني أحمل برحمي طفلًا من برهان، الأمر الذي لم أتوقعه يومًا، ولم أرغبه على الإطلاق في



أيةِ ليلة، ولم أستطع أن أخبر برهان؛ فأنا لست مثالية أستطيع أن أحسن تصرفاتي بكل مرة، والحقيقة أنا شخصيًا لا أعرف لماذا لم أخبره؟ ولماذا إلى الآن لم أحاول سرد حقيقتي أمامه؟ وأقسم أنني إلى الآن لا أستطيع أن أُفكر وعاجزة تمامًا عن كل شيء».

تلك هي الكلمات التي كتبتها أحلام في أُولى صفحات مذكراتها، فالورقة والقلم والغرفة المظلمة والموسيقى الحزينة أصبحوا هم ملاذها من كل ذلك العالم.



«وبَشِرنا يا الله بالأمنيات التي تَسُر»



كان يرغب بكر حين أكمل مهاتفته مع سمر أن يعود إلى المنزل لينام لربما يستطيع أن يُريح عقله من التفكير المميت، وكان يتمنى أن يبشره الله بالأمنيات التي تسر بأن تظهر براءته أمام صديقه، ويجد عملًا جديدًا ويتزوج من سمر، لكن هيهات له أن يفعل ما يرغب، لقد دخل داره فوجد قدرية تبكي، فتلهفها ليعرف ما بها، فأخبرته أنها استدانت من أختها والدة سهيلة مبلغًا ماليًا وتريد أن ترده لها، وعجز بكر عن الرد؛ فهو لا يملك المال، ولا حتى عمل يستطيع من خلاله تدبير المال لوالدته، وخاصة بعدما علم أنه ليس بالمبلغ اليسير الذي يستطيع أن يستدينه من أحد أصدقائه، ولما سألها عما فعلته بالمال أعلنت له أنها قد وضعته مقدمة لقطعة أرضٍ منذ أربع سنوات، وقد استولى عليها الشيوعيون؛ فاستعوض صاحبها ما تبقى له من أقساط واستعوضت هي ما دفعته في المقدمة، ولقد أخبرته أن أختها تطالبها بذلك المال الآن.

- لتخبرينها أن تنتظر لبعض الوقت حتى أجد عملًا جديدًا وأسدد لها مالها، قال بكر.
- بمناسبة العمل، سهيلة اقترحت عليَّ أن أخبرك أنها على استعدادٍ أن تعطيك جزءًا من مالها لتفتح شركة صغيرة مناصفة بينك وبينها هي بالمال وأنت بمجهودك، قالت قدرية.
- موافق على أن تحضر سهيلة عقد قراني على سمر قبل بدء العمل بالمشروع.

أجاب بكر بذكاءٍ على قدرية التي استشاطت غيظًا، وأخبرته بسذاجةٍ أن ذلك مقابل أن يعقد قرانه على سهيلة وليس سمر، فأخبرها بكر أنه ليس من الذكاء أن تضع خطة حمقاء خائبة كتلك التي سردتها

من أول استدانتها للمال وحتى صفقة الشركة مقابل زواجه من سهيلة، وأعلن لها بوضوحٍ أنه لن يتخلى عن سمر؛ فاستفزته بقولها:

ـ حتى بعد أن تخلت هي عنك؟

ـ إنها تخلت عن إهانة كرامتها، وأنا أثق أنها ذات أصلٍ وخلق ولا تتخلى عن من عاهدته بحبها بتلك السهولة، وأنا رجل يا أمي لا أتخلى عن حبي مقابل المال، عليكِ أن تتفهمي ذلك، قال بكر.

وباغتته قدرية بعد أن قال تلك الكلمات أنها ستخرج لتبحث عن عملٍ حتى تستطيع سداد أختها بدلًا من أن تضع كرامتها تحت قدميها لمجرد أن ابنها الوحيد لا يصدقه، وهنا احتار بكر بين صدق أمه وكذبها، لكنه لم يحتَر في رفض خروج أمه لتهين نفسها في البحث عن عمل، وأقسم عليها إن فعلت فسيترك لها الدار.

ومر يومان تخللهما الصمت في دار قدرية، وفجأة وفي مساء اليوم الثاني باغت بكر قدرية وسمر بأن أتى بعاقد القران إلى الدار، ودخل إلى سمر يستأذنها في الخروج ليعقدوا قرانها؛ فاحمر وجهها خجلًا، ولهذا قالت له:

ـ لست جاهزة، كان عليك أن تبلغني قبلها.

فابتسم بكر لخجلها وصمت، فأكملت هي حديثها متسائلة:

ـ هل ما زلت تعتبرني خطيبتك؟

ـ هل عليَّ اتباع جنونكِ يا عزيزتي؟ قال بكر وهو يضحك؛ فاحمر وجه سمر ثانية وقالت:

ـ لست بمجنونة.



- مجنونة لكنني أحب ذلك الجنون الذي يخالطه الخجل والحب والغيرة والطيبة، إنكِ أحب الناس إلى قلبي يا سمر حتى وإن كان بكِ من الجنون ألفًا والغيرة ألفًا ومن العصبية ألفين.

صمتت سمر أمام شعورها بحب بكر العظيم لها، واستأذنته في الخروج حتى تُجهز نفسها وتخرج له، وبعد عشر دقائق خرجت سمر لتجد قدرية جالسة في صمتٍ تعلو على قسماتها علامات الضيق، فتجاهلتها سمر حتى لا تعكر صفوها في يوم كذلك.

قدرية التي ما استطاعت أن تقف أمام بكر الذي أعلن لها أنه سيعمل في الصخر حتى يأتي لها بمال أختها لسداده، وأن عليها ألا تقف أمام عقد قرانه من سمر، وما كان بيد قدرية إلا أن تُجاري الموقف، وأن تقنع نفسها أن الأمر لا يزيد عن عقد قران، والفرح لن يتم إلا بعد أن يُسدد بكر مال أختها كما اتفقا، وعلى كل حال بكر قد أسرع في عقد قرانه من سمر كي يوصل رسالة لقدرية مفادها أنه لن يتخلى عن ابنة عمه مهما كانت الظروف، ولكي تتوقف عن أيةِ خطة ضد ابنها من شأنها إفساد العلاقة بينه وبين سمر، وكي تُوضح له الأمور بشأن ما أعلنته له قدرية من أمر استدانتها للمال، فإن كان صحيحًا ظلت متمسكة برأيها، وإن كان القول من أجل إفساد العلاقة بينه وبين سمر فستتوقف لأن الأمر قد حُسم، ولربما كانت ليلة عقد بكر قرانه على سمر من أعظم لياليه لو أنه لا يفكر في أمر إيجاد عملٍ وإظهار براءته وسداد دين أمه.



«أن يساندك الله في كل ما تمر به خير من الدنيا وما فيها»



في الإصلاحية لم يكن الأمر مقتصرًا على خدمة المعاقَبين لأنفسهم، وتنظيف إصلاحياتهم، وتعلم ما يتلقونه من معتقداتٍ وأفكارٍ مسمومة؛ بل إن الأمر تعدى ذلك وأصبح إضافةً إلى كل ما سبق عليهم خدمة المدرسة العسكرية ومن بها من طلاب، وأصبح الذل ذلين بخدمة من ليس لهم الحق في المواطنة، وكانت المدرسة العسكرية مجاورة للإصلاحية، بل إنهما مشتركتان بسورٍ واحد من الجهةِ اليسرى، وكان يوم الجمعة هو اليوم المخصص لتنظيف المدرسة، فكان المعاقبون في الإصلاحية يذهبون مع العجوز وفيق وبعض المشرفين إلى المدرسة العسكرية من الثامنة صباحًا مغادرين لها في الثامنة ليلًا، تاركين كل شيءٍ من خلفهم على أفضل ما يكون من أرضياتٍ، وغرف المبيت، وأماكن قضاء الحاجة، والملابس، إضافة إلى صناعتهم للطعام لطلاب المدرسة دون أن يتذوقوا منه ولو لقمة واحدة، ولقد مر على مسلمة بالإصلاحية ما يقرب من الأربعة أسابيع، تعرفت خلالهما على فتاةٍ تكبرها بعامين وتُدعى ياسمين وكانت ياسمين شديدة الجمال لا يراها أحد إلا ويُلفَت لجمالها، ولقد أحبتها مسلمة لأنها استشعرت فيها الطيبة وحسن المعاملة، ولقد أخبرت ياسمين مسلمة أنها دخلت الإصلاحية لكونها كانت تعمل في خدمة سيدة شيوعية متجبرة لتوفير المال من أجل عائلتها المكونة من ستة أطفال صغار غيرها، إضافة إلى والدها العاطل، ووالدتها المنكوبة بالفقر وعدم استطاعتها توفير مال تربية كل هؤلاء الصغار، ولقد اتهمتها السيدة بسرقة ذهبها، وأقسمت ياسمين لمسلمة أنها ما فعلت ذلك، وأن وجودها في الإصلاحية ما هو إلا ظلم، ولقد امتنعت مسلمة عن سرد قصتها لياسمين؛ ليس لخشيتها منها، بل لأنها تريد أن تتخذ من الصمت بالنسبةِ لحكاياتها سلاحًا حتى تُتقن جيدًا

ما الذي عليها أن تقوله، وما الذي من الواجب أن تصمت عنه.وجاءت الجمعة الخامسة وانتقلت مسلمة تلك المرة بصحبة ياسمين إلى المدرسة العسكرية، ودخلتا معًا لتنظيف أماكن قضاء الحاجة لطالبات المدرسة، فوجدتا فتاة شقراء تدخل عليهما بعدما بدأتا في عملهما، وكانت الفتاة مماثلة لسن مسلمة، صمت ثلاثتهن ثم باغتتهما الشقراء بسؤالها:

- لماذا تعملون رغم أنكم بسني ومن المفترض أننا في ذلك السن ندرس ونقضي أوقاتًا رائعة برفقة أصدقائنا؟

كانت الشقراء تعتقد أن مسلمة وياسمين لديهما رفاهية الدراسة والمرح كما هي، ولقد أفهمتها ياسمين أنهما تعملان لأنهما معاقبتان، صمتت الشقراء ثم قالت: «اسمي شيرا وأنتما؟»، فأجابتها ياسمين باسمها، ثم أشارت نحو مسلمة ذاكرة اسمها، وخرجت شيرا من بعدها لتتناول وجبة إفطارها مع أندرو صديقها، وجثت مسلمة على ركبتيها تبكي كل ذلك الذل والمهانة، وانهيار الكرامة، وسلب حقوق من المفترض أنها لها وليست لغيرها، وحاولت ياسمين أن تعرف ما يدور بخلد مسلمة، لكنها كانت محاولة دون جدوى، وبعد نصف ساعة دخلت شيرا عليهما ثانية بكعكتين؛ لأنها أدركت أنهما لم تتذوقا الطعام منذ الصباح، فأخذتها ياسمين ورفضت مسلمة أن تفعل؛ لشعورها أن تلك الكعكة بها من الأذى ما لا ترضاه، تقبلت شيرا موقف مسلمة، ولقد أخبرت شيرا ياسمين أن تأكل الكعكة بسرعة كي لا يراها أحدهم؛ لأنه في ذلك أذى لها بحرمانها من رؤية أهلها لسنةٍ كاملة وهي لا تستطيع فعل ذلك، وأعلنت لهم أن القوانين في المدرسة العسكرية تُحرِّم التحدث إلى الأغراب وخاصة الذين يأتون للعمل مثلكما.



ودخلت وجيدة عليهنَّ وهنَّ على ذلك الوضع، فألقت ياسمين الكعكة من يدها فور رؤيتها لوجيدة، ولقد غيرت وجيدة كعادتها الحقائق، واتهمت مسلمة أنها سرقت الكعكة من شيرا وألقتها على الأرض فور رؤيتها لها، وصمتت مسلمة عن الدفاع عن نفسها، ولم تستطع ذلك لأنه بدفاعها عن نفسها به أذى لصديقتها الجديدة ياسمين، وبه أذى لشيرا التي فعلت ما يُرضي فطرتها، والتي ما زالت لم تُدنس بحياتها وسط الشيوعيين، ولقد جرَّت وجيدة مسلمة على الأرض من شعرها، وألقت بها تحت قدميّ العجوز وفيق بعد أن انهالت عليها ضربًا بقدميها في بطنها واتهمتها بالسرقة أمام الجميع، ولم يستطع وفيق أن ينطق بكلمةٍ أو يُغير وضعًا مأساويًا كالذي يحدث لمسلمة، وكادت دمعة تخونه وتسقط منه لبؤس الواقع في بلاده، لكنه حبسها على الأقل لتظل ثقتهم به محلها، وليستطيع أن يأخذ مسلمة ليضعها في الغرفة الصغيرة المظلمة التي أصبحت أحب إلى قلبها، والملاذ الوحيد إليها من كل الاضطهاد والظلم الذين تلاقيهما، ولقد أخذها وفيق بعد أن ضربها أمامهم كفين على وجهها أدركت مسلمة أنهما ادعاء ومن خلف قلب وفيق الذي لا يستطيع أن يتعامل معها أمامهم إلا بتلك القسوة، وأخذها وفيق من بعدها وأدخلها الغرفة المظلمة، وعلمها في ذلك اليوم كل ما يعرفه عن المدرسة العسكرية، وأدركت مسلمة أن أبناء تلك المدرسة منعمين كأنهم في الجنة، وفهمت أن تلك المدرسة هدفها الرئيسي إخراج دفعات لا يهمها شيئًا سوى الحفاظ على مدينتهم وعلى توسعاتها حتى وإن كان المقابل هدم الآخرين، وتذكرت مسلمة شيرا التي شعرت أن فطرتها لم تتلوث بعد، في نفس الوقت تنبأت مسلمة أن شيرا لن تبقى على هذه الفطرة كثيرًا، وأن مفاهيمها ستتغير بعد القليل من الوقت،



وستكون الفتاتان اللتان أعطت لهما الكعك ألد أعدائها ما إن تعرف أنهما ترغبان في هدم مدينتها وأخذ حقهما.

ونامت مسلمة ليلتها باكية، لكنها راضية بما كُتب عليها، داعية ربها أن يساندها في كل ذلك الذي تمر به، وأن يجعلها آمنة من فتنة وجيدة، وأن يُثبِّت قلبها على دينه العظيم، وفي تلك الليلة العصيبة كانت نعمة قلقة غير مطمئنة على مسلمة، تناجي ربها أن يُرسل لها خيطَ أملٍ لتطمئن به على ابنتها، وكأن باب السماء كان مفتوحًا؛ فاستجاب لها ربها العظيم ودق الباب، فخرجت ولم تجد شخصًا، بل وجدت ظرفًا تحت بابها، ففتحته وقرأت ما فيه: «اطمئني على مسلمة، هناك يد أمينة معها تسندها في غربتها»، وكادت نعمة أن تدفع نصف عمرها لتعرف من أرسل الرسالة؟ ومن وضعها عند بابها؟ لكن كما نعلم الأمنياتنا ليست شرطًا أن تتحق في الوقت الذي نرغبه.



«من أبشع الأشياء التي يمر بها الإنسان
هو أن يُجبر على اختيار ما لا يرغبه»

بعد ثلاثة أيام من عقد قران بكر على سمر آتته سهيلة التي لم تستطع صبرًا لأكثر من ذلك، ولقد اختارت التوقيت الصحيح لدخولها، فتحينت الوقت الذي خرجت فيه سمر من المنزل لعملها ودخلت هي، فقابلها بكر على الباب وأخبرها أن تدخل لحين أن يُعطي خبرًا لقدرية أنها وصلت، فأوقفته وباغتته بقولها:

- ألا تشعر بحبي لك يا بكر؟

فصمت بكر من شدة ما سمعه، فاقتربت منه فرجع هو إلى الخلف خطوتين، فاقتربت هي منه لأكثر من الخطوتين وقالت له:

- العمل والمال والحب كل ذلك ملك لك إن فقط تزوجتني.
- إنني متزوج يا سهيلة، وعليكِ أن تعلمي أنني أحب زوجتي أكثر بكثير مما تتخيلي.

فاقتربت منه سهيلة بعد سماعها لتلك الكلمات بجسدها، فأبعدها بيده فاقتربت منه ثانية تحاول أن تحتضنه؛ فصفعها على وجهها وهو يقول: «المرأة خلق وحياء، والذي تفعلينه الآن ليس له صلة بأي دين»، وخرجت قدرية على ذلك الحدث، فوبخت ابنها على ضربه لسهيلة التي انهارت وتوجهت نحو الباب تنتوي الخروج وهي تقول: «عليك سداد دين والدتك وإلا سأسجنها لك، وسأقدم ما يدينها للمحكمة»، فجن جنون بكر وتوجه إلى قدرية والدم يغلي بعروقه يسألها عما تقوله سهيلة، وباغتته بإخباره أنها مضت لأختها على مكاتبة لتضمن بها حقها في المال، وكانت أختها صامتة عن فعل شيءٍ على أمل أن بكرًا سيتزوج سهيلة، والآن وبعد أن رفض بكر سهيلة فلن يتأخرا أبدًا عن أذيتها، ولم يستطع بكر ردًا حتى أنه لم يستطع أن يفكر بطريقةٍ عملية في الأمر،



وراح يخبط رأسه في الحائط حتى تعب ودخل غرفته، وما وجد حلًا ليهدأ إلا أن يناجي ربه ويدعوه أن يوسع بصيرته ويهديه إلى الصواب، وأن لا يدخله في جحيم الاختيارات، وأن يجنبه أن يختار ما لا يرغبه، وبكى بكر كطفلٍ صغير تائه لا يستطيع وصولًا.

وفي مساء ذلك اليوم وبعد أن عادت سمر من عملها أدركت ما أن رأت بكرًا أن حدثًا جديدًا قد حل به، وسألته عن ما به فرفض أن يبوح لها بما حدث، وفي الأخير أخبرتها قدرية بالجزء الأخير من الحدث وهو أن سهيلة تريد أن ترفع قضية بالمال الذي استدانته هي من والدتها، لأول مرةٍ تتحدث قدرية إلى سمر بهدوء وعلى غير عادتها، قالت وهي تبكي:

- ليس لكما شأن بهذا الأمر، لن أُخرج نفسي من تلك الورطة على حسابكما.
- حسابكما!!

تعجبت سمر وتساءلت عن دخلها في أمرٍ كذلك، وترددت قدرية في البوح لها بأمر عرض سهيلة لبكر بأنها عرضت عليه زواجها منه، ولما رفض توعدت أن تؤذيه في أمه، لكنها وبعد دقيقتين أخبرت سمرًا بالأمر، سمر التي ما استطاعت أن تجيب على كلمةٍ واحدة أو أن تعطي استجابة واحدة على ما قيل، وخاصة بعد أن ختمت قدرية حديثها بإعلانها أنها لن تقبل هدم سعادتها على حسابهما.

مرت ليلة كئيبة على سمر وبكر، وفي ثاني ليلة من الحدث اقترحت سمر على بكر أن يوافق على خطبته من سهيلة حتى لا تتورط قدرية في الدخول إلى متاهات القضاء، ورفض بكر حديث سمر برمته، بكر الذي ما زال في قلبه بعض شكٍ تجاه استدانة قدرية من أختها من الأساس،

إلى أن حدثت المفاجأة وأعلن لهم مُحضِر من القسم في سابع يوم من ذلك الحدث أن قدرية مطلوبة للتحقيق في أمر مكاتبتها لأختها بشأن مالٍ قد استدانته، وهنا ارتبك بكر وتيقن أن الأمر جد وليس هزليًا، ولم تستطع سمر أن تراه على تلك الحالة من فزعه على والدته، فراحت إلى قدرية وأخبرتها أن تذهب لسهيلة وتخبرها أن بكرًا وافق على خطبتها، لم توافق قدرية في البداية، لكنها بعد دقيقة سألتها:

- هل بكر هو من أخبركِ بذلك؟
- لا، إنه لا يوافق على أمرٍ كذلك، لكنني سأستطيع إقناعه لأجل ألا تعانين في المحاكم، لا يرضيني إهانتكِ، قالت سمر.
- وماذا عنكِ يا سمر هل ستتركين بكرًا؟ سألت قدرية.
- نعم لمصلحته، ولأجل أن يجد عملًا، وأن لا يرهق في الحياة، ولأجل ألا تهاني أنتِ، عليَّ أنا الانسحاب، سأغادره للأبد، قالت سمر.
- لا يرضيني ذلك يا سمر، قالت قدرية.
- لكن ذلك المنطق والعقل، وعلينا أن نتبع ما تُمليه علينا عقولنا، قالت سمر وعيناها مليئتان بالدمع، ثم غادرتها لتدخل غرفتها؛ تبكي قرارها وتدعو الله أن يعطيها الصلابة لأن تقنع بكرًا بذلك القرار.

في مساء ذلك اليوم ذهبت قدرية إلى أختها وإلى سهيلة تُعلن لهما موافقة بكر على خطبة سهيلة، بكر الذي خرج لأمه قبل ذهابها لسهيلة وأخبرها أنه يوافق على أمر الخطبة من سهيلة، وذلك ما حدث إلى بعد أن جلست معه سمر قلبها.



وكان لإعلان قدرية وقعه السعيد على سهيلة، لكنها وبعد أن فكرت للحظاتٍ سألت عن أمر سمر، وأخبرتها أن بكرًا سيُطلق سراحها فور إنهاء أمر المكاتبة في المحكمة، وتهلل وجه سهيلة التي قررت أن تذهب هي ووالدتها في الصباح لتتنازل عن حقها في المبلغ المدانة به قدرية.



«لسلامتك النفسية لا تفعل ما لا ترضاه»



لسلامته النفسية ولصون كرامته رفض بكر عرض سهيلة له بأن يأخذ تمويلًا لمشروعٍ كبيرٍ له، وأعلن لها أنه ما خطبها لأجل مالها وإنما لصون قدرية من المَحاكم، وطلب منها أن يرى المكاتبة التي وقعت عليها والدته، فاتصلت بمحاميها تطلب منه أصل المكاتبة التي تنازلت والدتها عنها في المحكمة صباح ذلك اليوم، وكان لدى بكر أمل ألا يكون هناك أصل للمكاتبة، لكن حدث ما لا يتمناه هو وأتى المحامي بأصل المكاتبة وباغتته بها، وحينها أخبر بكر سهيلة أن المبلغ المطلوب سيسدده نيابة عن والدته في القريب العاجل، ورفض بكر ألا يفعل حتى بعدما أخبرته سهيلة أنهم لا يريدون ذلك المال بعدما أصبح بكر منها ومنه.

وعاد بكر إلى بيته يفكر في الفتاة المتخيلة أنها تستطيع شراءه بالمال، وما الأزمة التي بحياتها التي جعلتها تؤمن أن المال من شأنه أن يشتري كل شيءٍ حتى الحب.

وفي تلك الليلة كان الأمر الحقيقي الذي يزعج بكر هو عدم إيجاده لفرصةِ عملٍ حتى بعد بحثه الدائم عن ذلك، لقد نشر والد حسام وصاحب شركته لأصحاب الشركات الأخرى أن بكرًا سارق كي لا يأمنوا لأن يجعلوه يعمل معهم، وفي أثناء تفكيره المميت في ذلك الشأن دق باب داره، وإذ بسمر تُدخل كارم إلى البيت، فخرج له بكر ليرى الأمر، ولقد بدأ كارم حديثه قائلًا:

- أنت تعلم يا بكر أنه ليس لدي عمل في الفترة الأخيرة، لا أخفي عليك كنت أحمي نفسي من العوز بجزءٍ يعطيه لي والدي من معاشه، والأمر الآن أصبح مملًا، وأصبحتُ أنا لا أطيق أن أمد يدي ثانية لوالدي، فإلى متى سأظل كذلك؟

قاطع بكر حديث كارم وقال له:



- لكنني لم أرَك يومًا تبحث عن عمل في إحدى الشركات، والأغرب أنني أشعر يا كارم أنك متكتم على شيءٍ ما تريد إخفاءه.

صمت كارم قليلًا، ثم اطمأن أن يحكي لبكر قصته القديمة من الهروب من خلال النفق، وتغيير هويته، وكيف أنه رجع آملًا في تغيُّر أمر ما في وطنه، لكنه فشل في ذلك حين وجد رفقاءه قد تشتتوا، فأحدهم قُتل، والآخر هرب، والثالث انساق وراء مال الشيوعيين، وكيف أنه لا يستطيع المقاومة وحده، وهذا ما يجعله كئيبًا لعجزه عن تغيير بؤس الواقع الذي تمر به بلاده، عجزه عن وقف الظلم الذي من شأنه ظلم أطفال كمسلمة، وآباء كوالد رقية، وأمهات كوالدة نائل، ولقد بكى كارم وهو يتحدث ولم يخجل من بكر الذي احترمه أكثر بكثير من ذي قبل، فلم يكن بكر يعرف عن كارم كل تلك الإنسانية، فكارم لم يظهرها سابقًا، وبكر لم يحاول أن يسأل ليعرف، ولما فتح كارم لبكر قلبه فعل الأخير معه كذلك، وحدثه عن أزماته الأخيرة في العمل، وسهيلة، ومكاتبة والدته، وانزعج كارم وسأل بكرًا:

- هل تركت سمر لأجل سهيلة؟!
- لأجل كِبر سن أمي التي لن تتحمل الأذى، قال بكر وقد حبس دمعة حفاظًا على كبريائه.

ولقد فهم كارم من حديث بكر أنه لن يستطيع مساعدته في أمر إيجاده لعمل وصمت عن طلبه، ولقد تحدثا كثيرًا معًا واتفقا في النهاية على العمل في أي شيءٍ من شأنه كفايتهما العوز بالحلال، ولم يكن بكر يتخيل يومًا أن يعمل عتالًا بعد أن كان محاسبًا ذا شأنٍ رفيع في شركة محترمة، لكن هذا ما وجده، وهذا ما علمه كيف يعافر حتى لو سُدت كل



الطرق أمامه، وفي حقيقة الأمر لولا كارم ما تشجع أبدًا أن يعمل عتالًا، لكن أحيانًا نفعل مع أصدقائنا ما لا نستطيع فعله وحدنا، وهذا ما حدث، وعمل بكر وكارم معًا كعتالين، واستطاع بكر أن يعاود إعطاء قدرية مالًا لشئون البيت، وآخر كان يحتجزه ليكون المبلغ المطلوب لسداد دين سهيلة، وبعد أن عمل بكر لمدة ثلاثة أسابيع علمت سمر بالأمر، فربتت على كتف بكر وأعانته بكلمات عن الصبر وعن الأمل، فالأمر لن يبقى على ما هو عليه وإنما سيتغير لأفضل مما كان عليه سابقًا.

ولما علمت سهيلة بالأمر من قدرية استشاطت غيظًا، فكيف لبكر أن يرفض أن تموِّل له مشروعًا محترمًا ويوافق على أن يعمل عتالًا بالأجرة؟ مهنة كتلك من وجهة نظرها ليس بها من الكرامة شيئًا، كما أنها مقتنعة أنه يهين مكانته الاجتماعية أمام الجميع، فكيف لها أن تواجه المجتمع بعمل من سيكون زوجها؟ ولم تستطع سهيلة صبرًا وراحت تضرب الأرض حتى وصلت داره، وقالت لبكر وهي في قمة عصبيتها: ألا تستطيع أن تحافظ على كرامتي؟ لقد فعلت لك كل شيءٍ حتى تحبني وما زلت أنت تهينني!أنتِ لم تفعلي لأجلي شيئًا يا سهيلة، المال المستدان لوالدتكِ سأرده لكِ عن قريب، قال بكر.

شعرت سهيلة أن بكرًا سيتركها ما إن يتوفر المال لديه، فباغتته أمام الجميع برغبتها في عقد قرانهما على أن يصبح الفرح بعد ذلك بشهرٍ واحد، وكان ذلك ذكاء منها، فبكر من المستحيل أن يستطيع تحصيل المال قبل شهر.

ولما رفض بكر بشكل حاسم الأمر؛ رمت سهيلة له خاتم خطبتهما على الأرض، فتلقته قدرية التي أخبرت سهيلة أن كل شيءٍ سيكون وفقًا

لرغباتها، ولم تهدأ سهيلة حتى بعد أن سمعت حديث قدرية، وراحت تصرخ وهي تقول:

- هل أتيت لخطبتي فقط من أجل تأجيل أمر قضاء والدتك؟ أنا لم أجبرك على خطبتي، أنت من أتيت لداري لخطبتي ولأجل أصلي تنازلت لك عن المقاضاة.

صمت بكر عن الإجابة، إنه قد أعلن لها مسبقًا وبشكلٍ واضح أنه خطبها لصون كرامة قدرية، وقبلت هي على نفسها ذلك، فما الذي يجعلها تقول تلك الكلمات الآن؟ وتدخلت سمر في الأمر لمَّا وجدت من سهيلة انهيارًا كذلك، وربتت على كتفها وطلبت منها أن تهدأ وأن كل شيءٍ سيُحل بالتفاهم، فدفعتها سهيلة وخرجت من الدار وهي تقول:

- غبية! لا شأن لكِ بشيء، هل تتخيلين نفسكِ ملاكًا وكل من حولكِ شياطين، أم نسيتي أنكِ لا تصلحين للزواج ولا للإنجاب بعدما كبر سنكِ يا غبية؟!صمتت سمر عن الرد ودخلت غرفتها تبكي إهانتها وحدها، والوحدة من وجهة نظرها أكرم لها من أن تنهار أمام أحدهما فتشعر بالشفقة وهذا ما لا ترضاه على كرامتها.

وبعدما خرجت سهلية لحقتها قدرية وأوقفتها وهي تقول لها:

- ألم نتفق يا سهيلة أن تهدأي لتُحببي بكرًا فيكِ، ثم ليأتيك هو طائعًا معلنًا عن حبه الصريح وعن أنه لا يستطيع بعدًا عنكِ؟ لماذا لا تسمعين كلمتي؟
- لا أستطيع أن أسكت وأنا أشعر أنه خطبني لأجلكِ فقط وليس لحبه لي، هذا يقتلني يا خالة، أريده أن يحبني كما أنا، لقد تعبت.



«لم يكن لديها رفاهية الانهيار، كان عليها أن تظل صلبة»



اعتادت أحلام على لياليها الحزينة ولم يعد يفرق معها أي شيء، حتى رفاهية انهيارها أمام والدتها فقدتها، كان عليها أن تظل صلبة أمامها رغم بؤس واقعها، ولطالما رغبت في البكاء طويلًا أمامها، لكن خوفها عليها من أن تحزن جعلها تمتنع في كل مرةٍ تلقاها فيها.

اليوم زارها والدها مفيد، وفي الحقيقة هي ما شعرت يومًا أنه يأتي لزيارتها، بل كل مرةٍ يُشعرها أنه يأتي لصديقه برهان، ولكن تلك المرة كانت أكثر اختلافًا، فقد شعرت أحلام أن مفيد يريد أن يُبعدها عن مسمعيه وهو يجلس مع برهان، حتى أنها شعرت أنه طلب من برهان أن يطلب منها أن تذهب لرضوانة، برهان الرجل الذي لطالما رفض أن يجعل أحلامًا تذهب لرضوانة ولو لنصف ساعة، اليوم يطلب منها أن تذهب إليها، ولم يهم أحلام في حقيقة الأمر أن تعرف السر وراء ذلك الطلب، ما كان يهمها هو أن تخرج من ذلك السجن، وكانت تلك أول مرةٍ تخرج فيها أحلام من قصر برهان، لكم أن تتخيلوا أول مرةٍ منذ أن دخلته عروسًا! وخرجت تستنشق هواء الشارع وكأنها في الجنة، وأسرعت في الذهاب إلى رضوانة التي اندهشت لكون ابنتها عندها، هي لا تُصدق أن برهانًا سمح لها بالخروج وحدها، ولم تقفا للتفكير عند تلك النقطة طويلًا، وطلبت أحلام من رضوانة أن يزورا نعمة، ووافقت رضوانة فورًا، وأثناء سيرهما بصحبة يوسف قال موجهًا الحديث لأحلام:

ـ لماذا لا تأتين لزيارتنا كثيرًا؟

لم تستطع أحلام إجابته، لكن رضوانة أنقذت الموقف بطلبها من يوسف ألا يُرهق أخته بالأسئلة، الأغرب أن يوسف لم يصمت، بل أدهشهما بفهمه، وأعلن لهما أنه يعرف كل ما يدور حوله، يعرف أن

أحلام تزوجت رجلًا لا ترغبه، وأن السبب وراء ذلك هو مفيد، ويعرف السبب وراء ابتعاد رضوانة عنه وهو أنه لم يعطِ الحق لليتيمة مسلمة ولا لأمها نعمة، وأسكتته رضوانة عن إكمال حديثه لكنه أبى أن يصمت دون أن يُكمل ما في قلبه، وأعلن لهما أنه يريد مواجهة برهان بكل ذلك الذي يفعله، وتعجبت رضوانة ومن قبلها أحلام، فكيف ليوسف رغم صغر سنه أن يُفكر بتلك الطريقة، وأن يلم بالأحداث بتلك الصورة؟! وما إن انتهى يوسف من حديثه حتى وصلوا إلى دار نعمة، نعمة التي اندهشت هي الأخرى من رؤيتها لأحلام، ولقد بكت أحلام ملء الأرض؛ حيث رأت ظلمًا متمثلًا في عين نعمة وقدميها، بكت العجز عن رفع كل ذلك البؤس في ذلك الواقع.

دخل بكر وكارم ليطمئنا على نعمة ووالدة نائل، ولما وجدا رضوانة وأحلام استأذناهن في الخروج بعد أن سلما مباشرة؛ كي يتركاهنَّ على راحتهن، ولقد لمح كارم أحلام وآثار دموعها ما زالت في عينيها، وما استطاع صمتًا، فما إن خرجا حتى سأل بكرًا عن الفتاة التي يراها لأول مرة، وحكى بكر لصديقه قصتها، وعجز كارم عن إبداء رأي في الأمر، لكنه غادر بكرًا معلنًا له عن رغبته في السير وحده لبعضٍ من الوقت.

جلست أحلام في دار نعمة ثلاثين دقيقة، ثم غادرتها برفقة والدتها ويوسف خوفًا من برهان الذي أمرها أن تعاود بعد ساعتين من خروجها من باب قصره، ولقد أخبرت أحلام رضوانة أثناء سيرهما أنها تحمل من برهان طفلًا؛ فتنهدت رضوانة فور سماعها ذلك الخبر، إنها لم تفرح كأي أم تسمع خبرًا كذلك من ابنتها، وعلى الرغم من ذلك صُدمت حين أخبرتها أحلام أنها لم تُخبر برهانًا، وأنها لا تنتوي فعل ذلك في الوقت



الراهن، ولم تستطع رضوانة تفسير موقف ابنتها سوى أنها لا تطيق برهان لدرجةٍ مخيفة، لكن ما الذي بيد رضوانة أن تفعله لإنقاذ ابنتها من ورطة برهان؟ هي لا تستطيع أن تعرف.

عادت أحلام إلى سجنها ولم يشعر بها برهان، ولقد تخيلت أن مفيد قد غادر القصر، لكن ظنها قد خاب حين سمعت برهان يقول موجهًا الحديث إلى مفيد:

- قلت لك أن الأمور ستسير كما نرغب، ها هو بكر قد خسر عمله، وقد خطب سهيلة وانفصل عن سمر، وأعدك أن يتم لك ما شئت وأكثر، على أن تُسهل لي ما طلبته منك.

وقد جن جنون أحلام حين سمعت ذلك الحديث المُبهم الذي لم تستطع أن تُفسره جيدًا، لكن ما فهمته أن لبرهان ومفيد يدًا فيما يحدث لبكر، والذي أربك تفكيرها هو الدافع الذي يجعلهما يؤذيانه، وما الحكمة من تلك الفرحة التي وجدتها على وجههما والتي سببها ترك بكر لعمله ولسمر؟ هي لا تستطيع أن تفهم أي شيء، وجن جنونها أكثر لأن رضوانة لم تخبرها أن بكرًا قد ترك سمر، وهي تدرك جيدًا كم يحبها ولا يستطيع أن يعيش بدونها، وأصبحت أحلام تريد تفسيرًا واحدًا لكل ذلك الذي يدور برأسها، وتمنت لو أن يتاح لها فرصة مهاتفة رضوانة، لكن من أين لها ما رغبت وهي المحرومة من امتلاكها لهاتفٍ أو محادثة أحدهم؟ تمنت في ذلك الوقت لو أن رضوانة تأتي لزيارتها رغم أنها تدرك جيدًا أن ذلك لن يحدث قريبًا لكونها للتو كانت معها، وقررت أحلام ألا تُشعر برهان ومفيد أنها سمعت أي شيء من حديثهما، وجرَّت قدميها متوجهة نحو غرفتها التي وجدت فيها بسنت ابنة برهان



تبكي بحرقةٍ في الهاتف إلى أحدهما وهي تقول له: «إنني مصدومة، لقد وجدتُ ما يدل على إثبات شكوكي في خزانة والدي، لست متخيلة أن يكون والدي الذي أتخذه قدوة لي بهذا السوء!»، وفهمت أحلام أن بسنتَ استغلت كون برهان مشغولًا مع مفيد، وكونها خارج القصر، ودخلت الغرفة قاصدة خزانة برهان؛ لتبحث عن شيءٍ ما بداخلها، وما إن شعرت بسنت بأحلام حتى انفعلت عليها واصفة إياها أنها السبب في عذابها؛ فقد خطفت والدها منها، واتهمتها إضافة إلى ذلك أنها شجعته على ارتكاب كل ما هو غير حميد، ولم تستطع أحلام أن تفهم ما الجرم الذي فعله برهان لتغضب ابنته بهذا الشكل.

وقلبت بسنت الحقائق ووصفت أحلام بأنها خبيثة تتجسس عليها أثناء حديثها في الهاتف، ولما رأت أحلام الهاتف بيد بسنت تمنت لو أن العلاقة بينهما ليست على تلك الشاكلة لتستطيع أن تهاتف والدتها لتأتيها، وأفاقت أحلام من تفكيرها وبسنت تسقط أرضًا من شدة انهيارها إثر عدم تقبلها ما أثبتته على والدها، وساعدتها أحلام إلى أن فاقت، فباغتهما برهان بدخوله إلى الغرفة، فوجد مفاتيح خزانته موضوعة في منتصف المنضدة، وهو الذي لا يخرجها من دولاب ملابسه، ولقد اتهم أحلام أنها هي من أخرجتها لتتجسس على أوراقه وانهال عليها ضربًا، وما استطاعت أحلام أن تنطق بأن الفاعلة هي ابنته وإنما أقسمت له أنها لم تمد يدها على مفاتيحه أو خزانته، وظل برهان يضربها بلا رحمة، وقد خرج هائمًا على وجهه يلعن اليوم الذي أدخلها إلى قصره، وما إن خرج حتى اقتربت منها بسنت التي لم تنطق بكلمة واحدة، حتى أنها لم تطيب خاطرها، ولم تشكرها على أنها لم تذكر اسمها أمام برهان، وإنما بكت



على بكاء أحلام التي ما استطاعت أن تسكت لأكثر من ذلك، وأقسمت لها ألف قسم أنها لم تكن أبدًا لتشجع برهان على فعل ما لا يرضي ربه، وسألتها أن تبوح لها بالتفاصيل التي تزعجها، لكن بسنت رفضت أن تنطق حرفًا، واعتذرت لها على عدم استطاعتها أن تحكي لها التفاصيل في الوقت الراهن، لم تستطع بسنت أن تذكر ما يُسيء لوالدها رغم أنها لا تؤيد ما يفعله كأيةِ ابنة، هي تريد أن تظل صورة والدها أمام العالم عظيمة ولو كان به من العبر ملء الأرض.



«كان يرغب أن يمتلك رفاهية السقوط دون خجلٍ
وأن يقول أنا متعبٌ»



هو يشعر أنه لم يعد صلبًا كما السابق، يحس أن شموخه قد اهتز، وعزته قد هانت عليه يوم وافق على خطبته من سهيلة، وتلك النتيجة اليوم، فسهيلة تفرض عليه فرضًا جديدًا، وهو أن يعقد قرانها على أن يتم الفرح بعد شهر، ماذا عليه الآن أن يفعل لذلك القَدر؟ خاصة بعدما جرد مكاسبه من عمله كعتالٍ فلم يجد ما معه يكمل ربع المبلغ المطلوب، هل سدت كل الطرق لأن يهين كرامته لتلك الدرجة مع سهيلة؟ وماذا عن سمر العالِم بدواخلها الله والتي لا تستحق أن تنام وحزنها يحاوطها بسبب كلمات سهيلة القاسية؟ سمر التي ما استطاع بكر أن ينساها أو أن يتخيل حياته دونها.

استأذن بكر سمر في أن يدخل لها، فأذنت له وأظهرت له صلابة فباغتها بقوله:

- حتى لو ادعيتي أنكِ صلبة ولم تتأثري من الموقف، فأنا أفهم دواخلكِ جيدًا وما تمرين به الآن تحديدًا.وصمتت سمر عن الرد فأكمل بكر حديثه مذكِّرًا إياها أن خطبته لسهيلة ما كانت إلا تحت ضغطٍ منها، ثم داعبها بكلماتٍ منه كي يروق بالها:
- حمدًا لله أنني لم أسمع كل كلامكِ وانفصلت عنكِ، يكفي أنني قمتُ بخطبتها.
- أشعر أنني بموافقتك على أننا لم ننفصل، واخفاؤنا ذلك عن الجميع، وقيامك أنت بخطبتها أننا نخونها، والأسوأ أننا نفعل ذلك وليس في نيتنا أن تُكمل معها، نحن سيئون يا بكر، قالت سمر.



ـ سهيلة هي التي ضغطت عليَّ بأمي لفعل ذلك، وذلك الذي فعلناه ليس إلا ردَ فعلٍ منَّا على ما فعلته، هي التي أخرجت أسوأ ما فينا يا سمر.

أثناء الحوار الدائر بينهما قطع حديثهما زيارة كارم الذي قد أتى بالمال الذي قد جمعه من عمله كعتالٍ في الفترة الأخيرة، إضافة إلى المال الذي أعطته له سمر، والتي أقسمت عليه ألا يبوح لبكرٍ أنه لها حتى لا تعف نفسه عن أخذهم، وقد قبل بكر المال على أن يرده لصديقه في أول فرصة، المال الذي وضعه على ماله فأكمل نصف المبلغ، فذهب به إلى سهيلة برفقة قدرية ليستأذن سهيلة ووالدتها أن تقبلا نصف المال على أن يسد لهما بقية المبلغ في أقرب وقت، فانهارت سهيلة في وجهه، وطردته من الدار، وألقت المال في وجههِ وهي تقول:

ـ أريد المبلغ كاملًا وإلا لن تتحمل عواقب التصرف الذي سأفعله.

اندهش بكر من رد فعلها، وشعر أن بها شيئًا غريبًا، لكنه صمت عن قول ما في دواخله، ورجع إلى الدار وحكى لسمر ما وقع حين سألته، فاندهشت هي الأخرى ولم تستطع أن تُخفي ما في دواخلها تجاه الموقف، وباحت من تخوفها في أن سهيلة قد تكون تعاني من أمراضٍ نفسية.

ـ لا أدري شيئًا عن حقيقة الأمر يا سمر، قال بكر.

وصمتت قدرية عن التعليق، وبعد ساعتين جاءهم طارق لتأييد ما ظنته سمر، فقد دخل عليهم الدكتور ياسين، وقد جاءهم بصحبة والدة سهيلة، وأوضح لهم أن سهيلة تعاني من مرضٍ نفسي، وهو حبها لتملك



الأشخاص، وهي الآن تعاني من انهيارٍ بسبب شهورها أن بكرًا تمرد عليها بكونه يحاول سداد دين والدتها بعيدًا عن ارتباطه بها، وبذلك تشعر هي بخسارة شيءٍ رغبت أن يكون ملكًا لها، ولقد حذرهم الدكتور ياسين من استمرار العناد مع سهيلة وإلا ستدخل في مشكلةٍ من نوع آخر، مشكلة اكتئاب هم في غنى عنها، وعليهم أن يتبعوا تعليماته كي ينقذوها من ذلك الذي هي فيه، وأن يُكمل بكر دوره، وأن يعاود خطبتها كي تبتعد عن الدخول في الاكتئاب، وقد وعد ياسين بكرًا أن الأمر لن يتطور، وأنه سيسعى جاهدًا في علاجها، وأن الأمور ستتحسن بأقرب ما يكون.

ولقد ترجت والدة سهيلة بكرًا ألا يعاند ابنتها، وأن يكون إنسانًا أمام مرضها التي لم تكن يومًا ترغب في الفصح عنه لأحدهم؛ كي تظل ابنتها الوحيدة بصورة رائعة أمام الجميع، لكن ذلك لم يكن بيدها أمام سوء حالتها.

ولقد وافق بكر بعد أن ألحت عليه سمر أن يكون رحيمًا بإنسانةٍ مريضة، وأن الأمر لم يعد حفاظًا على قدرية فقط، وإنما حفاظًا على سهيلة من تدهور نفسيتها.

ولقد ظهر ذلك الأمر عند سهيلة منذ وفاة والدها، والذي أكده ياسين أنه إثر تربية والدها لها على أن المال يشتري كل شيءٍ تريده، وأيضًا دلاله لها بتنفيذ أوامرها فورًا كلما احتاجت شيئًا.

واستجاب بكر لإنسانيته ووافق على الذهاب إلى سهيلة ومراضاتها بكلماتٍ عن كونه لم يكن يقصد أن يتخلى عنها حين أتاها بالمال، لكن سهيلة تلك المرة صممت أن يكون عقد قرانهما وفرحهما معًا بعد أسبوعٍ



واحد من توقيت الحديث بينهما، وخيرته بين أن يكون صادقًا فيوافق، وبين خداعه فيبتعد عنها، فخشى بكر انهيارًا جديدًا من سهيلة ووافق على ما قالته، وخرج يشعر بدوارٍ في رأسه من كل ذلك الذي يحدث له في الفترةِ الأخيرة، وما أراد أن يفعل شيئًا إلا أن ينام ليهرب من التفكير، يريد أن تتوقف رأسه عن الضجيج الذي بها ولو قليلاً.



«أريد أن أعود إلى عالمٍ بدون ضجيج»



ـ أريد أن أعود يا أحلام، قالت بسنت.

ـ إلى أين؟ تساءلت أحلام.

ـ إلى ذلك الإنسان الذي لا يمتلك كل ذلك الضجيج في رأسه، إلى نفسي الأولى التي كان أقصى ما يُزعجها فقد دميتها بأحد أركان المنزل، قالت بسنت.بسنت التي دخلت إلى أحلام تشكرها على موقفها الأخير معها، لم تكن أحلام تنتظر شكرًا من بسنت، ولم تكن تتوقع أحلام أن بسنت بها من الإنسانية ما يجعلها تتنازل عن كرامتها وعدم حبها لأحلام؛ لتدخل إليها غرفتها لتشكرها وتعتذر منها عن تصرف برهان معها، وعلى الرغم من ذلك لم تبُح بسنت بكلمةٍ لأحلام عن الذي يزعجها من برهان، وتجرأت أحلام في طلب الهاتف من بسنت بحجة أنها تريد التحدث إلى رضوانة لتأتي لها، وترددت بسنت قليلًا ثم ما لبثت أن وافقت، ولم تستطع أحلام أن تستفسر من رضوانة عن شيءٍ في الهاتف نظرًا لوقوف بسنت إلى جوارها، وطلبت منها القدوم إليها لاحتياجها الشديد لها، وأغلقت رضوانة الهاتف منتوية الذهاب إلى ابنتها في مساء اليوم، ولما وصلت رضوانة إلى أحلام لم يتركهما برهان ينفردان مع بعضهما البعض، ولولا ستر الله لمشت رضوانة دون أن تنطق لها أحلام بكلمة، ولقد جاءت لبرهان مكالمة هاتفية يبدو أنه كان ينتظرها، فطلب من أحلام أن تأخذ رضوانة إلى غرفتها، أحلام التي تلهفت والدتها أول ما انفردت بها بسؤالها عن حقيقة انفصال سمر عن بكر، فحكت لها رضوانة كل



الأحداث الواقعة في الفترة الأخيرة، ولم تتردد أحلام في أن تعلن لوالدتها ما سمعته من برهان في حديثه مع مفيد حين قال له: «ها هو بكر قد خسر عمله، وقد خطب سهيلة وانفصل عن سمر، وأعدك أن يتم لك ما شئت وأكثر على أن تسهل لي ما طلبته منك»، ولم تستطع رضوانة أن تُفسر ذلك الحديث، وغادرت أحلام بعد أن وعدتها أن تُطمئنها إن جد جديد، ولم تكن رضوانة تعرف ما الذي عليها فعله تحديدًا؛ فهي تخشى أن تبدأ أية خطوة تكون على غير مصلحة بكر وسمر.

وقررت أخيرًا أن تذهب لنعمة لتشاركها الرأي لعلهما تصلان إلى الفعل الذي عليهما تأديته، وفي النهاية كان قرارهما بأن تعرضا على بكر ما عرفتاه لعله يستطيع التفكير معهما، ولقد أرسلتا له يوسف فأبلغه أنه سيأتيهما بعد أقل من ساعة، ولم يتأخر بكر عنهما عمدًا وإنما ما عطله هو الدكتور ياسين، ولقد باغته بطلب الزواج من سمر، وكاد أن ينفجر فيه بكر وأن يصرخ بأعلى صوته قائلًا هي زوجتي، لكنه ما استطاع إلا أن يكون ثابتًا، وأن يرفض طلبه بهدوء، ولقد اندهش ياسين من رفض بكر، هو حتى لم يأخذ رأي سمر، فلماذا يرفض رفضًا قاطعًا كهذا الذي فعله؟ وخرج ياسين من دار بكر، بكر الذي أول ما خرج ياسين خرجت له سمر تبتسم من الموقف والعصبية الدالة على غيرته، ولقد كانت تريد تخفيف الموقف فقالت له:

ـ ما الذي كان يريده الدكتور ياسين، أشيء بخصوص سهيلة؟

ـ كان يريد شيئًا أحمقًا، قال بكر.

ـ ما هو؟ سألت سمر وكأنها لم تسمع شيئًا.

- لا شأن لكِ بشيء.

قال بكر، فابتسمت له سمر وهي تقول:

- حسنًا.

ثم توجهت إلى غرفتها فاستوقفها بكر سائلًا إياها:

- من أين تعرفين ياسين ذلك؟

فضحكت سمر وقالت:

- كما عرفته أنت.

- ولماذا يريد الزواج منكِ ؟ قال بكر وهو في أشد حالاته من العصبية.

- يحبني.

قالتها سمر بعفويةٍ لإثارة غيرة بكر، لكنها لم تكن تتخيل أن رد فعله سيكون قاسيًا لتلك الدرجة، درجة أنه أمسكها من ذراعيها وقال منفعلًا:

- لا أحب المزح في أمرٍ كذلك، سأقولها لكِ مرة واحدة ليس لكِ شأن بياسين ذلك.

ولم يعطِ بكر فرصة لسمر أن ترد عليه، وانتوى الخروج ليذهب إلى نعمة، لكن قدرية أوقفته لائمة له على رفضه لياسين، قدرية التي علمت بالأمر من ياسين الذي قابلها في الطريق وباح لها بكل ما حدث، ولما عنفت بكرًا على رفضه للطبيب ازدادت عصبيته وأخبرها أنه لا يريد الحديث في الأمر، وأن الأمر منتهي وخرج من الدار، وسمع قدرية وهي تقول:

ـ أستحرمها من الزواج؟ أنت انفصلت عنها وسمر لها مطلق الحرية في قبول عرض ياسين.

فقال بكر دون أن ينظر لها:

ـ نعم سأحرمها.

وتوجه بكر إلى نعمة ورضوانة، واللتان حكتا له ما عرفتاه من أحلام، ولم يستطع بكر أن يصبر أو حتى أن يفكر فيما قالتاه، فما أراده هو أن يعرف وبسرعة السر وراء تركه لعمله، وأن يوقف ذلك الضجيج الذي برأسه لما هو عليه من تفكير، ولقد توجه نحو دار مفيد ولم تستطع رضوانة أن تتركه، فقد تبعته هي وابنها يوسف ليهدآنه قليلًا، ولتنصحه أن يكون للمنطق مكانًا في تفكيره، لكن بكر المتلهف لخيطٍ يدله على السر وراء كل ما يحدث له لم يسمع كلمة من رضوانة، وأكمل سيره إلى دار مفيد، ولم تتركه رضوانه، ولقد طرقوا باب داره فحدث ما لم يكن على بالهم أن يكون.

فلما خرج لهم مفيد وجدوه مرتبكًا، لكنه أصبح أمام الأمر الواقع حين دخل يوسف إلى الدار ولم ينتظر إذنًا من والده.

وكان بكر ما زال واقفًا على باب الدار يستأذن مفيد أن يتحدث له لبعض الوقت، ولقد رفض مفيد طلبه على أن يأتي له في صباح اليوم التالي، وكاد بكر أن يمشي لولا أن حدثت المفاجأة؛ فقد خرج يوسف من الداخل وقد شدَّ يد بكر محاولًا إدخاله وهو يقول له:

ـ الخالة قدرية بالداخل.

ـ من بالداخل؟ سأل بكر يوسف مجددًا ليتأكد أن ما سمعه ليس بخطأ.

- الخالة قدرية، والدتك، قالها يوسف بثقة فدفع بكر مفيد من على الباب ودخل غصبًا عنه، ودخلت رضوانة خلفه ليجدا قدرية مرتبكة هي الأخرى، ترتدي ثوبًا أسود غير مهندم يبدو أنها ارتده للتو، حتى أن غطاء رأسها لم يكن عليها، ويبدو أنها لم تلحق أن تُهندم نفسها قبل دخول بكر ورضوانة، وأظهرت رضوانة ثباتًا لم يتوقعه الواقفون، كانت رضوانة تتمنى أن تنهار وأن تبكي وأن تصرخ قائلة ما الذي يحدث؟ أبعد صبري كل تلك السنوات عليك وعدم مقاضاتي للانفصال عنك تخونني؟ لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك، وفضلت أن تكون صلبة وثابتة؛ فهذا أفضل لها من أن تتلقى من الأعين نظرة شماتة أو شفقة، ووقفت صامتة تُشاهد الموقف العبثي الذي أقرت فيه قدرية لابنها أنها متزوجة من مفيد، وأنها لا تفعل شيئًا يحرمه الله، وقف بكر مذهولًا من الموقف؛ لا يصدق أن قدرية فعلت ما يحلو لها من زواجها بمفيد دون حتى أن تأخذ رأيه أو على الأقل تخبره بنيتها، مصدوم هو بين واقع قدرية وبين ذاكرته التي باغتته بكون قدرية وقفت أمام رغبته من زواجه من سمر.
- أريد أن أعرف ما علاقتك بأمر فصلي من عملي؟ هذا ما يهمني، قال بكر بصلابةٍ لمفيد.

وبكبرياءٍ لم ينكسر أخبره مفيد أنه لا يعرف شيئًا عن الأمر، فلم يتمالك بكر نفسه وتهجم على مفيد وضربه وهدده بالقتل حتى أنطقه بأول الخيط الذي عرف منه الحقيقة، فقد قال مفيد من شدة الضرب:



- إنني ما فعلت شيئًا إلا لإرضاء قدرية، هي من رغبت في إفساد علاقتك بسمر وتزويجك من سهيلة.

أمه التي يحارب رغباته لأجلها هي جزء من إدخاله في دائرة بؤسٍ كتلك التي هو عليها، وكان أهون على بكر أن يموت على أن يرى أمه متورطة في بؤسه.

لم تستطع قدرية أمام انهيار بكر وتهديده الجاد بقتل مفيد أن تُخفي حقيقة أفعالها، ولم تقدر أن تخفي أنها هي التي حرَّضت مفيد على مساعدتها في أن يترك بكر العمل كي يعوز فلا يجد أمامه سوى سهيلة، فيترك سمر دون أن يُفكر سوى في مستقبله الذي ينهار، ولما لم تجد فائدة من فعلتها أوهمته أنها استدانت من أختها، وما كان هذا بصحيح؛ وإنما هو مفيد الذي اقترح عليها ذلك حتى يلين لسهيلة، فاكتتبا ورقة بالاتفاق مع سهيلة ووالدتها على أن يكون ذلك سرًا، حتى مقاضاة قدرية لم تكن ستكتمل، وكانت والدة سهيلة ستتنازل لأختها في المحكمة فقط لو أن بكر قسى قلبه قليلًا على قدرية ولم يتسرع في الموافقة على خطبة سهيلة، الأسوأ أن مفيد لم يجد سوى برهان ليساعده في أمر فصل بكر، وبرهان بدوره فكر في استخدام صديقه والد حسام وصاحب الشركة التي كان يعمل بها بكر، والد حسام الذي ما اقتنع أن يفصل حسام دون أسبابٍ قوية لأن حسام لم يكن أبدًا سيرضى بأمرٍ كذلك؛ فأتوا بصاحب شركةٍ أخرى وجعلوه يدَّعي أن بكرًا أخذ عمولة منه، وتم لقدرية ما رغبت ودخل بكر في دائرة العوز، ومن بعدها أدخلته في دائرة الخوف عليها، ولم تستحِ من أن ترى ابنها يترك حب عمره ويتألم لرعبه على أمه وفعله ما لا يرَضاه لأجلها.



صرخ بكر لأول مرةٍ في وجه قدرية مطالبًا إياها أن تشرح له قصة الدكتور ياسين، فأقسمت له سبعين قسم أن مرض سهيلة حق، وأن الدكتور ياسين ما كذب في كلمة مما قالها، هي تعترف أنها رغبت في تزويج سهيلة لبكر طمعًا في مالها ولتضمن لابنها حياة غير مرهقة وكرهًا في سمر، إنما أمر مرض سهيلة ذلك هو ما اكتشفته مؤخرًا كما اكتشفوه هم، ولقد تذكَّر بكر سمرًا وهي تُعلن له عن مخاوفها في أن تكون سهيلة تعاني من عدم السلامة النفسية؛ فلم يجادل أمه في الأمر كثيرًا وترك عنق مفيد وخرج هو ورضوانة يجران ذيول الخيبة من خلفهما، ويدفنان كل الثقة التي وهباها لأقرب الناس إليهما.

وعاد بكر إلى سمر فتلهفته سائلة إياه عن خبره، فصدمها رده:ـ إنني مهزوم يا سمر.

ـ ماذا؟ سألت سمر.

ـ لا شيء أكثر من أنني مرهق لدرجة أنني لا أستطيع شرح مقاصدي أو أعبر عن تلك الندبات التي اجتاحت روحي.

ولم يخجل بكر من بعد كلماته أن يبكي وأن ينهار أمام سمر، وأن يبين لها حقيقته في وقته الراهن؛ أنه ضعيف جدًّا إلى الحد الذي لا يستطيع فيه أن يقاوم فكرة عدم رغبته في شيء، وقدرت سمر مشاعره ولم تضغط عليه في أن يخبرها بما حدث بالتحديد، إنما تركت له زمام رغباته لينطق بما يريد ويخفي ما يرغب، ولم تتركه حتى راح في نومه، فجلست هي على سجادة صلاتها تدعو الله أن يمد له يده لينجو من ذلك الكرب الذي حل به، ما أعظم أن يرزقك الله بمن يدعو لك دون أن تدري أنت بجميل صنعه.



«وقدر الله خير مما تتخيله»



لعل الله حين جعل قدر مسلمة السجن كان لتتعلم ما لم تكن تستطيع تعلمه في الخارج، وأعظم ما حدث لها أن يرسل الله سندًا كوفيق ليعلمها إضافة إلى أحداث وطنها مفهوم الصبر على الأذى، وكان دائمًا ما يقول لها أن أعظم ما في الصبر أن نهايته بها من الخير ما لم نكن نحسب يومًا أنه سيكون لنا، ودائمًا ما كانت تسعد مسلمة حين يكرر فيض كرم الله على سيدنا يوسف حين صبر على الأذى من أقرب الأقربين له؛ إخوته، وهل هناك أقرب من الأخ؟ وكان كلما اشتد الكرب على مسلمة دعت الله أن يدخلوها غرفة رفيق المظلمة فتهدأ وتشعر أنها انفصلت عن العالم المزيف التي تعيش فيه وتتمنى لو أن يتاح لها فرصة البقاء في ذلك الظلام حتى موعد خروجها من ذلك المكان البائس ولقد أخبرها وفيق أنه أرسل لوالدتها خطابا عن طريق ابنه الأكبر عبد الرحمن حين أتى لزيارته المرة الأخيرة والتى لن تتاح مجددا إلا بعد ستة أشهر وفقا للقوانين المفروضة عليه.



«عليك أن تبتعد عنهم كي لا تؤذي نفسك أكثر»



أشهر عديدة مرت على مسلمة بين تعليماتٍ ودروس الإصلاحية، وبين تعاليم وفيق وتصحيحه لها كل ما هو خطأ، إضافة إلى إفهامها معنى النضال، وقيمة الحرية، ومفهوم المواطنة، والكفاح من أجل عدم ترك الحق، ولقد شعرت وجيدة أن مسلمة لم تعد تعارضها في شيء، أصبحت صامتة تركز في كل ما يوجَّه إليها، وكل ما تسمعه من تعاليم الإصلاحية، وفكرت وجيدة أن يكون السبب هو استجابة مسلمة لواقعها ونسيانها كل ذلك الذي كانت تؤمن به خارج الإصلاحية، ولم تتوقع وجيدة أن ذلك الصمت ما هو إلا لتتعلم مسلمة كيف يتكلم ويفكر من هم على غير فكرها، إلى أن جاء يوم الجمعة الموافق التاسع من كيهك، وكان الجو غاية في البرودة، ولقد تعرضت مسلمة إلى المرض الشديد من احتقانٍ في حلقها وارتفاع في درجة حرارة جسدها، لكن ذلك لم يمنع وجيدة من تكليفها بمهامها المعتادة في المدرسة العسكرية، ولم تستطع مسلمة إلا أن تنفذ الأوامر، وجرَّت قدميها في محاولةٍ لتنفيذ ما أُمِرت به، ولما حاولت ياسمين رفيقتها مساعدتها أمرتها وجيدة أن تبتعد عنها، ولما وصلتا إلى المدرسة العسكرية كانت مسلمة قد ضعفت قواها بأكثر مما كانت عليه، لكنها جرَّت قدميها وتوجهت نحو أماكن قضاء الحاجة لتنظيفها، ولما وصلت إلى الباب سقطت أرضًا ولمحها أندرو فلم يُلقِ لها بالًا وتركها إلى حيث سقطت، ولقد رأتها من بعده شيرا فلم تستطع إلا أن تتقدم نحوها رغم كل التحذيرات التي وجهت إليها بعدم الاقتراب من مقيمي الإصلاحية، وعلى الرغم من جرأتها إلا أنها لم تستطع أن تساعد مسلمة؛ حيث أن الأخيرة كانت فاقدة لوعيها، وحتى بعد أن جاءت ياسمين لم تستطيعا معًا تقديم أية مساعدة، وأثناء ذلك كان قد عاد أندرو فلمح شيرا على تلك الوضعية، فهرول نحوها وجذبها



من ذراعها، وأمرها أن تبتعد عمن هم أقل منهم في كل شيء، ونصحها أن تتبع قواعد مدرستهم، وألا تعرض نفسها للخطر لأناس لا يستحقون كل ذلك التعب، ولما اعترضت شيرا هددها أندرو بأنه سيذهب إلى سيده لإخباره بالأمر كي تتوقف شيرا عن إيذاء نفسها بالقرب منهم، فما كان من شيرا بعد ذلك التهديد إلا أن تتراجع عن موقفها، وأن تترك مسلمة لقدرها، وياسمين لعجزها عن فعل شيء، ومر أكثر من عشر دقائق أخريات حتى ظهرت في المشهد وجيدة، والتي كانت مصطحبة لوفيق، وما إن وجدت ياسمين إلى جوار مسلمة حتى نهرتها وأبعدتها عن مسلمة وأمرتها بالذهاب إلى عملها، وأمام مشهد مسلمة المغشي عليها ظلت وجيدة تركلها بقدمها وتصفها بالفتاة المدعية الكاذبة، ولقد أمرت وجيدة وفيق أن يأتيها بإناءٍ مليء بالماء، وقد صبته عليها كما لو أنها قطعة من الجماد تريد التنظيف، ولم تكن وجيدة تنتوي التوقف عن عملها ضد مسلمة لو أن مديرتها لم تستدعِها إلى مكتبها، فهرولت لترى ما الذي تريده؟ وما إن ذهبت حتى نزل رفيق على ركبتيه ليرى ما الذي في الفتاة، ولما وجد حرارتها على تلك الشاكلة ما استطاع أن يتركها كما هي أرضًا كما أمرته وجيدة، بل إنه حملها إلى الغرفة المظلمة ولقد بدَّل لها ملابسها وأعطاها دواء ليخفض درجة حرارتها، وما استطاع أن يأتي لها بطبيب الإصلاحية الذي يعرف جيدًا أنه لن يلبي له رغبة إلا حينما يرى مكاتبة مختومة من المديرين لتنفيذ الأمر، وتركها وفيق وذهب إلى المدرسة العسكرية كي لا تلاحظ وجيدة اختفاءه، وظل أربع ساعات حتى جاءته إخبارية أن وجيدة تستدعيه بمكتبها.

- لتأتيني بمسلمة، قالت وجيدة.

- لقد وضعتها بالغرفة المظلمة حتى لا تعيق الطريق هنا، إنها مغشي عليها، بثباتٍ أجاب العجوز وفيق.
- دون أن أعطيك أمرًا فعلت ذلك، أم أن أمرًا في نفسك تخفيه؟ قالت وجيدة.

ولقد شعر وفيق من خلال ذلك السؤال أن أحدًا قد أبلغها بشيءٍ أو أنها لاحظت شيئًا به لم يعجبها تجاه تصرفاته، وقد كان ظن وفيق في محله؛ فقد وشى به طبيب الإصلاحية الذي لمحه يرفق بمسلمة ويعطيها الدواء دون أن يأخذه منه، ولقد استنتج أنه ليس عنده أوامر بذلك الفعل.

ولم يستطع وفيق أن يجيب وجيدة على سؤالها، هو يدرك جيدًا ألا شيء في الإصلاحية يمكن أن يكون إلا وفقًا للقوانين والتعليمات، وكونه تعداها معناه أنه يتعدى على السلطة ذاتها، ومقابل صمت وفيق قست عليه وجيدة بالكلمات قائلة: «لا تهدم تاريخك بلحظة شفقة، عليك أن تتذكر تلك الكلمات جيدًا»، وخرج وفيق من بعد كلمات وجيدة وهو يُدرك جيدًا أنه سيتعرض للمراقبةِ الشديدة في الفترةِ القادمة، وعليه وفقًا للعقل أن يترك أمر مسلمة ولو لبعض الوقت كي لا يتعرض للخطر، وعليه وفقًا لقلبه أن يؤدي أمانته في الطفلة التي أرسلها الله له ليجد نفسه بعد أن تاهت فيه لسنواتٍ طويلة، الطفلة التي جعلته يحب دواخله من جديد، وأن يؤمن أنه ما دامت دواخله نقية فلا يهمه ما بخارجها من خراب، الطفلة التي جعلته يشعر أنه يعمل عملًا عظيمًا، ويربي إنسانًا على الحق والمواطنة ومعرفة تفكير عدوه كي تستطيع مواجهته بعقلانية.

«اعتبره صديقًا مزيفًا إن هزمك بتخليه عنك في مواقفك الصعبة»



مرت الأيام كئيبة على رضوانة وكذلك يوسف، ونوباتٍ من حزنٍ اجتاحت المنزل، وحتى نعمة ووالدة نائل وبكر الذي جاء رضوانة معتذرًا من فعلة والدته لم يستطيعوا إخراجها من بؤسها.

جلست رضوانة تُفكر في كل ذلك الذي مر بها طوال تلك السنوات الفائتة، وذلك الشيء الذي أجبرها على أن تبقى على عصمة أحدهم دون أن يكون بينهما ود ولا رحمة، ولطالما وضعت الحب سببًا لذلك، لكن ما ذلك الحب الذي يهين كرامة ويدمر الصحة النفسية لأحدهم؟ وما ذلك الحب الذي لا جدوى منه سوى البكاء والحسرة وأخيرًا الخيانة؟ نعم هي تعتبر أن مفيد قد خان بقاءها عليه بزواجه بأخرى دون علمها، والآن هي ترغب أن تكون صلبة، وأن تطلب بجديةٍ وبلا رجعة طلاقًا لتحفظ كرامتها، ولتشعر أنها عزيزة نفسها، لكن حتى تلك الرغبة لم يجعلها مفيد تظفر بها، لقد أرسل لها في مساء اليوم الثالث من زيارتها له أنها أصبحت على غير ذمته، بل الأوجع من ذلك أنه أرسل لها يهددها بأخذ يوسف منها جزاء إتيانها ببكر إليه، ولقد أدرك الطفل جيدًا الذي يحدث، وأعلن لرضوانة صراحة أنه لا يرغب في أمر كهذا، وأيام من بعد ذلك الحدث مرت.

إن أصعب ما قد يمر بالإنسان أن يشعر أن أحدهما قد أهان كرامته دون أن يستطيع ردًا.

المهم مرت الأيام وجاء بكر لرضوانة مرةً أخرى مصطحبًا سمر يدعوانها لحفلٍ صغير ليعلنا فيه زواجهما، فخجلت رضوانة أن ترفض مباشرة على الرغم من رفضها التام بداخلها أنها لن تحضر حفلًا به قدرية ومفيد، ولما وجد بكر منها ترددًا قطعه بإعلانه أن قدرية رفضت الحضور



بعد كل ذلك الذي ارتكبته؛ فابتسمت دون أن تعلق على موقف والدته، وغيرت مسار الحديث متساءلة:

- ماذا فعلت مع حسام صديقك الذي خسرته بسبب العمل بشركة والده؟ قالت رضوانة.
- لقد ذهبت إليه وانتظرته خارج الشركة، وشرحت له كل ذلك الذي عرفته، وأخبرته أن يذهب إلى مفيد ويتقصى الحقائق قبل أن يُكذِّب حديثي ويظلمني ثانية، وإنني صراحة لا أعرف ما الذي فعله بعد مغادرتي إياه، لكنه هاتفني معتذرًا عن كل ذلك الذي حدث، فقبلتُ اعتذاره، لكنني رفضت أن أقابله مرةً أخرى، شيءٌ ما بي انكسر تجاهه، لم أكن أتخيل يومًا أنه يظن بي السوء، وأن يغادرني دون أن يمد لي يده لنعرف حقيقة الأمور معًا، اعتبرته صديقًا مزيفًا حين قارنته بكارم الذي مد لي يده في أصعب مواقفي، واقتسم ماله معي ومعرفتنا لم تتجاوز السنتين.

وتنهد بكر بوجع الخذلان، ثم أكمل حديثه قائلًا: «سأكون بخير إن قبلتي دعوتي لحضور حفل زفافنا»، قالها وهو ينظر إلى سمر مبتسمًا، فوعدته رضوانة بالحضور.

لم يكن بكر يعرف أن حسام ذهب إلى مفيد يسأله عن أمر العمولة، مفيد الذي لم ينطق بكلمةٍ إلا حينما هدده حسام ببلاغ ضده، فصدمه برده قائلًا: ببلاغك لن تضرني وحدي، ستُصدم حين أخبِّرك أن والدك أول المشتركين في إيذاء بكر، وانصدم حسام وتركه بعد أن اشتد العراك بينهما، وذهب لوالده الذي أخبره بكل شيءٍ حين رأى منه انهيارًا

وتمسكًا لمعرفة حقيقة الأمور، ولكي يكسب ود ابنه مرة أخرى اقترح عليه أن يرد لبكر اعتباره برجوعه للعمل بالشركة مرة أخرى، لكن على من يقترح حسام هذا الاقتراح؟ أعلى بكر الذي يؤمن أن أهم ما يملكه بحياته كرامته، وأنه من المستحيل أن يقبل عرضًا كذلك؟ أعلى بكر الذي تيقن أنه خسر صداقته للأبد؟

«عظيم أن يمنحك الله شخصًا
يقيك النضال وحدك في ذلك العالم»





لم يكن كل شيءٍ على ما يرام، ولم يكن يحلم بكر بأكثر من أن تعود له والدته يوم زفافه ليغفر لها كل ما فعلته معه من أذى، ليس لأنها على صوابٍ وإنما لأنه يريد ذلك؛ فهي ضمن الأشخاص الذين نسامحهم لرغبتنا فقط في فعل ذلك، كان سيضع لها ألف عذرٍ كي يسامحها من أجل الحب العظيم الذي ما زال يكنه لها رغم كل ذلك الذي حدث، إنها الفطرة.

وجاء الليل وحضر الجميع؛ نعمة وكارم ووالدة نائل، إضافة إلى رضوانة التي كانت تساعد سمر في مهامها في ذلك اليوم، ولقد أشعرتها بوجود والدتها معها، وخرجت سمر ترتدي زيًا أبيض هادئًا جعلها كما الملائكة، ولم يكن الحفل به أي شيءٍ من الصخب، موسيقى هادئة وجو عائلي يوحي بالود والحب والدعاء للعروسين بحياةٍ أكثر من رائعة، ولقد كان بكر يحمد الله على سمر في كل لحظة، تلك الفتاة التي لم تعترض على كونه عتالًا رغم كونها طبيبة، المهم أن عمله شريفًا فالأمر ليس بيده، ولديها يقين أن كل شيء وهي إلى جواره سيكون أفضل، وكادت سمر أن تبكي سعادة من أن الله عز وجل استجاب لها بزوجٍ يقيها النضال في ذلك العالم وحدها، ووسط ذلك لم ينسَ الجميع مسلمة، فدعوا الله عز وجل أن يفك أسرها بأقرب ما يكون، ولما كانوا على تلك الهيئة انقطع التيار الكهربائي ثم عاد مباشرة، لكنه وبعد خمس دقائق انقطع ثانية مع سماعهم صوت انفجارٍ بالخارج؛ فانتفض قلب الجميع رعبًا، ما الذي يحدث خارجًا؟ هم لا يستطيعون فهمًا، وفجأة قرر كارم الخروج ليرى ما الأمر، لكن بكرًا رفض أن يتركه وحده واصطحبه، وكانت المفاجأة، أعمال عنفٍ بالخارج بين الدار المجاورة إليهم وقوات أمن الشيوعيين، ولما تقصوا عن الأسباب وراء ذلك عرفوا أنهم يتهمون سكان ذلك المنزل بأعمال عنفٍ ضد الدولة، لكنه شيء لا



يصدقه عقل واحد عاقل على هذه الأرض؛ فقد كان يسكن ذلك المنزل عجوز وامرأته لم يرزقهما الله عز وجل بالذرية، فمن أين لهما بأعمال العنف ضد الدولة؟ ولقد أمرت قوات الأمن العجوزين بالخروج من المنزل عقابًا لهم على أعمالهما؛ فاستسلما للأمر ولم يحركا ساكنًا، وماذا بيدهم فعله ضد هؤلاء الظالمين؟ لكن أمرًا غريبًا قد حدث، لقد ادَّعى قائد قوات أمن الشيوعيين أن العجوزين يرفضان الأوامر بإخلاء المنزل، ولقد أمر جنوده باستخدام القوة معهما؛ فأبرحوهما ضربًا، ولم يستطع حينها أصحاب المنازل المجاورة الصمت وسط ذلك القهر، فتدخلوا مع قوات الأمن لمنع الأذى عن العجوزين؛ فنالهم الأذى وأصبحت مجزرة بمعنى الكلمة، الكثير من دماء المسلمين، والكثير من الجرحى والشهداء، والكثير من اللا إنسانية وغياب القانون، ولما وجد كارم أن الأمر كذلك جذب بكرًا ودفعه إلى الداخل ليمنعه من محاولته للتدخل مع الأمن، وقال له وهو يصرخ به: «الأمر متعمد يا بكر، أنا أعرف ألاعيبهم جيدًا، إنهم من استدرجوا الناس للاشتباك معهم، ويبدو أن هدفهم هو إخلاء تلك المنطقة لتوسعاتٍ جديدة يرغبون بها، وعلينا الآن الفرار بالنساء من ذلك المنزل»، ولم يُكمل كارم كلمته حتى كسرت قوات أمن الشيوعيين الباب عليهم، فتصدى لهم كارم وبكر وصرخوا بالنساء أن يخرجوا من الباب الخلفي للدار، فهرول الجميع إلى الخارج في محاولةٍ للفرار من الظلم، ولقد حملت رضوانة يوسف على كتفها وجرت به إلى الخارج، يوسف الذي ظل يصرخ وهو محمول قائلًا: «أنا سأخبر الله بكل ذلك الأذى حين ألتقي به».

ولقد ساعدت والدة نائل نفسها في الهروب من ذلك الموقف، أما سمر فقد هرولت نحو نعمة وحركت كرسيها المتحرك نحو الباب؛ فاعترضها جندي من خلفها؛ فدفعت الكرسي بنعمة بقوةٍ إلى الخارج،



ورآها شابٌ بالخارج وهي تفعل ذلك؛ فالتقى الكرسي الذي يحمل نعمة وفر به بعيدًا، واشتبكت سمر مع الجندي وسمعت صوت بكرٍ وهو يشتمه ويصرخ كي يتركها، لكن دون جدوى؛ فقد كان هو وكارم مربوطين اليدين محتجزين من قِبل جنودٍ آخرين، ولم تقدر سمر على الجندي، الجندي الذي ربط يدها وعصَّب عينيها ووضعها بسيارة الأمن التي وجدت بها الكثير من الرجال والنساء من بينهم كارم وبكر الذين فعلت معهم قوات الأمن ما فعلوه بسمر، وصرخ الجميع من داخل السيارة المتكدسين بها فوق بعضهم البعض:ماذا أنتم فاعلون بنا؟ أخرجونا من هنا وكفاكم ظلمًا.

وبعد مرور ساعة كاملة وهم محبوسون بالسيارة اختنقت بعض الفتيات من بينهم فتاة التقت بربها فور شعورها بأنها لا تستطيع التنفس، وأصبحت السيارة مكانًا للموت قبل الفزع والرعب، وأخيرًا حل بهم حدث جديد، لقد تحركت السيارة وانتفض قلب الجميع حابسين أنفاسهم متسائلين أين هم ذاهبون بهم؟

أثناء ذلك أوصل الشاب نعمة إلى دارها وهمَّ بمغادرتها، لكنها طلبت منه أن يأتي لها بوالدة نائل ورضوانة ويوسف، وما كاد أن يوافق الشاب للذهاب والبحث عنهم حتى دخلوا ثلاثتهم غير مصدقين أنهم نجوا من الموت بتلك الأعجوبة، لكنهم كانوا رغم أنهم نجوا في قمة حزنهم حين سردت لهم نعمة أن سمر اعترضها الجندي الشيوعي، وحين مرت ساعتان ولم يظهر أحد لا سمر ولا كارم ولا بكر؛ بكوا عجزهم وعدم قدرتهم على إنقاذ أهليهم، وصرخوا من ذلك الظلم والدماء والقهر الذين يتعرضون له بداخل أواطنهم.



«ليخرج الله الأوطان من الظلمات إلى النور»

يوم جديد من البؤس على مسلمة، فلما رجعت وجيدة من المدرسة العسكرية دخلت إليها الغرفة المظلمة، ولم تُراعِ أي تعبٍ بها وصفعتها على وجهها وهي تقول:

ـ حينما أدخل عليكِ إظهار الاحترام بقيامكِ.

انتفضت مسلمة من مكانها، مسلمة التي لم تشعر بوجيدة إلا عندما لطمتها، ومن بعدها أدخلت وجيدة جنديين أمرتهما بتفتيش الغرفة، ومن قبلها تفتيش مسلمة وخلع كل ملابسها؛ فرجعت مسلمة إلى الخلف مرتعبة مما تأمر به وجيدة، فسحبتها وجيدة من يدها ودفعتها نحو الجنديين؛ فصرخت مسلمة وهي تقول: «للتقِ الله في ولتفتشيني أنتِ بنفسكِ، لا داعي لوجودهما»، فضحكت وجيدة بأعلى صوتها وهي تقول: «هل تدعين الشرف والشرف لا يمت لاسمكِ بصلة!»، ولم تنتظر ردًا من مسلمة وإنما أمرت الجنديين بسرعة إنهاء ما أمرتهما به، وانقضَّا على الفتاة وجرداها من ملابسها ولم يجدا بها شيئًا، ولمعت أعينهما اشتهاءً منهما لجسد الطفلة التي لم تبلغ بعد، ولقد فهمت وجيدة نظراتهما وما فيها من اشتهاء، وسمحت لهما بما في نفسيهما؛ فاقترب الاثنان من الفتاة ودفعاها أرضًا، وقربا جسديهما منها وهي تصرخ عجزًا منها عن إبعادهما عنها، وأخيرًا جاء وفيق الذي كان يُتمم عمله في الإصلاحية، لقد أتى على صراخ الطفلة؛ فهرول نحو الغرفة ولم يستطع إمساك لسانه من بشاعة ما رآه، وصرخ بوجيدة: «ما الذي يحدث؟ إنها طفلة!»، فقهقهت وجيدة وهي تقول: «ما يهمني هو إرضاء جنودي، ولا يهمني من تلك الرخيصة شيئًا»، ولم يستطع وفيق بعد كلمات وجيدة أن يقف مكتوف الأيدي؛ فانقض على الجنديين محاولًا إخراج مسلمة من



تحتهما، ولقد لكَمَ الأول بقوةٍ لكمةً أفقدته وعيه، ودفع الآخر بالحائط دفعةً على إثرها نزفت رأسه، وخلع سترته ليستر بها جسد الفتاة، فصرخت على إثر موقفه بوجههِ وجيدة وهي تقول:

ـ أنت لم تعد تكن ولاءً لنا، وهذا من شأنه محاكمتك.

ولم تكن محكمة، كانت أحكامًا ضد الإنسانية، فلو أن عدلًا يحكم في أمر رجلٍ دافع عن شرف فتاةٍ صغيرة مريضة مظلومة لا حول لها ولا قوة لمُنح وسام شرف، أما العدل فقد اختفى من الوطن، وأما الظلم فقد جعلوه عدلًا، وحُكم على وفيق بالتعذيب حتى الموت، لم يحكموا عليه بطلقةٍ في رأسه أو حتى الموت شنقًا أو بالسم؛ وإنما اختاروا له العذاب حتى يتمنى هو الموت، ولقد صلبوه ليلة الحكم عليه، ثم جلدوه عشرين جلدة أفقدوه وعيه على إثرهم، ولما أفاق وجدهم حوله يسبونه ويسبون فعلته في الدفاع عما يصفونها بكائن حي درجة ثانية، فدعى الله في سره ألا يجعله يرى منهم المزيد، وأن يمد يد رحمته إليه بالموت، ولقد استجاب الله عز وجل لوفيق وفقد حياته بعد ليلةٍ واحدة من ذلك العذاب البدني والنفسي، وآخر ما دعى به ربه أن يخرج أوطانه من الظلم إلى العدل، ومن كل تلك القسوة إلى الأمان.

ولقد علمت مسلمة بكل ذلك الذي حدث لوفيق، واستخدمت معها وجيدة أسلوب التدمير النفسي؛ فجعلتها تشعر بالذنب حيال ما حدث، وأشعرتها أنها السبب في كل ما حدث له وأدخلتها وجيدة في حالةٍ من الكآبة التي لا تقدر عليها فتاة في مثل سنها، ولم تعد تنطق مسلمة بكلمةٍ حتى إلى ياسمين صديقتها ولو بالقليل من الكلام، وعاشت أيامها من بعد وفيق ذليلة لا رفيق لها، مذنبة تكره وجودها وكونها سببًا

في عذاب رجلٍ مد يد مساعدته إليها، وأصبحت تعمل في صمتٍ كل ما يأمرونها به.

فرحت وجيدة بعملها العظيم من وجهة نظرها، وأصبحت تؤمن أنها جعلت مسلمة وهي حية ترزق مسلوبة الإرادة في أي اختيارٍ لها، وأية مقاومة، وأي ردٍ سلبي ضدهم في المستقبل، فأية طفلة مشوهة نفسيًا لا خوف منها، ولقد أعطوا وجيدة وسام شرفٍ بعد إنجازها مع مسلمة، أي شرفٍ أعطونه لها؟! لا أحد إنساني يتخيل أن يكون الشرف هو تشويه دواخل الآخرين.



«كل ذلك الذي كنت أتمناه، الآن أصبح باهتًا لا أرغبه»



«شيءٌ ما بي انكسر ولم يعد كما السابق ولا أستطيع أن أعيده كما كان، لم يعد لدي رغبة في أي شيء، وكل ذلك الذي كنت أتمناه سابقًا أصبح باهتًا بالنسبةِ لي، وإنني لا أريد أن أظلمك معي يا باهر، إنني لن أستطيع الموافقة على الزواج منك»، تلك هي كلمات بسنت ابنة برهان لباهر ابن عمها الذي انفصل عن زوجته مؤخرًا بناءً على رغبتها الملحة، والذي ترك لها البيت لتعيش فيه مع ابنه منها، وكان بعد انفصاله بثلاثة أشهر لمَّح لبسنت أنه يريد القرب منها، ولم يجد منها ما يصده عن تفكيره، واليوم أعلن لها صراحة أنه يحبها ويريد الزواج منها؛ فردت عليه بالرد السابق الذي لم يكن يتوقعه منها مطلقًا، والذي صدمه درجة أنه خبط يده على المنضدة الزجاجية التي أمامه فانجرحت يده جرحًا عميقًا، حاولت بسنت مساعدته لكنه رفض، فدخلت بسنت تستنجد بأحلام لتساعده، ولم تترد أحلام في الخروج إلى باهر، فصدمها منظر يده، وهرولت لتأتي بمطهر، وأمسكت بيده تطهرها، ثم لفتها بقطعة من شاش، وقبيل انتهائها بدقيقةٍ دخل عليهما برهان وهما على تلك الحالة، فظن بها السوء وزين له شيطانه أنها تمسك بيد باهر، ولم يتحرَّ الدقة، ولم يستمع إلى أحد، وأمسك أحلام من شعرها وجرها على الأرض وظل يضربها ويركلها في بطنها بقدمه بشدةٍ وهو يصفها بالساقطة، ولم يستطع باهر توضيح الموقف لعمه، وخرجت بسنت على صوت استغاثة أحلام فوجدت الدماء تحاوطها؛ فصرخت ببرهان وهي تقول له:

- أنت بحياتك لم تستطع أن تعقل الأمور كما هي في حقيقتها، لم تكن إنسانًا يومًا في عملك الذي لا شأن لنا به، أما ألا تكون إنسانًا في زوجتك فهذا ما لا يرضاه ربًا ولا عبدًا.



لم يلتفت برهان لأيةِ كلمة من كلمات بسنت، ولم يعطها اهتمامًا إلى أن صرخت بوجهه وهي تقول: «يلزمها طبيبًا، يبدو أنها كانت تحمل في رحمها طفلًا»، لم يتحرك برهان ليأتي بطبيب وإنما نزل أرضًا إلى أحلام، وأمسك بذراعها وهو يصفها بقاتلة ابنه، ووسط ذلك لم يستطع باهر صمتًا وتحرك مهاتفًا طبيبًا ترجاه ألا يتأخر، ولما وصل الطبيب أخبرهم بسقوط الجنين بفعل الضرب؛ فانهار برهان كما لم يحدث له من قبل، وتهجم على أحلام مرة أخرى يتهمها أنها السبب في قتل ابنه؛ فلو أخبرته بأمر حملها من البداية ما مد يده عليها، ولقد تيقن برهان أن أحلام أخفت عليه الأمر حينما أخبره الطبيب أن الحمل منذ ما يقرب من أربعة أشهر، وأن أحلام قد زارته مرة في عيادته، وأخبرها ألا تبذل مجهودًا كي لا تعرض الجنين للخطر.

جر برهان أحلام من شعرها ثانية وأخرجها وهي بقمة وهنها من قصره، وخرجت من خلفها بسنت إضافة إلى باهر وذهبا بها إلى مستشفى فعلت لها كل ما يلزم، واحتجزوها يومين ثم كتبوا لها تصريحًا بالخروج، لم يتركها باهر وبسنت حتى أوصلاها إلى بيت رضوانة التي صدمها منظر الكدمات الواضحة على وجه وجسد ابنتها، وسألت بسنت وباهر ما الذي حدث لابنتها فلم يستطيعا إجابتها، وتركاها وذهبا دون كلمة، ولقد أفهمت أحلام رضوانة كل ما حدث بعدما غادراها، وأقسمت رضوانة ألا تعود ابنتها إلى ذلك الأذى الذي من الممكن أن ينهي حياتها في أيةِ لحظة، ولقد كتبت رسالة إلى مفيد مفادها أن حياة أحلام ابنته في خطر ما دامت على ذمة رجل مثل برهان، وراح مفيد لبرهان يستفسر عن الحدث، ولم يغضب مفيد لما حدث لابنته بقدر خوفه على مصالحه مع برهان، ولقد قال إلى برهان:

- ليظل عملنا معًا كما هو، وصداقتنا على ما هي عليه وسأعيدها إليك.

- لا أريدها، سأطلقها وليظل عملنا كما هو، أجاب برهان.

ثم صمت برهان قليلًا وأكمل حديثه قائلًا:

- وسأعطيك حقوقها كاملة، وليظل ما بيننا على ما هو عليه.

ابتسم مفيد موافقًا غير عابئٍ بشيءٍ سوى المال واستمرارية العمل مع برهان.

ولقد أوصل مفيد إلى أحلام ما يثبت انفصالها عن برهان، ولقد ادعى أمام رضوانة أن برهان لم يوافق على الانفصال عن أحلام إلا حينما تنازل له عن كافة حقوقها الشرعية، وادعى أنه وافق من أجل سلامة ابنته.

وحمدت رضوانة ربها على وجود ابنتها إلى جوارها، لا يهمها في الأمر مالًا ولا دنيا، المهم أن الله أعاد لها ابنتها سالمة.

بعد عدة أيام جاءت بسنت إلى أحلام لتطمئن على صحتها، فوجدتها على غير ما يرام، فبكت لشعورها أنها السبب في كل ذلك الذي حدث لها، ورغم سوء نفسية أحلام إلا أن بسنت كانت تحتاج لأن تتحدث إلى أحد، فقالت دون مقدماتٍ:

- لقد رفضت الزواج من باهر رغم أنني أحبه يا أحلام، أحبه لدرجة أنني لم أتزوج حتى بعدما تزوج هو.

ثم بكت وهي تُقسم بحبه، وحاولت أحلام تهدأتها وهي تسألها عن سبب الرفض رغم الحب؛ فقالت بسنت وهي تأخذ نفسها بعمقٍ:



- وكيف لي أن أتزوجه ومن بعدها يكتشف حقيقة أبي برهان؟
- أي حقيقة؟!

قالت أحلام ولم تستطع بسنت أن تنطق وغادرتها على وعدٍ بزيارةٍ لها مرة أخرى.

«آه آه آه ونحن غرباء في أوطاننا!»





ساعتان من اللا رحمة ومن القهر وعدم معرفتهم إلى أين هم ذاهبون، ساعتان من الإحساس بالعجز إلى أن توقفت السيارة التي تحمل بكر وكارم وسمر، ولقد سمعوا أحدهم يفتح باب السيارة الحديدي، إضافة إلى شخص يأمر الآخرين بإلقاء كل من في السيارة إلى خارجها دون أن يفك رباطهم، وفعل الجنود كما أمروا، ودخل بعضهم إلى السيارة يلقون بمن فيها أرضًا كأنهم يتخلصون من أكوام من الأوساخ، وبعدما انتهى الجنود من مهمتهم غادروا المكان بالسيارة، ولم يعد بالمكان سوى الظلام والأغطية التي عصبوا بها أعينهم، وبدأت الأصوات تتعالى من بينهم صوت بكر وهو يصرخ: «سمر، سمر»، لكنه لم يتلقَ إجابة منها؛ وإنما سمع صوت كارم صديقه وهو يقول: «لا تقلق يا بكر سنجدها». خمس عشرة دقيقة وهم في ذلك الفزع إلى أن اقترح كارم أن يقترب كل اثنين من بعضهما ليحاولان فك رباط أيدهما أو أعينهما بأسنانهما، ولقد نجح كارم في فك رباط عينيّ بكر بأسنانه، وهذا ساعد الأخير على فك رباط يديّ كارم بأسنانه، ولقد ساعدا الآخرين في فك رباطهم إلى أن وجدا سمر ملقاة بجوار صخرة كبيرة مغشي عليها، ولما أفاقت لم تستطع تحريك ذراعها الأيمن، ومن الواضح أنه كُسر إثر دفعة الجندي لها بلا رحمة؛ لتسقط عند تلك الصخرة.

ولما ركز الجميع فيما حولهم وجدوا أنهم بصحراءٍ لا شيءٍ فيها، لا ماء ولا وسيلة مواصلات ولا قشة أمل يستطيعون بها أن يهزموا ذلك الرعب من التيه قبل الموت.

- أذلاء، مقهورون، وأغبياء، نأكل بعضنا البعض ولا نرى عدونا الحقيقي.



قال بكر وهو يصرخ متذكرًا كيف أنه عاش سنواته لا يفكر سوى بحياته الخاصة، عمله، أصدقائه، والدته ونسى أن عليه الدفاع عن وطنه أولًا، ثم ليصلح كل شيءٍ من بعد ذلك من تلقاء نفسه، تذكر كارم وهو يردد على مسامعه مدى كرهه للسلبية وللعجز عن الدفاع عن وطنه كونه وحده لا يستطيع تحريك ساكنًا، وبكت سمر عند سماعها صراخ بكر؛ مؤمنة على كلامه ومتذكرة خيبتها في أنها ما كانت تعرف أن مهمتها الكبرى هي الدفاع عن الأرض، الوطن، الدين الذي يُهان على يد الشيوعيين دون ردة فعل، ولقد بكت لأنها أيقنت أن الخيبة الكبرى هو سعي كل فردٍ في الوطن لأجل مصالحه الخاصة، ولقد استغل أعدائهم ذلك جيدًا في تفريقهم بأكثر مما هم عليه حتى وصلوا إلى ذلك الذل وتلك المهانة التي هم عليها.

- آه آه آه ونحن غرباء في أوطاننا.
- آه آه آه ونحن أذلاء رغم حقنا.
- آه آه آه ونحن متفرقون يضحك علينا العالم.
- آه آه آه ونحن لا نستطيع رفع أعينا في أولادنا حينما يسألوننا ماذا فعلتم لتنقذوا الوطن من الذل والعار؟

تلك هي الآهات التي خرجت من قلب الجميع في لحظةٍ، فً

- ماذا علينا أن نفعل الآن؟ قالت سمر وهي تنتفض وجعًا من كل ذلك الذي مر بها.

احتضنها بكر وهو يقول:

- سيُحدث الله لنا أمرا.
- علينا أن نفكر ليُحدث الله لنا أمرا، قال كارم ولقد صمت ثلاثتهم بعد كلمة كارم إضافة إلى الجمع الذي معهم، وفكروا

مليًا إلى أن انقسموا فريقين، أحدهم اقترح أن يظلوا لشروق الشمس حتى يستطيعون الرؤية، وآخرون اقترحوا أن يمشوا على إضاءة الهواتف حتى لا يخونهم الوقت وهم لا يمتلكون ماءً ولا زادً، وتذكروا أن هواتفهم قد أخذها الجنود ودكوها كما البيوت التي استباحوها.

وأخيرًا اختاروا التروي والصبر؛ حيث أنهم لا يمتلكون طريقًا محددًا يسيرون به حتى يجاذفون ويسيرون بالصحراء دون قبلة.

وباتوا ليلتهم يتضرعون لربهم لينجيهم من ذلك الكرب، وجاء الصباح وكل ينتظر إشارة أملٍ واحدة ليهتدوا بها في طريقهم، ولقد رأى أحدهم من بعيد مبنى صغيرًا يبدو أنه كوخ؛ فاستبشر خيرًا واقترح على رفاقه أن يتوجهوا نحوه، ولقد ساروا حتى وصلوا إليه ودخلوه، ولم يجدوا به أحدًا، لكن بكر وجد زجاجة ماء فتيقن ومن معه أن هناك أحدًا ممن يترددون على ذلك الكوخ، وقرر الجميع أن ينتظروا ما دام معهم زجاجة ماء تقيهم الموت عطشًا ولو لفترة، وانتظروا حتى الرابعة عصرًا وهنا اشتد الألم بذراع سمر التي لم تتمالك نفسها من البكاء تلك المرة؛ فانهار بكر لعجزه عن فعل شيء، وخبط يده على بعض الأخشاب في الكوخ، فلفت نظره أوراق عديدة ملفوفة وموضوعة فوق بعضها البعض، ولما فتح واحدة وجدها خريطة للسير من المكان الذي هم فيه إلى الطريق الرئيسي، وتهلل الجميع أملًا حين أخبرهم بكر بما وجده، وكادوا أن يذهبوا إلّا أن سمر صممت أن تفتح بقية الملفوفات، فوجدت أغلبهم نفس الخريطة، والبعض القليل الآخر به خطاب لمن يجد تلك المخطوطات مكتوب بها: «اسمي و. ق رجل عجوز خانته أفكاره واندمج مع أعداء الوطن بأعمالهم، ولقد علمت أنهم يأتون إلى ذلك المكان كل فترة ليلقوا بأبناء الوطن الأصليين ليموتوا بها، ولقد



فكرت بعمل تلك المخطوطات وبناء ذلك الكوخ ليعين كل من يقع بذلك الكرب على الوصول والعودة للنضال ضد كل هؤلاء الذين لا يعرفون الله ولا الإنسانية».

أنهى العجوز خطابه بوصيةٍ منه لكل من يعثر على المخطوطات؛ وهو أن يعود من حينٍ لآخر ليضع مخطوطًا ليعين غيره على النجاة، وكانت وصيته تلك خوفًا من أن يتوفى ومن بعده لا يستطيع أحد النجاة.

وبعد قراءة تلك الوصية عرف الجميع سر العدد الهائل من المخطوطات، إنها صنع الوصية التي وصى بها «و.ق»، وتوجه الجميع إلى طريقهم تاركين زجاجة الماء ليستدل بها غيرهم على أن المكان كان به أحد من قبلهم، واشتد الألم بذراع سمر أثناء سيرهم فحملها بكر كطفلته، وظل يُهدأها حتى وصلوا إلى الطريق الرئيسي، وتوقفت لهم العديد من السيارات التي في قلوب أصحابها رحمة، وحملوا الجميع حيث مكانهم، ولقد توجه بكر وكارم بسمر إلى المستشفى التي جبرت ذراعها، ثم من بعدها اقترح كارم عليهما الذهاب معه إلى الغرفة التي يسكن بها، إلا أنهما اقترحا عليه أن يأتي هو معهما عند نعمة ليطمئنوها هي ومن كانوا معهم ليلة الحادث، ووافق كارم ولم تصدق نعمة أنهم بخير بعد كل ذلك الذي سردوه لها من الأحداث التي مروا بها، وبكت والدة نائل التي كانت تسمع كل ذلك الذي حكاه الثلاثة رفاق؛ متذكرة نائل الذي كان يردد على مسمعيها: «أريد أن أموت وأنا أدافع عن الحق، وألا أطأطئ رأسي لمن لا حق لهم في وطني، وأريد أن يعلم الجميع أن كرامة ذلك الوطن فوق كل ذلك القهر والإهانة والموت والدماء التي تحدث لنا».



ودخلت عليهم رضوانة التي اصطحبت أحلام لتُخرجها قليلًا من ذلك الذي مر بها إضافة إلى يوسف الذي لا ينسى مسلمة إلى وقته هذا.

أحلام التي ما إن سمعت الأحداث التي مرت بالثلاثة رفاق حتى آمنت أنها كانت حمقاء حين فكرت في الانتحار بسبب حدثٍ تافه حدث لها بحياتها، فليمر ذلك الحدث التافه مرور الكرام ولتعِش من أجل الدين والوطن، وليكن لها من النضال والكرامة نصيب قبل أن تموت خائبة لا أثر لها.

وأقسمت رضوانة بعد سماعها للأحداث أن تُربي يوسف على الدين والحرية والحق والكرامة، رضوانة التي أقسمت ألا تضع حياتها في انتظار رجلٍ لا يعرف الله، والتي آمنت أخيرًا أن الحب طاقة أكبر من اختذالها لشخصٍ واحد هي لا تهمه، الحب أن تعطيه لأولادها ووطنها ودينها لينصرهم الله بفضله وكرمه.

وأخيرًا سمع كارم من الجميع ما كان يتمنى سماعه منذ أن عاد إلى وطنه، سمع كلمات عن الحرية، عن الدفاع، عن الدين، عن الإيمان بالنضال، عن الموت الأكرم لهم من العيش بذُلٍ لمغتصبي الوطن.

ووضع الجميع أيديهم فوق أيدي بعضهم البعض، وأقسموا على الكرامة حتى يحدث الله لهم أمرًا عظيمًا يقر به قلوبهم بهجة وانتصارًا.

وبعد كل ذلك الحديث عن الوطن دخل بكر مع زوجته سمر إلى الغرفة التي استأجرتها سمر من قِبل نعمة، مقررين العيش بها عوضًا عن منزلهما اللذين أقسما أن يعيداه وغيره من يد مغتصبيه، واحترم بكر مرض زوجته ولم يقترب منها، وقدرت هي ما فعله لأجلها.

«لتمد يد رحمتك لغيرك حتى يمد الله لك يد رحمته»





«عليك حين تفكر في تحرير وطنك أن تحرر نفسك أولًا من الكراهية والشماتة وحب الانتقام، أن تمد يد رحمتك إلى من يحتاجك ليمد الله لكم جميعًا يده لينصركم في نضالكم ضد أعداء الوطن»، تلك هي الكلمات التي قالتها والدة نائل لبكر حين جاءها ليُفصح لها عما بداخله من حماسةٍ للخلاص من الذل والمهانة، ونصحته أن يفكر في كلماتها جيدًا قبل أن يُلقي بها في البحر، وأن يدقق النظر في مقصدها، والحقيقة أن بكرًا من أول لحظة كان يعرف جيدًا ما الذي تقصده والدة نائل بكلامها، إنها ترغب أن يُصلح ما بينه وبين والدته، إضافة إلى مد يد مساعدته لسهيلة؛ ففي النهاية هي مريضة، وكل ما فعلته يُغفر لها لمرضها النفسي، ولم يتأخر بكر في الذهاب إلى قدرية التي رفضت مد يد الصلح لابنها، والتي أنهت مع أختها أمر لعبة المقاضاة التي كانوا يهددون بها بكر، ولقد فكر من بعد رفض أمه له في أمر مساعدة سهيلة أن يذهب لها، لكن حين فكر جيدًا آمن أن سهيلة لن تتقبله بتلك السهولة، ولن تمد له يدها حتى لو كان في يده إنقاذها من كل ذلك الذي تعانيه، ولقد اقترحت والدة نائل على بكر أن يكون الدكتور ياسين حلقة الوصل بينه وبين سهيلة بطريقةٍ غير مباشرة، الدكتور الذي لم يتأخر حين ذهب له يوسف ابن رضوانة يطلب منه الذهاب إلى والدة نائل بناءً على طلبها، وجلس الدكتور ياسين وأول ما فعله هو اعتذاره لبكر على طلبه ليد سمر، وأقسم له أنه لم يكن يعلم أن سمر زوجته، وتقبل بكر الاعتذار ثم طلب منه أن يشرح له حالة سهيلة تفصيلًا ففعل ياسين، وطلبت منه والدة نائل أن يساعده في دس الخطابات التي سيرسلانها معه إلى سهيلة، وطالبهم ياسين بمعرفة ما تتضمنه الرسائل قبل أن يوافق على فعل ما يرغبان به،

ووافق بكر ووالدة نائل على طلب الدكتور موضحين له أنهما لا يريدان سوى المساعدة في إخراج سهيلة من أزمتها، ولقد كتبت والدة نائل إلى سهيلة في أول رسائلها ما يلي: «أنا ضمن هؤلاء الذين يحبونك دون الطمع في شيءٍ، فلا مالك يهمني ولا سلطانك يغريني، ما يهمني حقًّا أن تكوني بخير، ولتكوني بخير سأمنحك تجربتي حتى لو لم تطلبيها، اقتربي من أعظم شيءٍ في الوجود وامنحيه حبكِ، العظيم الله عليكِ أن تحبينه أكثر بكثير مما أنتِ عليه الآن؛ ليمنح روحك السلام وقلبك السكينة ونفسك الطمأنينة، كوني له قريبة ليمد لكِ يده ويخرجكِ من كل ذلك البؤس الذي تشعرين به».

ووافق ياسين على توصيل كل ما من شأنه إخراج سهيلة من حالتها النفسية، من بينها خطابات المحبة التي سيرسلها بكر ووالدة نائل، إضافة إلى نعمة ويوسف ورضوانة وأحلام، حتى سمر التي فرحت بالفكرة وشجعت بكر زوجها على الوقوف إلى جانب سهيلة، وأن ينسى كل ما مر ولا يبخل بإخراجها من أزمتها، واقترح ياسين أن يأخذ من كل واحد فيهم خطابًا ليضع واحدًا منهم في كل جلسة مع سهيلة، وليرى حالتها وتطورها.

وبالفعل في الجلسة الأولى ألقى ياسين برسالة والدة نائل على فراش سهيلة بعد أن انتهى من الجلسة معها، ولم تكن سهيلة في حالةٍ تستطيع بها إدراك كل ما أُرسل لها بالخطاب التي عثرت عليه بعد مغادرة ياسين لها لدرجة أنها أخذت الخطاب واستقلت سيارتها وذهبت إلى عيادة ياسين، ولم تنتظر أحدًا ليُدخلها وإنما اقتحمت عليه غرفة الكشف وصرخت بوجهه وقالت له:

- من قال لك أنني لا أحب الله ولا أعرفه؟ وما تلك الطريقة التي تعالمنى بها؟ أنا لست بمجنونة، المجنون لا يبحث عن الحب، أنا لم أُجرم حين رغبت في منح إنسان كل الحب الذي لا يتخيله، لست مريضة لكوني أرغب في أن يمنحني أحدهم حبًا عظيمًا، وليس معنى بحثي عن الحب البشري أنني لا أحب الله.

ثم انهارت باكية وهي تقول:

- لكن الله لم يمنحني شخصًا واحدًا يرى دواخلي كما هي ويراني كما أنا عليه وليس ما يظهر عليّ.

ربت ياسين على كتف سهيلة شاعرًا بكل كلمةٍ قالتها له، مدركًا معنى إنسان لا يستطيع أن يجد ضالته في الحب.

- أقسم لكِ يا سهيلة أنني ما كتبت ذلك الخطاب، ورغم ذلك أنا لا أجد به إلا محبة كبيرة من ذلك الذي كتبه لكِ، أنا نفسي يا سهيلة أتعب جدًّا حين أبتعد عن الله، قال ياسين.

صمتت سهيلة وغادرته دون كلمة، وعادت إلى بيتها تُفكر بهدوءٍ في كل كلمةٍ في الرسالة، وسألت نفسها متى آخر مرة أدت صلاتها بها؟ ونكست رأسها حين كانت الإجابة منذ سنة كاملة، ثم عادت لتسأل نفسها متى آخر مرة دعت الله بها؟ ووجدت نفسها لا تسأل الله شيئًا ولا حتى أن يُهدي قلبها وأن يبعد عنها كربها، وتيقنت أن صاحب الرسالة ما دام ذكَّرها بالله فهو يحبها بصدق، وهاتفت الدكتور ياسين تستحلفه أن يُخبرها بصاحب الرسالة؛ فوعدها أن يخبرها به على شرط أن تأخذ بالنصيحة التي بالخطاب قبلها، ووافقت سهيلة وصلَّت لأول مرةٍ منذ سنة،



وشعرت أن روحها تحيا من جديد، وأن دواخلها تنتعش بذلك البكاء، والذي فاض منها في سجودها وقلبها مطمئن بذكر الله، وظلت سهيلة على ذلك التضرع لله مدة ثلاثين يومًا رفضت فيهم مقابلة أحدهم حتى الدكتور ياسين، معتكفة لله تدعوه أن يمد لها يده بالنجاة من كابوسيتها وأنانيتها وحب امتلاكها لكل شيءٍ حتى لو لم يكن من حقها، بكت له كل ذلك الأذى الذي سببه لها شيطانها، وأقسمت على الله بجميل صنعه أن يغفر لها كل ما تسببت فيه من أذى لغيرها، وأخيرًا خرجت سهيلة من غرفتها التي اتخذتها مسجدًا خلال الثلاثين يومًا المنقضية، وتوجهت إلى عيادة الدكتور ياسين ليس كآخر مرة ذهبت له فيها، لقد كانت تلك المرة لا تحتاج علاجًا نفسيًا، لكنها ذهبت إليه تشكره على جميل عمله معها وعلى اعترافها بذنبها، طالبة منه أن يذهب معها إلى بكر وسمر لتُقدم لهما الاعتذار لعلهما يقبلانه منها، وابتسم ياسين لما رآه على سهيلة، لقد جمَّل الله روحها ووجهها ودواخلها النفسية.

- ما الذي يدهشك؟ سألت سهيلة.
- جميل صنع الله فيكِ، كانت محققة والدة نائل، قال ياسين.
- من والدة نائل؟ بشغفٍ قالت سهيلة.
- سأروي لكِ كل شيء، لكن قبلها لديَّ بعض الرسائل أمانة عندي لكِ وعليكِ قراءتها أولًا، وفتحت سهيلة الرسالة الأولى بشغفٍ وكُتب فيها: «أنا مدركة أن الله عز وجل لن يخذلنا فيكِ وسيعزنا قريبًا بكِ، والدتكِ الثانية رضوانة».



وفتحت الرسالة الثانية وقد كتب فيها: «سيُحدث الله لكِ ولمسلمة ابنتي خيرًا قريبًا، أنا أثق في العظيم أنه سيكون بجواركما، محبتي لكِ نعمة».

وابتسمت سهيلة ثم فتحت الرسالة الثالثة وهي تنظر إلى ياسين ثم قرأت: «نتمنى إخوتك ومحبتك، ونقسم لك أن قلبنا مفتوح لكِ ونتمنى قبولك، أختيك سمر وأحلام».

- أعدك أن أكون لكِ سندًا وأخًا لا يبتعد عنكِ مهما حدث، أخوك بكر.

وكُتبت الرسالة الخامسة بخطٍ طفولي مكتوب بها: «الدين والوطن والحب يريدونكِ معنا، أنا يوسف وتعلمت تلك الكلمات من أمي رضوانة».

وضحكت لأول مرة سهيلة من قلبها أمام ياسين الذي أبهرته طفولة ضحكة سهيلة، وأدمن النظر إلى وجهها الذي نوره الله بنوره، وتلك المحبة التي أتت لها من حيث لا تحتسب.

- أخبرني من هي والدة نائل صاحبة الرسالة الأولى؟ قالت سهيلة، وسرد لها ياسين كل ما يعرفه عن تلك السيدة وعن ابنها نائل، وأخيرًا عن مرضها، ودعيا الله معًا أن يزيل كربها وكرب كل مسلم، وذهبا معًا إلى بيت نعمة ليجدا نعمة ووالدة نائل إضافة إلى بكر وسمر، ولقد استدعوا رضوانة وأحلام إضافة إلى يوسف هاتفيًا، ودخل كارم عليهم وهو يقول: «أنتم تجتمعون دوني، لكن الله دومًا يرسلني في الوقت المناسب»، فضحك الجميع وتهللوا وباركوا لسهيلة عودتها إلى نفسها المطمئنة،



سهيلة النقية بفطرتها لكن سوء تربيتها هي من أوصلتها لتلك الحالة، سهيلة التي جذبت ياسين بعفويتها بحديثها عن الحب الذي لا فراق فيه، الذي تمنى أن يلتقي بامرأة واحدة تؤمن بما يؤمن به هو، وتمنى ياسين أن يبوح لسهيلة بإعجابه بها، لكنه فضل أن يصمت حتى تتعافى سهيلة كليًا؛ لتستطيع أن تفكر جيدًا حين يعرض عليها أمر الزواج منه.

وفي تلك الجلسة لم تخجل سهيلة من تقديم الاعتذار الصريح لبكر وسمر، وأعلنت لهما صراحة أن بكرًا بالنسبة لها ما هو إلا أخ لا أكثر ولا أقل، وأن ما بها كان من قبيل المرض لا الحب، وأقسم الجميع لها أنهم مصدقون حديثها، وعلى الرغم من سعادتهم بما قالته إلا أن الأكثر سعادة من حديثها كان ياسين المحب جدًّا لإعلانها عن حبها لبكر بالمفهوم الأخوي لا أكثر.

هو الله المحبة الذي ييسر للإنسان كل شيءٍ إذا ما أراد، وإذا مد الإنسان يده لنفسه أولًا.



«لكن الله العظيم حين يقول للشيء كن فيكون».



يؤلمها أن الخطابات التي كانت تأتيها لتطمئنها على مسلمة انقطعت، واستشعرت القلق عليها، وجاءها شيطانها يوهما أن ابنتها حدث لها الشر لذلك انقطع المرسل عن الإرسال، لم تكن تتخيل أن الراسل هو الذي فارق الحياة، وأن وفيق أنهى حياته وهو يشعر بالفخر لدفاعه عما يؤمن به في مسلمة، ويشعر بالوهن لكونه لم يمت على الضلال وفي غيابات الرعب من الظلم والخوف من قول كلمة الحق؛ لأنها تصبح مرًا عليه وعلى أولاده، لكنه مات وهو يشعر أن الله مد له يده كي لا يموت وهو يشعر بالدونية، بكت نعمة لياٍل كثيرة من ذلك القلق الذي لم يعد يفارقها على ابنتها، إلى أن جاء صباح يوم الجمعة وذهب إليها كارم يبشرها أنهم ولأول مرة سيفتحون باب الزيارة لأهالي أطفال الإصلاحية، وعليها أن تقدم طلب زيارة خلال الثلاثة أيام المقبلة، وسارعت نعمة في تقديم الطلب وللأسف تم رفضه، لقد رفضت السلطات طلبها كما عدة طلبات أخرى، ولم تنهار نعمة وإنما احتسبت صبرها عند ربها؛ راضية بذلك الذي كتبه الله عليها، وبقيت نعمة على ذلك الحال ستة أشهر؛ كلما قدمت طلبًا رفضته السلطات، ولم تعد تستطيع تفكيرًا ولا فعلًا إلى أن جاءها بشيرٌ أرسله لها الله في منامها، فرسول الله الذي بشرها بمسلمة وهي في رحمها أتاها يبشرها أن رفض طلب الزيارة ما هو إلا خير كثير؛ فاطمئن قلبها رغم عدم فهمها، ولم تعد تفكر إلا بالخير القادم إلى أن تحققت رؤيتها، فبعد ليلتين ذاعت السلطات بيانًا بأسماء المفرج عنهم من الإصلاحية، ولم تكن تتخيل نعمة أن اسم مسلمة سيذاع ضمن تلك الأسماء؛ فمسلمة لم يمر عليها الخمس سنوات، ويبدو أن هناك منظمات حقوقية كانت تراقب الوضع في الإصلاحيات، ولقد قرروا إخراج مسلمة خوفًا من أن تأخذ عليهم



تلك المنظمات ملاحظات أنهم يسيئون إلى الأطفال بتدمير نفسياتهم وهم الذين يكذبون على العالم كله بأنهم لا يرتكبون جرائم إنسانية من هذا القبيل، وإنهم لم يجدوا خطورة من إخراج مسلمة المصنفة لديهم نفسيًا بأنها أصبحت ضعيفة لا رأي لها ولا خطورة منها حين تكبر، ولعل تلك المنظمات كانت القشة التي أرسلها الله لتنفيذ أمره وإخراج مسلمة من كربها، وربما لم يدرجوا اسمها في كشوف المفرج عنهم لولا إرادة الله، لكنه الله حين يقول للشيء كن فيكون، وكان بكاء نعمة تلك المرة فرحًا عظيمًا، وجاءها مهنيئن فرحين بما أتاها الله من فضله، وقال لها بكر أنه سيذهب معها لإحضار مسلمة، لكن كارم استوقفه قائلًا: «القرارات التي علمت بها أنهم سيأتون بالمفرج عنهم لباب منازلهم»، وصمت الجميع يتكهنون بسر ذلك القرار الغريب، وقطع يوسف ابن ارضوانة الصمت متفائلًا بقوله: «ستعود مسلمة وسيكون الوطن لنا».

كانت كلماته ترديدًا منه لكلمات رضوانة التي أصبحت تعلمه شرف الدفاع عن كرامته وحريته ودينه ووطنه.

ثلاثة أيام على القرار وما زالت مسلمة لم تأتِ ولم يسمعوا أن أحدًا من المفرج عنهم وصل لأهله، وأخيرًا وبعد طول انتظار وجدوا الأمن يحاوط منزل نعمة، ولما استفسروا عن السبب عرفوا من أحدهم أن مسلمة موعد وصولها قد آن، وبالفعل كان على الجهة الأخرى في الإصلاحية أن يجهزوا مسلمة لمغادرتها.

من المفترض وعلى سبيل الإنسانية أن ذكرى ذلك اليوم تكون رائعة لمسلمة، لكنهم حولوه ليوم كابوسي؛ فقد جعلوها وياسمين رفيقتها المفرج عنهما تقبلان أقدام سادتهما من المديرة إلى وجيدة، إضافة إلى



إذلالهما بتقبيل أقدام من هم في سنهما من المدرسة العسكرية ومن بينهم أندرو الذي كان فخورًا بأنه أعلى من كل من يُقبل قدمه، وشيرا التي لم تكن راضية في دواخلها عما يحدث لدرجة أنه بعد أن قبلت مسلمة قدمها نزلت دمعة غصبًا عنها، وقد رأتها مسلمة لكنها لم تستطع حديثًا أو اعتذرًا أو حتى تبريرًا للموقف.

ولقد وضعوا مسلمة بسيارة، وياسمين بأخرى إلى أن وصلوا ليلًا إلى بيت مسلمة وأمروا الجيران بالخروج ليروا ويسمعوا كل ما سيقال بشأن مسلمة، وخرج الجميع يتلهفون رؤية مسلمة، وأخيرًا أخرجوها دفعًا من السيارة فسقطت أرضًا، وتلقتها نعمة إلا أن أحد الجنود منعها من الاقتراب، وسمعت أحدهم يصرخ بوجهها ويقول: «إن اقتربتي منها ثانية فلن ترينها ما تبقى لكِ من العمر»، ونفذت نعمة الأوامر غصبًا عنها آملة في رجوع مسلمة إلى حضنها، ثم سمعوا أحد الجنود عبر مكبر الصوت يأمرهم بعدم إصدار صوتٍ أو الاعتراض على ما سيحدث وإلا سيكون هناك عقاب رادع سيتلقونه في شخص مسلمة، وامتنع الجميع عن إصدار أي صوت، ووجدوا ثلاثة جنود آخرين أوقفوا مسلمة، وأحدهم قص لها شعر رأسها وجعله أصلعًا، وآخر ودون رحمة نفذ أمر صلبها، والثالث جلدها ثلاث جلدات على ظهرها الذي عرَّاه قبل فعلته، ثم صرخ رئيسهم قائلًا: نحن فعلنا ذلك كي لا تنسَ المذنبة ذلك اليوم، وكي لا تعود إلى سوء صنعيها، ثم اقترب منها يسألها والشرر يتطاير من عينيه: «هل تعلمتِ الدرس أيتها الحمقاء؟»، ودون كرامةٍ قالت مسلمة: «نعم».

– إياكِ أن تعودي لأفعالك القديمة، قال الرئيس.

- أمرك، بخضوع قالت مسلمة وقلبها يقول: «أقسم أنني لن أترك وطني ودينًي لأمثالك يهينوننا فيه كيفما يشاءون، أعدك أن أنفذ كل ذلك الذي علمني إياه سيدي وفيق، أعدك أن أدهشك فيما بعد أنني تعلمت في إصلاحيتك معنى أن أتمسك بحقي وأن أردع ذلك الظلم الذي مررت به ومر به أصحاب الحق في ذلك الوطن».

ولقد سمع الرئيس كلمة أمرك من مسلمة فلطمها على وجهها قائلًا: «ليس لديَّ شك في ذلك»، ثم أمر جنوده بتركها والانسحاب من المكان فورًا.

لكم أن تتخيلوا الآن موقف أم حدث لابنتها على بصيرتها كل ذلك الحدث، فماذا عن قلبها؟ وماذا عن شعورها بالعجز أمام كل ذلك الذي يحدث؟! وأتوا بمسلمة إلى أحضان نعمة بعد أن سترها يوسف بقميصه، وسالت دموع نعمة بينما كانت مسلمة ثابتة رغم كل ذلك الذي حدث، عصية الدمع رغم جلدها، صابرة رغم صغر سنها.

- ستنسي كل ذلك قريبًا يا ابنتي، قالت نعمة وقد انهارت من البكاء.

- ما حدث لي ليس مخجلًا كي أطلب من الله أن أنساه، إنه الحدث الأعظم بحياتي الذي وضعني على طريق الحق، عليكِ يا أمي أن ترفعي رأسك فخرًا بما حدث لي، قالت مسلمة واستغرب الجميع من النضج المبكر الذي لم يتوقعه أحد لفتاةٍ في سنها، وبدلًا من أن يواسوا نعمة في الحدث الأخير لمسلمة هنأوها بما وصل إليه عقل ابنتها ورجاحته، تلك الرجاحة التي



كانت المواساة الحقيقية لقلب نعمة عن السنوت العجاف التي مرت بها دون ابنتها.

- لقد علمتني أمي أن الظلم سيزول بنا نحن قبلهم، ستكونين بخير، قال يوسف لمسلمة، يوسف المتألم من بشاعة ما رآه أمام عينيه، فمدت مسلمة يدها على كتفه وهي تقول: «أنا بخير».

انسحب الجميع ليتركوا نعمة مع مسلمة ليهدأوا قليلًا، حتى أن والدة نائل دخلت غرفتها بحجة احتياجها للنوم تاركة الابنة لأمها، داعية الله أن يبعد عنهما الأذى، وأن يحسب الله ابنها نائل من الشهداء.



«رزق الله لا حكم لبشري عليه»



لم يكن لديها أمل أن تحمل من بكر طفلًا في أول شهرٍ من زواجهما، إنه رزق الله وليس لأي أحدٍ سلطان على رزق الله، وفرحوا بالحمل وذلك الحدث أنساهم كل مُر، وأدخل السرور على المحيطين، حتى نعمة المكروبة من جلد ابنتها فرحت برزق الله لسمر، لكن تلك الفرحة زالت سريعًا حين علموا أن مسلمة لم تُقبل في أيةِ مدرسة للمرحلة الإعدادية مما قدمت فيهم؛ وذلك لأنها خريجة إصلاحية، وخوفًا منها على طلاب المدارس؛ فاعتبروها مرضًا وعليهم اقتلاعه، وحكموا عليها بالانتهاء وهي على قيد الحياة.

وذلك نفسه كان اليوم الذي ذهبت فيه بسنت إلى أحلام لتطمئن عليها إنسانية منها لما فعله برهان معها، ولقد أخذ الحديث مجراه بينهما حتى حكت أحلام لبسنت قصة مسلمة وحالها هي ونعمة وهما لا يجدان مدرسة تقبلها، أحلام التي كانت تحكي لبسنت ليس طمعًا في أن تساعدها بقدر ما تحتاج أن تُخرج ما في نفسها من وجع وألم تجاه مسلمة، وعلى الرغم من ذلك وبعد أن فكرت بسنت قليلًا اقترحت عليها أن تذهبا معًا إلى نعمة لتعلنا لها أن بسنت تستطيع مساعدتها بإدخال مسلمة إلى إحدى مدارس برهان والدها الخاصة، وسارعت أحلام بالموافقة غير أن يوسف استوقف بسنت قائلًا:

- سمعت أنكِ ستُدخلين مسلمة إحدى مدارس برهان الخاصة، هل لكِ مساعدتي بأن أكون معها بنفس المدرسة لنكون معًا كما كنا في أول سنوات دراستنا؟

وأسكتته أحلام لكن بسنت ربتت على كتفه ووعدته إن تم الأمر لمسلمة؛ فستسعى جاهدة أن تُدخله هو الآخر معها.



وتوجهت بسنت مع أحلام إلى نعمة مقترحين عليها دخول مسلمة إحدى مدارس برهان، وصمتت نعمة تُفكر من أين لها المال الذي ستدفعه لمدرسة خاصة وهي التي تعلم جيدًا أن مدارس برهان خصيصًا يُدفع لها أعلى المصاريف التي تقبل طلاب ذوي ديانة إسلامية، وقطعت بسنت تفكير نعمة قائلة: «أنا ممنوحة عشرة أماكن كل عام من حقي إدخالهم للمدرسة دون مقابل ودون دفع مصروفات لهم بصفتي ابنة صاحب المدرسة»، ولم ترد نعمة فهي تعلم جيدًا أن بسنت ستدفع لها المصروفات، وأنها تقول ذلك كي لا تُحرج نعمة، نعمة التي كان ردها بكاءً لعدم استطاعتها حفظ ماء وجهها بدفع المال على الأقل، ويكفيها وساطة بسنت لإدخال مسلمة إلى تلك المدارس، عاجزة هي حتى عن الرفض لأنها تعلم جيدًا أنها إن لم توافق فلن تستطيع ابنتها إكمال دراستها، وفي مقابل صمت نعمة تدخلت والدة نائل في الأمر موافقة بالنيابة عن نعمة وقالت لبسنت: «توكلي على الله يا بنيتي، وابدئي في عمل الإجراءات اللازمة لإدخال مسلمة إلى المدرسة؛ فابتسمت بسنت وهي تقول: «إضافة إلى يوسف الذي وعدته بإدخاله إن تم الأمر لمسلمة».

وبذلك أرسل الله بسنت لمسلمة لتخرجها من ورطة عدم استطاعتها اكمال دراستها بوطنها .



«إن اضطررتم لإنهاء العلاقات فاحفظوا الود»

انتهاء العلاقات بحفظ الود هو أعظم ما تقابله بحياتك بعد شغف البدايات، تلك الكلمات هي ما قالتها أحلام لبسنت حين أقسمت عليها الأخيرة ألا تفعل ما يخيفها، وحين سألتها عن ذلك الذي يزعجها أعلنت خوفها من أن تقاضي أحلام أباها برهان بسبب الأضرار الجسمانية والنفسية التي تعرضت لها وهي عنده.

- لكنه لم يحفظ ودكِ يا أحلام، قالت بسنت الخائفة على والدها.
- لكنني سأحفظ لنفسي احترامي، ولدواخلي بُعدي عن جدل القضايا بين القال والقيل والمذنب والمحق، إنني الآن وبعد أن دققت النظر فيما حدث لمن حولي سواء مسلمة أو بكر أو سمر وكارم عرفت أن النضال في أوطاننا لا يجب أن يكون شخصيًا؛ وإنما نضال من أجلنا ومن أجل وطننا، ولقد تعلمت من الجميع أن التسامح والحب فيما بيننا أول الطريق للنجاةِ مما نحن فيه، قالت أحلام.ولقد دار ذلك الحوار بينهما لما غادرتا منزل نعمة، ولقد مر بهما كارم فألقى السلام، وقد سمع بعضَ كلامهما غصبًا عنه؛ فانتفض قلبه لفتاةٍ تعرف كيف تصون من معها حتى وإن لم تكن محبةً له، وحتى بعد القسوة وإنهاء العلاقات، وفكر في تلك الفتاة كيف سيكون فعلها مع من ستحب، ولعله تمنى أن يذهب ليُعلن لها صراحةً أنه يريد الزواج منها، وأنه لم يدق قلبه لامرأةٍ من قبلها، لكنه بالأخير قرر أن يحفظ لها ولزوجها الأسبق برهان الحق الشرعي في العدة، وأن لا يبوح إلا حينما يتأكد أنه لا طريق للعودة بينهما.



«العجز هو أن ترفع بندقيتك في وجه إنسان»



«لا يجب عليهم السعي لتحقيق قيمهم ومعتقداتهم في الأديان لذا يجب بذل الجهود لمساعدة المراهقين في تكوين نظرة علمية للعالم، وتوجيههم نحو العلم ودراسة العلوم وتعزيز العلوم، ثم من بعد الدراسة ليختَر كل إنسانٍ ما يشاء»، ذلك هو البيان الصادر من السلطات الشيوعية، والمُذاع على كل المحطات الإذاعية والتلفزيونية، بيان في ظاهره أمام العالم أنهم أناس يحترمون العلم الذي يجعل صاحبه يُدرك الطريق القويم، لكن خباياه تُعلن الكثير من فرض السيطرة وتوجيه المراهقين، وذلك ما اتفق عليه كارم وبكر اللذين وإلى الآن لم يحددا طريقهما في النضال لتحرير أوطانهم من كل ذلك العبث، ولقد حل في تلك الأثناء موعد دخول مسلمة ويوسف مدارس برهان، والتي قد بشرت بسنت أهليهما بقبولهما.

لقد أوصلت رضوانة يوسف صباحًا ليصحب مسلمة التي نسيت الشوارع والطرقات حتى أنها لم تعد تتحدث إلى الغرباء، فقط كلامها مع عائلتها والقليل من أصدقاء العائلة، لها الله هذا أقل ما قد تنتهجه فتاة في سنها تعرضت لما حدث لها.

وركبت مسلمة مع يوسف حافلة قاصدين المدرسة، وسارت الحافلة مدة عشر دقائق، ثم استوقفها مجموعة من الجنود آمرين كل الفتيات المراهقات بخلع حجابهن، ولقد اعتقدت مسلمة أنها لن تضطر إلى ذلك خارج الإصلاحية، لكن يبدو أن البيان الأخير السابق ذكره من قِبل السلطات الشيوعية يتضمن إجراءات غبية تجاه المراهقين، وتذكرت مسلمة كيف خلعت حجابها بأول يوم، وتذكرت وفيق الذي كان يعينها على أيامها بالإصلاحية، وقطع تفكيرها أحد الجنود خالعًا

لها حجابها بالقوة، ودفع يوسف يد الجندي من على مسلمة، لكنه لم يستطع إيقاف الأمر، إضافة إلى أنه عوقب بدفع الجندي له في صدره بظهر بندقيته، ورغم قوة الدفعة إلا أنه تجاهل وجعه وراح يطيب خاطر مسلمة وهو يقول لها أن رضوانة وعدته أن كل ذلك المر سيمر، وأن الله سيمد لنا يده لننجو من كل ذلك الأذى.

- سيمُر، قالت مسلمة وهي تبتسم ليوسف.

ولما وصلا إلى المدرسة كانت في استقبالهما بسنت التي أخذتهما وأدخلتهما كل واحد في غرفة صفه، فيوسف التحق بالثالث الإعدادي، ومسلمة بالأول الإعدادي، وبدآ في تلقي الدروس العلمية، غير أن بسنت استدعت مسلمة ويوسف إلى غرفة أخرى داخل المدرسة وذلك في تمام الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة وذلك لمدة عشرة أيام متتالية، وجاء مساء اليوم العاشر ودخل كارم وبكر منفعلين إلى دار نعمة يخبرونها أن عليها الإتيان برضوانة وأحلام؛ لأنهما يرغبان في التحدث إلى الجميع في أمرٍ هام بخصوص مدارس برهان، ولقد اجتمع الجميع خلال ساعة، فأعلن بكر صراحة للجميع ما عرفه من حسام الذي خسر صداقته بسبب تصديقه أن بكرًا خانه في ماله، وربما ما أعلنه حسام لبكر كان من باب إعادة الود بينهما كسابق عهده؛ فقد أخبره أن المدرسة التي التحقت بها مسلمة ويوسف مسيسة من قبل السلطات الشيوعية، ولما لم يقبل بكر كلامًا دون دليل أخبره حسام أنه سمع حديثًا دار بين والده وبين شريكه برهان في محاولةٍ لبرهان لأن يجعل والده يشاركه في سلسلة مدارسه، ورفض والده قائلًا له بصراحةٍ وبوضوح أنه لا يرغب في شراكةٍ تمشي على تعليمات الشيوعيين، وأن هناك مجاذفة كبرى في إغلاقها إن حدث

خلل في اتباع التعليمات للحظة، وأنه لا يحب وضع أمواله تحت بند المجاذفة.

- وما الذي سيجعلنا نخل بقواعدهم؟ قال برهان.
- ربما الضمير أو الإيمان يومًا يفرض علينا ذلك، رد والد حسام.

وضحك برهان بصوتٍ عالٍ، ثم أعلن له ليطمئنه أن هناك عقودًا بينه وبين السلطات الشيوعية، وأن هناك وسيطًا بينهما يعرفه جيدًا، وهو مفيد الضامن له أن كل شيءٍ لن يتعرض للغلق ما دام يسير على النهج، وأن المدارس مفتوحة منذ سنواتٍ ولم تتعرض للخطر يومًا، وأن مفيد دائمًا على العهد كوسيطٍ أمين.

- لماذا لا يكون تعاملك مع السلطات مباشرة؟ سأل والد حسام.
- إنهم لا يرغبون إلا بالتعامل مع أشخاصٍ معينين بعددٍ معين لا ينقص ولا يزيد حتى لا تنفرط الأمور من بين أيديهم، قال برهان.
- وما الذي يضمن لك عدم خيانة مفيد لك؟ سأل والد حسام.
- المال، مفيد يعشق المال، الذي يُدخل ابنه تلك المدارس وابنة أخيه مسلمة على الرغم من معرفته هويتها، لا أحسبه يخونني إلا اذا انقطع عنه المال، قال برهان.

برهان الذي كان يعتقد أن مفيد يعرف بأمر دخول يوسف ومسلمة للمدارس، حتى أنه لما وجد اسميهما داخل الأسماء الجديدة لم يسأل من قَبَل أوراقهما دون الرجوع إليه تيقنًا منه أنهما تابعان لمفيد، وأن يد مفيد هي من قبلت أوراقهما، ولم يتخيل أن بسنت هي التي أدخلتهما على ضمانتها الشخصية.



ولقد اندهش الجميع مما أعلنه بكر لهم إلا أن أحلام وضحت لهم رأيها أن بسنت لا يمكن أن تخونها في مسلمة ويوسف، درجة أنها أقسمت أن بسنت نقية طاهرة لا تعرف الخيانة، إلا أن الآخرين كل واحد كان له رأي، فمنهم من اتهم بسنت بالخيانة كما أبيها، ومنهم من تكهن أنها فعلت ذلك لتسيسهما وفقًا لتعليمات الشيوعيين، إلا أن والدة نائل أوقفت الجميع عن التحدث كي لا يحكموا عليها دون أن يسألوها، وأيدوها في رأيها وهاتفت أحلام بسنت؛ فأتت لهم بعد ثلاثين دقيقة مصحبة باهر الذي صمم على إيصالها إليهم، وبعد أن اعتذرت أحلام عما ستقوله أعلنت لها عن كل ما قاله بكر وعرفه، وبكت بسنت مما سألوها عنه، ولم تنكر أن والدها ومدارسه تعمل وفقَ قواعد الشيوعيين، وأقسمت لهم أنها لم تكن تعلم تلك المعلومة إلا في ذلك اليوم الذي دخلت عليها أحلام الغرفة ووجدتها تقرأ في العقود الموجودة بخزانة برهان، وأن ذلك السبب هو ما منعها من الزواج من باهر رغم حبها الشديد له؛ لأنها شعرت أنها ستخونه إن قبلت دون معرفته الحقيقة، ولم تكن تستطيع أن تخبره بالحقيقة التي من شأنها تلويث شكل أبيها عنده، فكيف لها وهي التي رفضت حبه أن تخون أحد في أولادهم وأهاليهم، ثم صمتت بسنت عن الحديث واندهش باهر مما سمعه ولم يكن يدرك ما الذي عليه أن يفعله، أيطير فرحًا لأن بسنت اعترفت بحبه، أم يحزن لمعرفته حقيقة عمه؟ وكاد أن يتحدث إلا أن بسنت استأذنته لإكمال حديثها، ولقد أتت بيوسف ومسلمة وسألتهما عن الذي كانا يفعلانه خلال الساعة من العاشرة وحتى الحادية عشرة؛ فأعلنوا للجميع بشكلٍ واضح ودون ترددٍ أن بسنت كانت تذهب لهما في تلك الساعة من كل يومٍ لتُخرجهما من صفهما وتجلس معهما بحجة أي شيءٍ



حتى تنتهي الساعة، ومن بعد شهادتهما أخرجت هاتفها باحثة عن صورة العقد الذي يُبرأها، والمكتوب فيه أن شرط عدم التعرض إلى مدارس برهان هو تدريس مادة تُسمى التحضر، فيها يدخل مدرس إما شيوعي وإما إسلامي مُسيس لاتجاهات الشيوعية ليمحي هوية الطلاب الدينية، وجعلهم يؤمنون إيمانًا لا رجعة فيه بالحريات، وكره كل ما يجعلهم يتخلون عن حرياتهم المطلقة حتى لو كان الدين، وتلك المادة تدرس ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة، ولقد اعتذروا لبسنت بعد سماعهم ذلك واضعين وجوههم في الأرض جراء ظنهم بها شرًا.

وبكت بسنت ليس لأجل اتهامها بالسوء؛ وإنما لرغبتها في إخراج والدها من ورطته وعجزها عن فعل ذلك، فاقترب منها باهر ثم همس ليزيل عنها حزنها: «أحبك وسنحل كل الأمور معًا»، فابتسمت ففهم الجميع ما قاله باهر، وأصبحوا يتلاءمون عليهما بالقول، فمنهم من قال متى سنحضر عرسكما، وآخر قال عظيم أن يجد أحدهما الحب رغم كل ذلك الأسى.



«وأعلم أنكِ ستهبين فيض حبكِ لمن يحبك بصدق»



«ظللت طوال ذلك العمر أبحث عن فتاةٍ بعفويتك وطفولتك وفطرتك العظيمة رغم كل ذلك الذي أظهرتيه من قسوة، أنا أعلم جيدًا يا سهيلة أنك طيبة رغم عصبيتك، عفوية رغم القسوة التي تظهرينها في بعض الأحيان، ويكفيني منكِ أنك ابنة أصل، متيقن أنا من أنكِ لن تخونني يومًا بقليل حبك إن قبلتِ بحبي، أعلم أن فيض حبك ستهبينه لمن يحبك بصدق، وأنا أحبك يا سهيلة جدًّا؛ فاقبليني زوجًا لكِ»، تلك هي الكلمات التي لم يستطع الدكتور ياسين أن يكتمها بداخله لأكثر من ذلك، وأعلنها في آخر مرةٍ زارته فيها لوعدها له أنها ستجعله يتابعها حتى لا تنكسر مرة أخرى، واحمر وجه سهيلة خجلًا وارتباكًا، أَبعد كل ذلك الذي فعلته لأجل الحب يأتيها الحب بغتة وفي وقتٍ هي قد تركت فيه أمر قلبها لله، ولم تعد تجري وراء الحب فيلهث هو خلفها لتلك الدرجة؟ هي لا تصدق ذلك الأمر، وعلى الرغم من ارتياح سهيلة الشديد لياسين إلا أنها صمتت عن الموافقة أو الرفض، وغادرته دون كلمة؛ فاستوقفها ليعرف ما بدواخلها تجاهه؛ فأخبرته أن يتحدث في الأمر مع والدتها وبكر؛ فابتسم لها مدركًا أنها تخجل أن توافق خارج بيتها، ولم ينتظر وذهب إلى بكر يطلب يد سهيلة، فتذكرا سويًا ذلك اليوم الذي ذهب ياسين لطلب يد سمر وضحكا معًا، ووعده بكر أن يرد عليه بأسرع ما يكون، بكر الذي لم ينتظر وراح إلى والدة سهيلة يعرض عليها ما أعلنه له ياسين، ورحبت بما قيل لكنها لم تُعطِ له كلمة وذلك لأنها لم تأخذ رأي سهيلة، ولما أخذت الأم رأي ابنتها وافقت بقولها: «لقد استعجلت



رزق الله سابقًا فخاب كل ما رأيته خيرًا لي، ولما تركت أمري لله رزقني بما أتمناه وأكثر»، وعُقِد قران ياسين وسهيلة خلال شهر، ياسين الذي شجع زوجته على إتمام دراستها التي أهملتها بكلية التمريض، وبالفعل اتخذتْ سهيلة الإجراءات اللازمة لعودتها ليس إلى الكلية فقط وإنما إلى نفسها وحياتها وطموحها، وإيمانها بأن الله خلقها ليكون لها دور في الحياة، ولم يخلقها حاش لله عبثًا.



«من بلاء الله ألا تكون إنسانًا ولو للحظة»



اليوم أندرو فارقته كل فطرةٍ إنسانية، اليوم دفن كل ما في قلبه من تعاطفٍ تجاه أيةِ قضية غير القضية التي جعلوها إيمانًا له، القضية التي ربوه عليها في المدرسة العسكرية، قضية الإيمان بأن ذلك الوطن من حقه وليس لأيةِ هوية أخرى حق فيه، الإيمان بأن القضاء على هوية المسلمين رِفعة وفخر لكل من يشترك في ذلك العمل، واليوم فرصته العظيمة لإثبات ذلك الإيمان، لقد كُلِّف من قِبل المسئولين أن يرتاد الحافلات، وأن يُعاقب بالاعتقال كل من يلقاه طليقَ اللحية في المواصلات العامة، إضافة إلى عقاب كل من يجده من المراهقين صائمًا أو محجبة في أي من القطاعات العامة، الأسوأ من كل ذلك تكليفه بمنع كل الذين يرتادون المستشفيات من المحجبات أو ذوي اللحى، ذلك الأمر الذي أزعج الكثيرين وأشعرهم بالعجز وقلة الحيلة، ومنهم من تخلى عن هويته الإسلامية في مقابل العيش دون عقابٍ ودون كل ذلك الأذى الذي يتعرضون له لإظهار شعائرهم الدينية، وكان أول من تعرض لها أندرو والدة كارم التي قد ذهبت إلى المستشفى لتأخذ علاجًا للسكري المرتفع، لقد نهرها أندرو واستوقفها دون أن يحترم حتى سنها.

- ممنوع أن تدخلي إلى المستشفى وأنتِ على تلك الهيئة، قال أندرو وهو يشير إلى رأسها.
- أيةُ هيئة يا بني؟ قالت والدة كارم بهدوءٍ، ذلك الهدوء الذي أزعج أندرو ولم يُتح لنفسه فرصة الرد أو المناقشة مع امرأةٍ في ذلك السن، بل إنه تهجم عليها ونزع حجابها؛ فسقطت أرضًا لعد استطاعتها مقاومة وحشية أندرو، أندرو الذي استغل ضعفها وعدم مقاومتها وظل يركلها في بطنها بكل ما أوتي من

حيوانية، الأمر الذي أدى إلى أن تفقد وعيها، ولم يستحِ أندرو بل إنه جرَّها جرًا من شعرها إلى خارج المستشفى؛ فَالتفت الناس فتوعدهم أن يحدث لهم مثلما حدث لعجوز كارم إن تم الاعتراض منهم على الأوامر أو عدم اتباع التعليمات، ثم قال بغرورهِ المعتاد:

- عليكم أن تتركوا التخلف جانبًا، وأن تتحضروا، ولتعلموا أن أسوأ ما في حياتكم هو إيمانكم بشيءٍ لا يعطيكم حريتكم كاملة.
- أسوأ ما في حياة الإنسان هو أن يتبع التعليمات كما الحيوان دون وعي بما يفعله، أن يغادر إنسانيته، وأن يعيش كما الجماد لا يشعر بآلام غيره، بل يكون السبب فيها، قالت عجوز كارم بوهنٍ بعد أن أفاقت قليلًا مما حدث لها، لكن أندرو لم يعِ حديثها، ولم يفهم موقفها، ووجد بها كِبرًا رغم كل ما حدثَ لها، ونظر إلى من خرجوا معه في المهمة، هؤلاء الذين فهموا من نظرته ما الذي يريده منهم؛ فتوجهوا إلى والدة كارم ولقد استطاعوا أن يجردوها من ملابسها، لكنهم لم يستطيعوا أن يجردوها من إيمانها وإنسانيتها، وبعد أن فعلوا بها كل ذلك لم يكتفِ أندرو وصوب بندقيته في صدرها ففارقت الحياة وهي تقول: «الله يرى كل ذلك الأذى ولن يستمر طويلًا».

وسُمعت الحادثة في كل أرجاء البلاد، ولكم أن تتخيلوا شعور كارم حين علم بكل ذلك الذي حدث لوالدته، لا كلمات تكفي للوصف، لكن عليَّ أن أخبركم أن كارم امتنع عن التعليق، وحتى أن حديثه مع



أقرب المقربين له حرَّمَه على نفسه، بكر وسمر لم يستطيعا تغير ساكنٍ أو تقليل وجع كارم، وأحلام لم تستطع أن تأخذ بيده لأن الكلمات وقفت في حلقها، ولم تستطع أن تنطق بحرفٍ أمامه فكتبت له: «انتهاء حياة أحدنا على الأرض أمر حتمي، والسعادة لمن يجد من يدعو له وهو بين يدي الله، والدتك قريبة من الله بأكثر مما تتخيل أنت، يكفيها أن الجميع يدعو لها بالرحمة، سينجلي الظلم فصبرًا وإن بعد الصبر فرجًا عظيمًا ستقر به قلوبنا».

أما شيرا فقد آلمها الخبر، هي ما كانت قريبة من أحد مثلما مع أندرو، لكنها لم تتخيل يومًا أن يمارس أندرو اللا إنسانية بتلك البشاعة، وواجهته بسوء أفعاله التي يعلم بها الجميع ويرددها، لكنه لم يعترف لها بجرمه، إنه فخور بكل ذلك الذي حققه، إنه يتقدم بسرعةٍ أكبر من أقرانه، حتى أنه ومكافأة له على تنفيذه للأوامر سيكون ضمن الدفعة المقبولة إلى الدراسة بالكلية العسكرية، وذلك ما هو إلا فخر له.

- ماذا ستختارين من الكليات لتلتحقي بها الطب أم الهندسة؟ سأل أندرو.
- لن ألتحق إلا بالحقوق، قالت شيرا.ضحك أندرو متعجبًا من اختيارها الذي يراه مستحيلًا، وتوقف عن الضحك حينما شعر أن شيرا لا تتقبل ذلك وقال: «أنا لا أقصد إزعاجك يا شيرا، أنا كل ما وددت قوله أنك تعلمين أن كلية الحقوق تمنع الدولة الالتحاق بها للفتيات، فلماذا تفكرين بالمستحيل؟
- إذًا لن أكمل دراستي بمرحلة الجامعات، هذا قراري النهائي، قالت شيرا فانفعل أندرو عليها، حتى أنه سحبها من يدها



وأوصلها إلى البيت دون كلمة، وبكت شيرا من قسوة أندرو عليها، إنه ما كان معها كذلك من قبل، تغيرت طباعه جراء انتقالهم إلى ذلك المكان الذي حُرم عليهم الخروج منه، وتمنت لو أنهم يجدون فرصة واحدة للخروج من كل ذلك البؤس الواقعين فيه.



«عليك في بعض الأحيان اتخاذ الصمت فضيلة»



تأخرت بسنت على مسلمة ويوسف في الوصول إليهما، وانهارت توقعاتهما في إخراجهما من حصة التحضر، وتحمَّلت مسلمة كل ما يُقال وكل ذلك الأذى الذين يبثونه لهم في معتقداتهم وإيمانهم، ولم تنطق مسلمة بكلمةِ اعتراضٍ رغم معرفتها القوية بأن كل ما يُقال هو محض كذب.

وعلى الطرف الآخر وبصف يوسف لم يستطع صموتًا، إنه لم يتعلم كيف يسكت حتى يجد الفرصة الصحيحة ليأخذ حقه، لم يقابل وفيق ليعلمه أن الحديث له وقته، وأن الصمت في بعض الأحيان فضيلة، وعلينا اتخاذه منهجًا حين يتطلب الأمر ذلك، ولقد ادعى يوسف أن مرضًا قد حل ببطنه حين تحدث المعلم عن عدم الصوم في شهر رمضان المقبل؛ حتى لا يصابوا بالأمراض، وحتى لا يصيبهم الوهن في أجسادهم، ولم يشك المعلم في أمر يوسف؛ حيث أن تلك المرة الأولى الذي يفعل فيها يوسف ذلك السلوك، وإنه حين سأله:ـ ما الذي حل بك؟

- ألم شديد ببطني، قال يوسف.
- نتيجة ماذا؟ سأل المعلم.
- لم أتناول أي شيءٍ منذ صباح اليوم السابق، قال يوسف.ـ أعلمت أن حديثي عن الصوم صواب؟ قال المعلم.
- نعم، أجاب يوسف وخان المعلم ذكاءه، فلم يتخيل أن يوسف يطيل حديثه معه كي يُضيع ما تبقى من وقت الحصة؛ كي لا ينطق المعلم بأشياءٍ جديدة تزيد من حجم البلاء الذي يدخل العقول.



ومضى اليوم وحكى يوسف ما حدث بصفه، وفعلت مسلمة نفس الشيء، فوجدوا بسنت تدخل عليهم وتعتذر عن عدم قدرتها على الذهاب إلى المدرسة؛ وذلك لأن برهان لاحظ ذهابها اليومي، وشك في الأمر فاضطرت إلى الجلوس حتى لا يصر على أن هناك شيئًا يجهله، واطمئنت من يوسف ومسلمة على رد أفعالهم، ثم صمتت وصمت الجميع، وقطعت مسلمة ذلك الصمت بقولها:

- علينا أن نسير بمنهجيةٍ لمواجهة كل ذلك الأذى الذي يحدث في أوطاننا، علينا بخطواتٍ عملية وأدوار محددة لكل واحدٍ منا البدء في إنقاذ العقول مما تتعرض له في المدارس والجامعات، حتى الشوارع والحافلات والمستشفيات والشركات الكبرى، علينا أن نقول للظلم لا، ليس بألسنتنا وإنما بالفعل الذي يهابه مغتصبي حقوقنا وأوطاننا.

واستغرب الجميع من الطريقةِ التي تتحدث بها فتاة لم تتجاوز الخامسة عشر من عمرها، إلا نعمة والدتها التي قطعت دهشة الجميع بقولها:» مسلمة تربية وفيق الذي أرسله الله لها في كربها ليكون عونًا لها»، وابتسموا وأيدوا قولها، ونظر ياسين إلى خطيبته سهيلة، ففهمت ما يرمي إليه بإيماءةٍ من رأسه، غير أن سمر سبقتهم في القول بقولها: «بالنسبةِ لي سأفتح عيادتي لجميع المضطهدين والذين لا يستطيعون دخول المستشفيات بسبب تمسكهم بهويتهم»، فضحك ياسين وسهيلة وقالت الأخيرة: «أفتخر أنني سأكون ممرضة لكما في ذلك الأمر»، وكانت تقصد سمر وياسين، وقطعت أحلام حديث ثلاثتهم عارضة أن يدربونها لتعمل معهم، وحينها شعروا أنهم يسيرون على الطريق الصحيح.

- الهزيمة هي أن تقبل بما يفعله أقرب الناس إليك حتى وإن كان في الطريق الخطأ، والبؤس الأكبر هو عدم استطاعتك مواجهة الأمر لتُغيِّره، وأنا قبل حديث مسلمة ما كنت أنتوي على فعل ما سأقوله وسأطرحه عليكم الآن: أنا لستُ راضية عن فعل والدي، ولكنني لن أستطيع مواجهته بالأمر في الوقت الراهن، فمنطقيًا إن فتحت له الأمر سيعاندني أكثر مما تتخيلوا، وإنني أعلم واحدة برأس أبي، وأرى أن أُكمل فصل مسلمة إلى عشرين ملتحق ممن هم في سنها، وفصل يوسف عشرين ملتحق ممن هم في سنه، وأنا لدي القدرة على إقناع والدي بذلك، ولدي القدرة أيضًا على إقناعه أنني سأُدرس للطلاب وخاصة بفصل أحدهما مادة التحضر، قالت بسنت.- لماذا لا يكون الفصلان يا بسنت؟ تساءلت والدة نائل.- لأن قواعد مدارس برهان لا تتيح لمعلم التدريس لأكثر من فصل، قالت بسنت، ولمّا تساءلت والدةً نائل عن السبب مرة أخرى أخبرتها بسنت أن ذلك نص العقد بين والدها وبين السلطات الشيوعية، ولا تعلم لماذا اشترط الشيوعيون ذلك الشرط.
- إنهم لا يثقون بأنفسهم حتى يثقون فيمن حولهم أو بمن يعملون معهم، ودائمًا يضعون أمام أعينهم خيانة الآخرين لهم، ولن يأمَنوا لأحدهم أن يدخل فصلين في الحصة المزعومة بالتحضر؛ حتى إن خانهم لا يخسروا عقول فصلين، فيكفيهم أحدهما، قالت مسلمة.

«الظلم والقهر والاحتلال، جميعهم يجعلوننا نشيب قبل أواننا، ويعطوننا الحكمة التي لا يصل إليها من هم في نفس الأعمار في البلاد الموازية، البؤس لا يتيح لنا رفاهية العبث دون التفكير في شيء، لا يعطينا المجال لنُفكر بحمقٍ لأن الخطأ حينها يُأخر حرية الأوطان»، هي كلمات قالها كارم الصامت عن الحديث، والذي نظر إلى بكر قائلًا له:

- لتضع يدي بيدك لنعيد الشباب إلى هويته، وننتشل المراهقين من ذلك الضعف والاختيارات المرهقة، لنُعلمهم أن الثبات من الإيمان يا بكر، ولنعيد كرامة أهالينا المهدورة، ليرونا ونحن بنا من الصلابة لمواجهة الظلم ما يكفي لتحرير أوطاننا.

ولقد قرروا أن يجعلوا من منزل والديّ كارم رحمهما الله مؤسسة لجمع المستهدفين فيها؛ لجعلهم يثبتوا على دينهم ومواقفهم، ولقد فكر كارم في ذلك فور اقتراح بسنت لأنه أدرك أن بقية المراهقين والشباب سيتعرضون للأذى، ولن يجدوا من يحنوا عليهم بعدم بث روح حرية عدم الدين في قلوبهم، ولن يجدوا معلمة مثل بسنت تحميهم من فكر الشيوعيين والفوضى التي يدخلونها في عقولهم، ولقد رحب بكر بالفكرة على أن يجهزوا منزل والديّ كارم من صباح اليوم التالي، ولقد دعى لوالدته بالرحمة، ثم إلى والد كارم الذي لم يتحمل فراق زوجته وقابل ربه العظيم بعد حادثتها بثلاث ليالٍ.

- ماذا عن الفصل الثاني الذي لن تدخله بسنت؟ تساءلت نعمة ورضوانة في نفس ذات الوقت.

- سأدخله أنا، ولديَّ القدرة على إقناع عمي برهان بذلك بحكم ميراثي الذي لم آخذه منه حتى الآن، قال باهر.



«انقطاع العلاقات بالود والخلق أعظم شيء في الإنسانية»



«النضال والحرب يحتاجان إلى الحب وليس كما تعتقدين بالابتعاد عنه، أعلم أن الحرب تكسر فينا أغلب ذلك الذي لم نتوقع يومًا أن نخسره، ولنخرج من ذلك الكسر علينا ألا نتجاهل نبض قلوبنا، أنا لا أخاف أن أبوح لكِ بحبي وأن أعلن ذلك على مسمعي الجميع، لا تخافي أن تقبلي حبي لكِ حتى وإن كنا في قمة نضالنا، الحب يا بسنت أقوى من ألا نعلن عنه، لنتزوج وليكن أملنا في الخلاص من ذلك البؤس واحدًا»، هذه هي كلمات باهر إلى ابنة عمه بسنت التي بعد أن شعر منها بالموافقة في الفترة الأخيرة خذلته بترددها ثانية، بسنت التي تخشى البوح بما في قلبها إلى باهر، إنها تخاف الخذلان خاصة من بعد كل ذلك الذي عرفته عن برهان، وتخشى أن تُعلن حبها له صراحة خارج بيتها فيكون في ذلك عصيانًا لله، فلقد علمتها والدة نائل مؤخرًا أن أعظم ما قد يحل بالمرء هو أن يرى الله في كل تصرفاته.

- ماذا عن الله فيما تقوله يا باهر؟ قالت بسنت مجيبة على باهر الذي ألح عليها في أن تجيبه، وألا تظل على صمتها.
- إنني أراعي الله فيكِ، وسأتحدث إلى عمي برهان في ذلك الأمر كي لا يرانا الله على غير ما نحبه.

احمر وجه بسنت خجلًا ففهم باهر أنها موافقة على ما ذكره.- ماذا عن ابنك وزوجتك الأولى؟ سألت بسنت بتخوفٍ.

- سأتقي الله في ابني، وأعلم أنكِ لن تخذليني فيه، أما عن زوجتي السابقة فانقطاع العلاقة بالود كان أفضل ما فيها، وإنها تزوجت وأنتِ تعلمين ذلك، وطلبت مني أن يظل ابننا معها لأنها لا تقوى على فراقه، فوافقت على اتفاق بيننا أن أراه



كلما رغبت، وأن لا تُسيء لي أمامه، وألا أفعل أنا لها ما لا أرضى أن تفعله هي، فلا تقلقي من الأمر، قال باهر وصمتت بسنت أمام خُلق الرجل الذي دق قلبها له، وشكرت ربها أنه رزقها بمثله.



«على ذلك الظلم الله»



«على من يجد والدة صفية زوجة سليمان إبلاغ السلطات فورًا، إن ابنتهما ليس لديها أي نوع من الإنسانية، لقد قامت بحرق الجنود دون رحمة، وعلينا جميعًا أن نعاًقبها على ذلك الجرم حتى لا يفعله آخرون».

ذلك بيان السلطات الشيوعية الذي سمعته سمر، والتي هرولت نحو زوجها بكر لتفهم ما الذي حدث، لكنه لم يستطع إجابتها، ووعدها أن يفهم الأمر.

الأمر الذي كان يؤرق سمر أن والدة صفية كانت عندها قبل ذلك البيان بخمس عشرة دقيقة، فما الذي حدث خلال تلك الفترة البسيطة، هي لا تستطيع أن تُفكر أو أن تفهم ما الذي حدث تحديدًا؟وخرج بكر ليبحث في الأمر، ليجد كارم الذي أخبره أن صفية قُبض عليها لحرقها الجنود في منزلها، وأنهم يبحثون عن والدتها لإجبارها على التحدث، وإخبارهم بمعاونتها في الأمر، ولقد أخبر كارم بكر أنه حكى الأمر لنعمة قبل إذاعة بيان السلطات، وأنه لم يستطع طرق باب غرفته كونه أخبره في أول اليوم أنه يحتاج إلى الراحة فخشى إرهاقه، فنزلت من عين كارم دمعة وهو يقول على ذلك الظلم الله.

«سيأتي خير الله ولو تأخر سنوات، سيأتي ولو بعد حين»





مكافأة عظيمة لأندرو من سلطاته التي ألحقته بالكلية العسكرية دون اختبارات، ويوم عصيب على شيرا الحزينة على أخيها ألدو الناقم على عيشته، والذي يتمنى أن يعود حيث جاء، وكاد أن ينهي حياته بنفسه لكرهه للنظام الصارم المفروض عليهم من قِبل السلطات، لم يتأقلم على الحياة الشبه عسكرية رغم أنهم مدنيون، لكن ما الذي بيده فعله؟ وما الذي بيد أبويه المستسلمين للأمر أن يفعلاه له؟ فأية محاولة للخروج من مدينتهم الفاضلة تُعتبر جرمًا يعاقب عليه القانون بإنهاء حياتهم، ولم يكن أحدٌ يتخيل رد فعلٍ من شيرا كذلك الذي فعلته، فلما رأت ألدو أخاها في ذلك اليأس خرجت أمام قصر السلطات الحاكمة تمسك لافتة مكتوب عليها: «أفرجوا عنا، نحن لسنا مجرمين لنُسجن».

ولما رآها أحد حراس القصر أبلغ رئيسه بالواقعة، وبدوره أخذ تعليمات بالقبض عليها، وأدخلها سجن قد أقاموه للمعارضين، واندهشت شيرا مما رأته بداخل السجن، إنه مكان وضيع لا يليق بالحيوان حتى يليق بإنسان، أغلب الموجودين فيه من المسلمين المعارضين للاحتلال، ونسبة لا تتجاوز الثلاثة في المئة من الشيوعيين المعارضين لقانون حظر خروجهم من البلاد مثل شيرا، ولقد صُدمت شيرا من كل الذي يتعرضون له معارضي الاحتلال من ضربٍ وقمعٍ وإهاناتٍ لفظية وجسدية، وفي مساء اليوم الذي اعتُقلت فيه شيرا سمعت صوت صراخٍ من الزنزانة المقابلة لها، ومع ذلك الصراخ أصوات أخرى تقول: «سينجلي الظلم يومًا، اتركوها وشأنها واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله»، ثم من بعد تلك الكلمات سمعت شيرا جنودَ السجن يهينون الجميع بإهاناتٍ لفظية، ثم أتوا بماءٍ مغلي وغرقوا الزنازين به، فلا يستطيع أحدٌ النوم بعد كل



ذلك الذي يتعرض له، المهم أن تلك الإجراءات كانت تحدث فقط في زنازين المسلمين، أما أمثال شيرا فكانوا لا يتعرضون للذل بمثل تلك الدرجة، وإنما كانت السلطات تخبرهم أنهم في ذلك المكان ليعلموهم أن السلطات تعاني مع المعارضين لحمايتهم في الخارج، وأن هؤلاء المعارضين المسلمين إن خرجوا إلى الحياة العامة لن يتركوا مدنين الشيوعيين وشأنهم، وحينها ستكون الدماء منهم ملء الأرض، ولقد أخبرهم أن يُقدِّروا مثل تلك الأمور، وأن يتحملوا القوانين قليلًا حتى يتمكنوا من فرض سيطرتهم الكاملة على ذلك الشعب المسلم.

وعلى الرغم من أن بعضهم كانوا يقتنعون بحديث السلطات ويخرجون سالمين إلا أن شيرا لم تكن أبدًا تقتنع بكلام لا إنسانية فيه للطرف الآخر، وما زاد من كرهها للبقاء على تلك الأرض ما شاهدته بعينها في السجن من فرض الموت على بشر، وسلب إنسانية وكرامة من البعض، حتى وإن لم يكن هؤلاء البشر على طريقٍ واحد معها.

وبعد ساعةٍ واحدة من حدث الصراخ الذي لم تكن تعلم شيرا ما سببه دخل عليها سجان يُدعى «ميشل»، حدثها عن كم المعاناة التي يتعرضون لها لإنقاذهم بالخارج من هؤلاء المتوحشين، يقصد بالمتوحشين أصحاب الأرض الأصليين من المسلمين، وأن عليها أن تحترم ذلك، وألا ترتكب حماقة المعارضة كي لا تزيد الضغط عليهم.

تجاهلت شيرا كلمات ميشل وسألته عن سبب الصراخ الذي سمعته بالخارج، ولم يتردد ميشل في إجابتها وأخبرها أن الصراخ جاء من فتاةٍ تُدعى صفية سليمان، ولما سمعت شيرا الاسم حاولت تذكره لكنها فشلت في الأمر، لكن ميشل ذكرها بتلك الفتاة وقصتها بقوله: «صفية

التي ادعت أن جنودنا اعتدوا عليها في شرفها»، وصمتت شيرا قليلًا، ثم تذكرت قصة صفية وقالت ردًا على ميشل: «الأمر لم يكن ادعاءً، أذكر يومها أن شيخًا يُسمى يونس انتهت حياته بسبب الدفاع عنها».

ـ ليس لنا أن نأخذ صفها مقابل جنودنا، ثم إن تلك الغبية لم تقتصر على أن يونس مات بسببها، ولم تسكت عن الأمر، لقد اكتشفت دورية ليلية حريقًا بمنزل صفية، ولما دخلوه وجدوا الجنود الذين اتهمتهم بالواقعة مشتعلة بهم النيران، ولم نستطع إسعافهم، ولقد ماتوا متأثرين بحروقهم، لكننا محظوظون؛ فلم تستطع صفية الفرار منَّا، ولما قمنا باعتقالها اعترفت أنها ودون مساعدةٍ من أحد قامت بإشعال النيران فيهم، وأنها لما عرفت المكان الذين يسهرون فيه ويخرجون مخمورين منه ذهبت إليهم وأغرتهم حتى دخلوا منزلها وقامت بفعلتها، ونحن صراحة غير مقتنعين بأنها تستطيع فعل ذلك وحدها، وحتى والدتها لا نستطيع معرفة مكانها لاستجوابها، قال ميشل.

لم يكن لشيرا رد فعلٍ أمام حديث ميشل الذي أكمل حديثه عارضًا عليها أن تخرج من المعتقل شريطة إثبات ولائها لهم.

ـ كيف أثبت ذلك الولاء؟ سألت شيرا بثباتٍ.

ـ بأننا سندخلك إلى صفية لتدَّعي أنكِ على الديانة الإسلامية مثلها لتثق بكِ وتحكي كل ذلك الذي لا نستطيع معرفته منها، قال ميشل.

ـ لماذا لا تقوم أيةُ سجانة بذلك الدور؟ قالت شيرا.

- ملامحك لا تدل أبدًا على كونكِ سجانة شيوعية، ملامحك ستجعلك تنجحين في تلك المهمة، قال ميشل.
- إذًا عليك إخباري بوضوحٍ عن السبب الذي جعلها تصرخ منذ قليل، قالت شيرا،

وأخبرها ميشل بصراحةٍ أنهم يطلقون جنودهم عليها لينهشوا فيها حتى تبوح بما تخفيه عنهم.ـ متى سأدخل إليها؟ قالت شيرا.

- الآن لو تحبين، قال ميشل ووافقت شيرا على الدخول إلى صفية، ولقد صُدمت بهيئتها؛ فقد كانت ملابسها مهلهلة، وجسدها مليء بالكدمات التي توحي بأنها تعرضت لأبشع أنواع العذاب، لكنها على الرغم من ذلك شعرت فيها بكرامةٍ لم ترَها على أحدٍ من قبلها، وعزة نفسٍ لم تقابلها إلا في مسلمة التي قابلتها في المدرسة العسكرية، واقتربت شيرا من مجلس صفية لكنها لم تستطع قولًا واحدًا، وفضلت أن تربت على كتف صفية دون كلمة، ولم تجد شيرا أية رد فعلٍ فاضطرت إلى الحديث بقولها: «أريد مساعدتك».

ولم تنطق صفية حتى حينما تحدثت شيرا فأكملت الأخيرة حديثها قائلة: «أتحبين كل ذلك الذي تتعرضين له؟»

- سيأتي خير الله ولو تأخر سنوات، سيأتي ولو بعد حين، قالت صفية.
- لست متعجبة من ثباتك يا صفية، لقد عاهدت ذلك الثبات من فتاةٍ من قبلك تُسمى مسلمة تؤمن بما تؤمنين به، وإنني يا صفية لا أستهين بذكاءك، ولن أدعي كما وعدتهم أنني على

إيمانك لأعرف منكِ ما الذي حدث في قصتك تحديدًا، إنما أنا أريد مساعدتك بأية وسيلة لإخراجك من تلك المعاناة، حقيقة الأمر أنا لا أقتنع بإيمانك المحرض على العبودية، إنني لطالما كرهت القيود، إنما أيضًا أنا أكره كل ما لا يمت للإنسانية بصلة، ولدي قناعة تامة أن ما تتعرضين له لا يليق بكونك إنسانة، قالت شيرا.

- بالمنطق عليَّ ألا أصدقك بعدما رأيت ممن تنتمين إليهم كل ذلك القهر، أما عن قلبي فإنه يقول لي أن أسرد عليكِ الأمر.

وتنهدت صفية ثم قالت:

- إنني لا أؤمن بالعنف ولا بإراقة الدماء، لكن ما الذي عليكِ فعله إن لم تمتلكي قانونًا تستطيعن به أخذ حقك؟ فلقد قتل الشيخ ياسين دون أن يعطيه أحد حقه، وأهينت كرامتي وشرفي دون أن يُحرك قانونكم ساكنًا، إضافة إلى كل تلك الانتهاكات التي تحدث لنا من فقدٍ لأعضائِنا، ومهانةٍ لهويتنا العربية والدينية، الأوجع من ذلك أن تحدث لنا تلك الانتهاكات ممن ليس لهم الحق في ذلك الوطن، الوطن الذي لن يستطيع أحد تغيير حقيقته، وسنظل نحن نُعلِّم أولادنا أن ذلك الوطن لنا، وأنه فخر لنا أن يكون ديننا الإسلامي وهويتنا هي العربية، وأن المعتدين مهما طال بهم الزمن هنا فسنحاربهم وسنناضل من أجل استرداد حقنا ولو كان بيننا وبينه خطوة.



وأمام حديث صفية فكرت شيرا جيدًا فيما تقوله صفية، وفيما علَّمته لها السلطات الشيوعية، لقد كانوا كل يوم يُدرسون لهم أن ذلك الوطن حقهم، ولقد قارنت بين إيمان صفية الشّديد بوطنها وبين ألدو الذي يريد الرجوع حيث كان؛ وذلك لأن شيئًا في نفسه يحدثه بأن ذلك الوطن ليس وطنه وليس بمكانه حتى ولو طال الزمن، وقارنت بين إيمان صفية وإيمانها هي بذلك الوطن، وشعرت أنها لا تنتمي إلى ذلك الوطن ولو قالوا لها ألف مرة أن ذلك الوطن من حقها، هي ما شعرت يومًا بالانتماء إلا إلى أرضها السابقة التي هاجرت منها وهي طفلة، ولم تستطع شيرا أمام حديث صفية أن تسألها عن المزيد، إنها ما دخلت إلى صفية لتعرف شركائها كما وعدت ميشل، إنها ما رغبت إلا بمعرفة حقيقة الحادثة منها.

- سأقول بالخارج أنكِ كنتِ وحدك في عملك هذا، قالت شيرا وهي تربت على كتف صفية وهمت إلى الخروج من الزنزانة، لولا أن صفية استوقفتها وقالت:
- لتكوني صادقة أخبريهم أن الله كان معي، وهو الذي منحني القوة والصلابة لآخذ حقي، وأخبريهم أن الإيمان الذي بداخل أصغر شخصٍ فينا نستطيع به مقاومة الآلاف منهم.

ولما خرجت شيرا جلست صفية تبكي الظلم والقهر واللا حق الذي بوطنها، وبكت والدتها التي لا تستطيع أن تطمئن عليها ولو لمرةٍ واحدة قبل أن تفارق الحياة، إنها تشعر أنهم لن يطيقوا صبرًا عليها لأكثر من ذلك دون أن تتحدث عما يريدون معرفته، وحتى بعد معرفتهم هي متيقنة أن الموت سيكون حليفها، ماذا عليها أن تقول لهم أكثر



مما قالت؟ ولو أقسمت لهم ملء الأرض أنها لم يشترك معها أحد لن يُجدي معهم نفعًا، هم لا يعرفون الله، فكيف يصدقون من تحلف لهم به؟ إنهم حتى لم يصدقوها حين أخبرتهم أن والدتها لم تشترك معها في شيءٍ وهي صادقة، ففي يوم العملية أقنعت صفية والدتها أن تذهب لتطمئن على سمر ابنة الشيخ يونس، ولا تنسَ فضله عليها، ولترده له في ابنته بجبر خاطرها والسؤال عنها، واستغلت صفية الأمر وغياب وعي الجنود لترد شرفها وشرف كل فتاةٍ تعرضوا لها، وخاصة أن سيرة هؤلاء الجنود أصبحت ملء الوطن بوحشيتهم ضد فتيات المسلمين، ففي الفترة الأخيرة أصبحوا يوميًا يتعدون على فتاة أو اثنتين من المسلمات، وبالأسبوع قد يقتلون منهن أكثر من فتاةٍ إن اعترضت على أمرهم، ومن حين فعلتها لا تعرف شيئًا عن والدتها ولا عن مكانها، إنها اعتُقلت فور تنفيذ مهمتها بسبب الدورية التي كانت تمر ليلتها، ومن ثَمَّ انقطعت الأخبار عن كل شيء.



«الأوجع أن تنهار كرامتك في وطنك»

«قصص الشجاعة تُروى حين نموت لأجلها، والقصص البطولية لا يراها الآخرون إلا حينما يفقد المناضلون حياتهم من أجلها» هذه هي كلمات مسلمة التي كتبتها على جدار غرفتها ليأسها من صمتها، إنها لا تريد لفت الأنظار إليها حتى تشتد قوتها، ودخلت نعمة على صوت انهيار مسلمة قائلةً:ـ ما الذي حل بكِ يا مسلمة؟ سألت نعمة ابنتها بعدما احتضنتها.

- الذل والمهانة والكرامة المنسية في أوطاننا يا أمي، السرقة، أشعر وكأننا نسرق حين تدخل علينا المعلمة بسنت وتُخبرنا بما نُعلن عنه حين يسألنا أحدهم عن الذي تُدرسه لنا، وعلينا أن نكذب وأن نخبرهم أنها تُدرس لنا الحريات المطلقة، والبعد عن هويتنا وكأنه عار أن نصرخ في وجوههم لنعلن الحقيقة بوضوح، وأن نفتخر أن بسنت تدرس لنا كل ما يليق بديننا وهويتنا، وأنها دومًا تُعرفنا أن الوطن لنا لا لغيرنا، أشعر وأنني عليَّ أن أموت وأنا فخورة بنضالي ضد الظلم، وأن الموت أشرف لي من ذلك الصمت المميت الذي ينهش قلبي كل يوم.

وبكت مسلمة إثر بوحها بما في قلبها إلى والدتها، ثم عاودت الحديث وحدثتها عن ياسمين صديقتها في الإصلاحية، وكم تتمنى أن تدخل صف مسلمة، ياسمين التي إلى الآن لم تجد مدرسة تقبلها.

- أنتِ تعلمين يا مسلمة أن أمر اختيار طلاب صفك وصف يوسف بيد بسنت وباهر، وهما يختارونهم بعنايةٍ حتى لا ينكشف أمرهم ويعرف أحدهم أن هناك صفين من مدارس برهان يُدرس فيهما الدين الإسلامي والهوية العربية اللذين



أصبحا محرمين ليس في مدارس برهان فقط؛ وإنما أصبحت قاعدة على جميع المدارس، والفرق بين مدارس برهان والمدارس التي كانت فيما بعد تابعة لنا أن مدارسنا لا يدرس فيها قيم التحضر.

قالت نعمة ودخل باهر وبسنت عليهما وهما على تلك الحالة؛ فصدمهما ما وجدا عليه مسلمة من انهيار، ولما حكت لهما نعمة ما بها ما كان بيد بسنت إلا أن تُرضي حالة مسلمة النفسية؛ فوافقت على إدخال ياسمين صف مسلمة الدراسي، وذهبت إلى أهلها وعرضت عليهم الأمر، ولقد وافقوا بعد أن أعلنت لهم أنها ستتكلف بمصاريف المنزل وياسمين.

ومر العام الدراسي وشعرت بسنت كما باهر بشعور فخرٍ لأنهما يناضلان عمليًا في حماية هؤلاء الطلاب من الضغط النفسي والثقافي إن تركوهم لفكر الشيوعيين.



«لتتخذ الحب سلاحًا لإكمال ما آمن به»



كانا يرغبان في أن يقيما فرحًا كما سهيلة وياسين، إلا أن برهان صمم أن يقيم لابنته الوحيدة حفل زفافٍ على أعلى مستوى، لقد كانا يأملان أن يكون يوم زفافهما مع سهيلة وياسين اللذين قررا أن يكون اليوم جلسة مع الأهل والأحباء دون صخبٍ ودون أن يغضبا الله في شيءٍ مما لا يرضاه، وعلى العكس كان حفل بسنت وباهر فلقد أباح برهان فيه كل أنواع الخمور، ولقد ظهر أصدقاؤه من النساء بعري مخزي لكل مسلم غيور على دينه، ولقد فهمت بسنت كما باهر أن هناك بعض الأصدقاءً الشيوعيين ممن دعاهم برهان في ذلك الحفل، ولقد دخل عليهم مفيد سكرانًا، والأكثر خزيًا كانت قدرية التي ظهرت وهي متخلية عن حجابها وعن عفاف ملابسها، ولم تستطع بسنت تعليقًا، وبعد مرور ساعة من الحفل ادعت بسنت مرضها، وذلك ما قاله باهر لبرهان مقترحًا عليه أن ينسحبا هما من الحفل، وليُكمل هو حفله مع ضيوفه، وما كان لبرهان إلا أن يوافق على ذلك الاقتراح، ودخلت بسنت مع زوجها إلى غرفتها ليسجدا لربهما شكرًا وحمدًا، وليسكتا بعدها عن الكلام المباح مع إيمانٍ شديد منهما أن الأجمل ألا تتجاهل حبك أثناء نضالك للوطن، وأن تتخذ ذلك الحب سلاحًا لإكمال ما آمنت به.



«يدعون للإنسانية وقنابلهم علينا»

- ماذا فعلتِ مع صفية؟ قال ميشل فور خروج شيرا من زنزانة صفية.
- لم يكن معها سوى الإيمان، قالت شيرا.
- أي إيمان؟ قال ميشل.
- الإيمان بالكرامة والإنسانية وحقها الذي لم تنسَه، قالت شيرا وإثر كلماتها صرخ ميشل بها لشعوره أنها تدافع عن صفية، وعلى الرغم من أن شيرا كانت في دواخلها تؤيد كلام صفية لكنها تداركت الأمر أمام ميشل لما رأت في عينه الشر، معلنة له أنها تنقل الصورة التي سمعتها من صفية وليس ما تؤمن به هي شخصيًا.

عقب ذلك الحدث جاء ميشل مكالمة هاتفية تأمره بإحضار شيرا إلى مكتب رئيسه، وفعل ميشل كما أُمر لتجد شيرا أندرو بوجهها، ولقد سحبها من يدها بعد أن شكر رئيس السجن واعدًا إياه ألا تتكرر فعلة شيرا ثانية، وخرج بها إلى الشارع يأمرها أن تفسر له سبب ذلك العبث الذي تصرفت به.

- لم أستطع رؤية ألدو على تلك الهيئة وفي تلك الحالة النفسية السيئة، قالت شيرا.
- غبية وتستحقين السجن، ولولا أنني ما تحملت ما علمته من ألدو عنكِ وعن تصرفك الأبله ووضعك في السجن ما تدخلت، غبية وأنا أحبك، قال أندرو وهو يصفع شيرا على وجهها، ثم احتضنها لشدة خوفه عليها وهو يقول: «ماذا لو أنني لم أكن موجودًا وترجيت رئيسي ليتوسط للسلطات لإخراجك؟»،

وقبلت شيرا احتضان أندرو لها وقالت: «ليتنا ما كنا هنا، ليتنا بقينا هناك عند أرض ولادتنا، لنعود إلى حيث جئنا بعيدًا عن كل ذلك الأذى».

ـ لسنا بأذى يا شيرا، نحن هنا لنحافظ على ذلك الوطن الذي كافح من سبقونا لإنشائه، نحن هنا من أجل مدينتنا الفاضلة، قال أندرو ولم تُعلق شيرا على حديثه، إنها مضطربة، دواخلها لم تعد تركن إلى شيءٍ بعينه، الفضيلة بالنسبةِ لها أصبحت مشوشة بين ما يؤمن به أندرو وأهلها وما تراه هي وتسمعه من صفية ومن قبلها مسلمة وياسمين وغيرهم من الذين قابلتهم، بين الحق الذي يدعيه كل من في المدينة الفاضلة، وبين الدماء والقنابل والرصاص الذي لا يُعبر عن أيةِ إنسانية عرفتها بالفطرة، وعادت شيرا إلى منزلها بالخيبة، وإلى ألدو بالأسف وبقلة الحيلة التي لا تستطيع معها فعل أي شيءٍ له.



«لنتجاوز أزماتنا بالحب»



اليوم تضع سمر حملها، لم تكن تتخيل بعد كل ذلك الأذى الذي تعرضت له من قِبل قدرية واتهامها أنها لن تنجب أن يرزقها الله بعامر بكل تلك السهولة، وكان يوم وضع عامر يومًا عظيمًا بالنسبةِ لبكر الذي أقسم أن يربيه بكل ما أمره الله عز وجل، ولقد كان يتمنى بكر أن تكون قدرية معه أو على الأقل ليصل رحمه فيها، بكر الذي لطالما حاول وصلها لكنها وبكل مرةٍ كانت تضع شرط انفصاله عن سمر شريطةً لوصلها حتى بعدما تزوجت سهيلة، لكن بكر ما استطاع أن يهين امرأة وثقت به، وما كان بيده إلا أن يدعو لقدرية بأن يزيل الله كل تلك القسوة عن قلبها، بعد ذلك الحدث وفي قصر برهان كان الوضع كئيبًا كما لم يكن عليه من قبل؛ فلقد سمع برهان بسنت وهي تتحدث إلى أحلام عبر الهاتف وتبارك لها زواجها من كارم الذي وأخيرًا قرر أن يحتسب أهله عند ربه، وأن يتجاوز الأزمة بالحب، وأن يتزوج من الفتاة التي دق قلبه لها، لكن برهان لم يعجبه الأمر كما لو كان متخيلًا أن أحلام ستظل دون زواج ما دام هو ليس بحياتها، وأنها ستظل ملكًا له حتى ولو لم تكن على ذمته، ولم يكتفِ برهان بالغضب وإنما ذهب إلى دار كارم دون حياءٍ ليضربه كما لو كان سرق شيئًا ملكه، ولقد استشاط كارم حينما حاول برهان أن يمد يده على أحلام وأن يسحبها إلى خارج الدار غصبًا عنها، فما امتلك إلا أن يقاومه ويضربه كما لم يفعل مع أحدٍ من قبل، ليخرج برهان من دار كارم بعد أن توعده بالقتل، وعاد إلى قصره وشيطانه لا يفارقه، ولقد حاولت بسنت تهدأته دون جدوى، وحتى أنه لم يسمع إلى باهر هو الآخر كلمة.

- غبية تلك التي تفكر أنها ستجد رجلًا أعظم مني لتتركني من أجله، صرخ برهان بكلماته السابقة.
- لكنها وجدت رجلًا يتقي الله فيها ولا يعمل مع الشيوعيين ليزداد ثراءً، قالت بسنت ولم تتخيل قسوة كلماتها إلا بعد أن نطقتها، وصمت الجميع بعد كلماتها، ولقد قطع ذلك الصمت صوت برهان القائل: «أحرام عليّ وحلال عليكما؟»، وكادت بسنت أن تنطق الحقيقة لبرهان بقولها أنها لم تكن أبدًا إلا مع وطنها ودينها، لكن باهر أسكتها ووجه الحديث إلى عمه برهان بقوله: «ما يهمنا أن نظل بمستوانا المادي»، ولم يعر برهان لكلمات باهر وزنًا، كان كل همه وما يشغل تفكيره هو أحلام التي ضاعت من بين يده، ولقد سحب باهر بسنت ودخل بها إلى غرفتها يلومها على حديثها مع برهان الذي من شأنه كشف حقيقة عملها بمدارس برهان وغلق فصلي مسلمة ويوسف، ولقد انهارت بسنت في البكاء واحتضنها زوجها فقالت: «يؤلمنى أن يشترك أبي في عملٍ إجرامي كذلك من أجل الثراء، يوجعني ألا أرى فيه قدوة حسنة لي، يؤذيني أنني لا أستطيع انتشاله من ذنبه، وأن أتركه على ما هو عليه لخوفي الشديد من أن يؤذي طلابًا لا حول لهم ولا قوة.

ولم يستطع باهر أمام كلمات بسنت إلا الدعاء لبرهان ليخرجه الله مما هو عليه.



«أخاف الموت الذي يبعدني عن الله»



«الصيام وتربية اللحى والحجاب، كل تلك الأشياء التي يظهرها البعض تُظهر الوطن بصورة غير متحضرة، وعلى كل الذين يرتكبون تلك الحماقات التوقف عنها»، ذلك هو البيان المؤكد لكل البيانات الشيوعيية السابقة، والتي تعني العقاب الرادع لكل من لم يتبع التعليمات، وذلك الخطاب كانت شيرا قد سمعت مثله كثيرًا فيما قبل، لكن تلك المرة كان ذلك الخطاب مختلفًا بالنسبةِ لها إن البيان كان مذاعًا بصوت أندرو، أندرو الذي أقسمت عليه أن يتوقف عن الأعمال الغير إنسانية لكنه لم يفعل رغم حبه الشديد لها.

عقب ذلك البيان بثلاثة أيام جاء شهر رمضان الفضيل، ولقد كانت تؤمن مسلمة أنه الشهر الذي تستطيع فيه التحدث إلى الله بطهارة قلب وقرب، وكأن السماء تفتح أبوابها إليها لينظر الله لها ويسمع كل ما تقوله، وعليها وفق البيانات التي تسمعها عبر الإذاعة والتليفزيون يوميًا ألا تخرج إلى الشارع وهي صائمة أو تدخل الحافلات وهي محجبة، لكنها على الرغم من ذلك وفي اليوم الثاني من الشهر الفضيل انتوت الذهاب إلى مدرستها، ودخلت الحافلة مع ياسمين، واستُوقفت الحافلة من قِبل بعض الجنود مع رئيسهم أندرو، وجاء بالماء إلى كل الركاب؛ فشرب أغلبهم إلى أن جاء دور ياسمين التي رفضت في بداية الأمر سماع الأوامر إلى أن صوب الجندي بندقيته في رأسها فشربت، وجاء دور مسلمة فنظرت إليه بثباتٍ وأبعدت يده التي تحمل الماء، وأمسكت بيده التي تحمل البندقية وقربتها من رأسها ثم قالت له:

ـ لا يهمني الموت، لتضغط على رصاصتك فأنا لا أهابها.

ـ ألا تخافين الموت؟ قالها أندرو وهو ينظر إليها بشرٍ.



- أخاف الموت الذي يبعدني عن الله، والموت في سبيل إيماني قُرب من الله وتعاسة لك؛ لأنه يبعدك عن فطرتك السليمة، وإنسانيتك وسلامة قلبك وهدوء دواخلك، قالت مسلمة وكلماتها نفذت إلى قلب أندرو، لكنه سرعان ما تجاوزها ثم شق ملابسها لتظهر عورتها وليهين كرامتها قبل أن يُنفذ فيها الموت، وحينها قام من مجلسه يوسف الذي حاول إبعاد أندرو عن مسلمة، فما كان جزاؤه إلا الضرب بظهر بندقية أندرو في عينه ورأسه؛ فأُغشيَ عليه، وحينها أقام أندرو مسلمة من مقعدها وسألها عن اسمها فأجابته بنفس الثبات: «في الموت لا فرق بين اسمي واسمك».

انهار أندرو مما قالته ومن ثبات مسلمة وأنزلها من الحافلة، فخشيت ياسمين أن تنطق بكلمة اعتراض، ودفع أندرو مسلمة من الحافلة فسقطت أرضًا وسالت الدماء من جانب عينها وفمها ويدها، وثبتت أعين من في الحافلة على الحدث خارجها ليروا ما الذي سيفعله أندرو بمسلمة، واجتمع المارة من حولهما ومنعوا الجنود من الاقتراب، وقالت مسلمة الشهادة بصوتٍ مسموع؛ فانهال عليها أندرو ضربًا، وظل يسبها وسط مسمع الجميع متوعدًا إياها بعقابٍ أقسى من الموت، في تلك الأثناء أفاق يوسف من غيبته ونزل مسرعًا من الحافلة، ولم يجد طريقة للاعتراض على تصرف أندرو إلا أن يدب بقدمه على الأرض، وفعلت ياسمين من خلفه مثلما فعل، وتشجع الكثيرون من الواقفين؛ فقاموا بنفس التصرف حتى كونوا حلقة بداخلها أندرو وجنوده إضافة إلى مسلمة، ويشاء الله أن يدب الرعب في قلوبهم من تصرفٍ كذلك



الذي فعله يوسف؛ ليصرخ بهم أندرو آمرًا إياهم أن يفتحوا الطريق ليخرج من الدائرة مهزومًا هو وجنوده، ثم من بعدها ستر يوسف مسلمة بقميصه وتوجهوا إلى البيت، ولكم أن تتخيلوا كم الوجع الذي شعرت به نعمة حينما علمت بما حدث لابنتها، حتى أن صوت بكائها أوجع من حولها وبكوا على بكائها، وما كاد صوتها يصل إلى غرفة مهجورة داخل المنزل حتى خرجت من تلك الغرفة امرأة تجري نحو نعمة لتسأل عما بها، وانتبه الجميع إلى المرأة ليعرفوا أنها والدة صفية، ليندهشوا من أنهم كل يوم في بيت نعمة لكنهم يومًا لم يشعروا بوالدة صفية، ولقد سردت لهم والِدة نائل كيف أن نعمة أدخلتها إلى البيت بعدما خرجت والدة صفية من عند سمر، نعمة التي سمعت من كارم يومها ما حدث لصفية، وأن السلطات تتوعد والدتها حتى يستطيعون إجبار صفية على الحديث، فترقبتها نعمة ووالدة نائل وأدخلتاها المنزل وأفهمتاها بأن عين العقل هو عدم الظهور، وأنه من الحمق أن تخرج لتموت، وأنهم من المستحيل إخراج صفية حتى لو سلَّمت هي نفسها إلى السلطات، ولم تبُح نعمة بأمر والدة صفية لأحدٍ منهم لسببين؛ أولهما ألا يدب الخوف والقلق في قلوبهم، وليستطيعوا إتمام مهامهم في هدوء، والثاني خوفها من أن يتحدثوا إلى بعضهم البعض فلا تسلم العواقب من أن يسمع أحدهم بالقول غصبًا عنهم، ولا تأمن عاقبة ذلك، ولما علمت والدة صفية بما حدث لمسلمة اقتربت منها وهي تقول: «إن مع العسر يسرًا يا بُنيتي، وسينجلي ذلك الظلام يومًا، انسِ كل ذلك الذي حدث ولا تيأسي، واستعدي ليوم ينجح فيه جهادنا ضد ذلك الظلم»، وأومأت مسلمة برأسها آملة أنً يكون حديث والدة صفية حق، وأن ينجلي الظلم يومًا.



لما ترك أندرو مكان مسلمة ظل يتذكر أين رأى ذلك الوجه من قبل، لكنه لم يستطع أن يتذكر أنه التقى بها في المدرسة العسكرية حين كانت تذهب هناك لخدمته وأقرانه، وتعكر مزاج أندرو لرغبته في تأديب تلك الفتاة وذلك الفتى الذي دافع عنها، حتى أن أندرو لم يستمع إلى شيرا التي أعلنت له أن الذي حدث هو الخير حتى لا يُلوث فطرته بدماءٍ أخرى، بل إنه بخ غضبه في وجهها وتركها وذهب لا تدري هي إلى أي قبلة.

في مساء ذلك اليوم عاد كارم إلى نعمة واستأذن أن يسأل مسلمة عن مواصفات الرجل الذي تعرض لها؛ فوصفته مسلمة وتيقن كارم أنه أندرو نفس الشخص الذي قتل والدته وكان سببًا في موت والده، ولما تيقن من الأمر غادر منزل نعمة دون كلمة، ودون أن يجيبهم على تساؤلاتهم حول اهتمامه بوصف ذلك المعتدي.



«واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله»



اليوم قرر برهان التخلي عن عقله وإنسانيته؛ ففي الفترة الأخيرة ظل يراقب أحلام وكارم إلى أن اكتشف أنهما إضافة إلى بكر يجتمعون مع مجموعةٍ من شباب المسلمين لتوعيتهم ضد تعليمات الشيوعيين في منزل كارم كل جمعةٍ في التاسعة مساءً، ولقد فرح برهان بما عرفه لأنه يُدرك جيدًا عقوبة عمل كذلك الذين يقومون به لو علمت به السلطات الشيوعية، وفكر برهان أن يبعد مفيد عن الأمر نهائيًا تخوفًا منه أن يقف عقبة بينه وبين ما ينتوي عليه من الإبلاغ عنهم؛ وذلك لأن أحلام ضمن هؤلاء الذين سيقوم بالتبليغ عنهم، ورغم أن مفيد هو طريق برهان الوحيد للوصول إلى السلطات الشيوعية إلا أنه لم يتوقف عند تلك النقطة كثيرًا، وفكر برهان مباشرة بوجيدة المشرفة التي قد كُلِّفت منذ سنتين بالإشراف على مدارسه، لكنها فجأة انقطعت عن ذلك العمل، ولما سألها عن ذلك علم منها أنها كُلفت كمديرةٍ لمدرسة الإصلاحية بعد رحيل المديرة السابقة، وأن ذلك لن يجعلها تستطيع الجمع بين عملها في الإصلاحية والإشراف على المدارس الأخرى، ولقد استعد إلى الذهاب إليها وطلب مقابلتها، ولما وافقت سرد لها كل ما يعرفه عن مقر كارم وترك لها مهمة إبلاغ السلطات.ثلاثة أيام من مقابلة برهان لوجيدة وداهمت السلطات منزل كارم في يوم الجمعة الموافق الحادي عشر من نوفمبر، لكنهم لم يجدوا شيئًا عنده، فقد دخلوا ووجدوا أحلام تجلس مع كارم لتناول وجبة العشاء مصدومين من أن الإخبارية التي قامت بها وجيدة غير صحيحة، وجيدة التي لم تستطع نطقًا حينما سألوها عن تأكدها من مصادرها قبل الإبلاغ عن شيءٍ من شأنه إضاعة وقت السلطات.

- أنتِ تدركين عقوبة الإبلاغ عن شيءٍ من شأنه إضاعة وقت السلطات ودون التأكد من صحته، قال المحقق موجهًا حديثه إلى وجيدة.
- لكنني لم أقصد أبدًا ذلك الخطأ، أنتم تدركون ولائي الشديد للسلطات، قالت وجيدة.

لكن المحقق لم يستمع وقرر فصل وجيدة من العمل فصلًا نهائيًا، لم يستمع إلى أي مبررٍ ولم تتخيل هي أنه وبعد كل ذلك الولاء تُفصل كهذا دون أدنى التماسٍ لعذرٍ منها، وعليها الآن أن تعود للحياة المدنية، وأن تخرج إلى الشارع وهي التي خسرت كل من لها خارج المدرسة العسكرية التي كانت تبيت فيها لسنواتٍ عديدة، وخرجت وجيدة وما هي إلا ساعاتٍ حتى دهستها سيارة وانتقلت إلى المستشفى، المستشفى التي لم تقبل حالتها، فكلما سمع الاستقبال اسم وجيدة رفضت الحالة، كانت وجيدة تُدرك جيدًا أنه لا مستشفى ستقبلها، وأن تلك تعليمات السلطات، وأن السيارة التي دهستها ما هي إلا وفق تعليمات السلطات، إنها تدرك جيدًا أنهم لم يكونوا ليتركوها لتعيش حتى لا تُخرج أسرارهم إلى أحد، قوانينهم قاسية؛ فمن يخرج منهم لا يكون على قيد الحياة ولو ليوم واحد، واليوم وجيدة موضوعة على رصيف الشارع لا أحد يقبلها ولا أحد معها، اليوم تموت وهي تُدرك جيدًا أنها ظالمة، وتُدرك أن جسدها من الممكن أن يتعفن دون أن يقوم أحدهم بدفنه، وتوفيت وجيدة بعد ساعاتٍ قليلة من إلقائها على رصيف المستشفى، توفيت وهي تقول: «اليوم ألقى جزاء كل ما اقترفته بحياتي من ذنب، اليوم أخجل من أن أقول لربي أن يغفر لي، اليوم أنا الخاسرة التي خسرت



نفسها في الدنيا والآخرة، اليوم أنا أعرف معنى قوله تعالى: «واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله»».

ولقد شُيع خبر وفاة وجيدة في الوطن، وكيف أنها توفيت على الطريق كحيوانٍ لا أصل له ولا أحد، ولما علمت مسلمة صمتت عن التعليق، إنها غير شامتةٍ بها، إنها مشفقة عليها رغم كل ما اقترفته بحقها من أذى، مشفقة عليها لأن الله لم يمد لها يده ليخرجها من الظلم إلى الحق قبل موتها.



«لا كلمة نفعت معها لكثير حزنها»



لم يعجبه أن يهزم بذلك الشكل؛ أن يخرج كارم وأحلام منها كما لو أنهما لم يفعلا شيئًا، وأصبح شغل برهان هو معرفة السر وراء عدم إقامة كارم وبكر اجتماعهما الأسبوعي، لم يكن يُدرك أن أقرب الناس إليه هما السبب في جعلهما يأخذان حذرهما، إنهما بسنت وباهر اللذين سمعا برهان يتحدث إلى وجيدة في الهاتف، لم يكن الأمر مريحًا بالنسبةِ لهما خاصة أن برهان أظهر لهما غضبه الشديد من فعلة أحلام، ومن وجهة نظرهما أنه لا يفكر في شيءٍ سوى في الانتقام، الانتقام تلك الكلمة التي جعلت أناس يخسرون أعمارهم بسببها، واتفقا كلاهما على محاولة معرفة الأمر، ولم يكن الأمر سهلًا بالنسبة إليهما، فلما راقب باهر برهان لم يستطع سماع ما قاله إلى وجيدة؛ فلقد كان الاجتماع داخل مدرسة الإصلاحية، وعلى الرغم من ذلك راقباه ثانية حتى سمعته بسنت يؤكد في الهاتف على وجيدة أن مداهمة منزل كارم تكون يوم الجمعة في التاسعة مساءً، ولم تتردد هي وزوجها من تحذير كارم، بكت بسنت طويلًا لشعورها أن الجميع ينظر لوالدها نظرة سوء، ولم تقتنع بكلماتهم عن أنهم يرون أن برهان مبتَلى بالكبر وحب الثراء كما مفيد، لكن لا كلمة جاءت بجدوى مع كثير حزنها، ولقد عانى الجميع في أخبار الشباب الذين من المفترض الاجتماع بهم في توصيل معلومة إلغاء الاجتماع، إنهم لا يهاتفون أحدًا خوفًا من أن هواتفهم تكون مراقبة، وكانت مسلمة إضافة إلى يوسف الدرع الأساسي لهذه المهمة، وأتماها على أكمل وجهٍ عبر توجيهات كارم وبكر، وسترهم الله جميعًا لجميع صنعهم، ولأنهم لا يريدون إلا الحق وحفظ كرامتهم ووطنهم من كل شرٍ للشيوعيين، وإثبات هويتهم أمام كل هؤلاء الذين يودون سلبها منهم؛ لمساعدتهم الله.



لم يكتفِ برهان بذلك الأذى، ولم يتوقف عن البحث عمن كان سببًا في إتمام ما رغبه.

وبعد ذلك الحدث بأسبوعين من مراقبة برهان لكارم وأحلام هيأ له شيطانه أن يطعن كارم في صدره بسلاح أبيض، وراقبهما حتى عرف أنهما يزوران رضوانة يومًا بعد يوم، إلى أنً جاء يوم كان الجو فيه عاصف يميل إلى نوة من المطر، وتوقع أنهما لن يخلفا موعدهما مع رضوانة، وأن ذلك هو اليوم الأنسب؛ فالمارة قليلون بسبب عوامل الجو، وجاء برهان لكارم يود طعنه؛ فتدخلت أحلام ودفعته فجاءت الطعنة بها وسالت دماؤها، وما استطاع كارم الإمساك ببرهان لأن همه كان أحلام وإنقاذها، فحمل كارم أحلام على كتفه وتوجه إلى دار سمر التي اعترفت أنها تريد مساعدة ياسين معها لخطورة الحالة، ولم تتأخر مسلمة في الذهاب إلى ياسين تستدعيه معلنة له خطورة حالة أحلام، ودخل ياسين مع سمر غرفة العمليات المجهزة بأقل التكاليف، لكنهم خرجا معلنين للجميع أن الأمر خطير ويحتاج إلى مساعدة إحدى المستشفيات المجهزة، ساعتان يحاولون مع المستشفيات دون جدوى لعدم قدرتهم المادية، ولما وجدت مسلمة الخطر يحاصر أحلام تشجعت رغم وصول الساعة إلى الحادية عشر مساءً، وتسللت من بينهم وتوجهت إلى بيت مفيد الذي فتح لها، ولما وجدها صرخ بوجهها لكونها أزعجته، ولم يهمها صراخه وقالت: «لديَّ حق عندك واليوم أريده»، فقهقه مفيد من كلمات مسلمة، إنه قديمًا لم يكبر للشيخ يونس ولا لرضوانة ولا لنعمة، والآن ومن وجهة نظره أنه من العته أن تحدثه مسلمة في ذلك الأمر.

- «ليس لدي شيء لك، وعليكِ الآن مغادرة المكان»، ودفعها وكاد يغلق الباب بوجهها فباغتته بقولها: «أريد المال لأجل إنقاذ أحلام من الخطر، إنها بين الحياة والموت، أنا أعلم أنك تعيش لسلطة المال، وحتى أولادك الثراء بالنسبة لك أهم منهم، وأريد مالي وحقي في ميراثي من أبي ولن أبخل به أنا على أحلام».

وصمت مفيد أمام الصدمة التي أعلنتها له مسلمة، وحاول كثيرًا معرفة تفاصيل الأمر منها، لكنها رفضت أن تنطق بكلمة إلا بعد أن يعطيها المال، ولما عاندته مسلمة قرر أن يذهب معها ليرى ابنته وما حدث لها، وحاولت قدرية إيقافه عن الأمر لكنه دفعها وهرول متجهًا نحو أحلام، وأول ما وجد هناك وجد رضوانة، رضوانة التي هاتفتها نعمة لتكون إلى جوار ابنتها، ولما رأت رضوانة مفيد اشتبكت معه وهي تصرخ بوجهه وتقول:

- إن حدث لابنتي مكروه فستكون أنت الجاني الأول في ذلك الموت، وحينها لن يكفيني فيها موتك.
- لقد أحضرت المال من أجلها، قال مفيد.
- لا أريد مالك، قالت رضوانة وهي تصرح بوجهه.

وهنا تدخلت مسلمة في الحديث قائلة:

- إنه يا خالة ليس ماله، إنه جزء من مال أبي، إنه مالي ومال أمي، المال الحلال الذي تركه عمران قبل لقائه لربه.



وصمتت رضوانة أمام كلام مسلمة، وحمل كارم أحلام وعاد بها إلى المستشفى ودفع مفيد رسوم الدخول، وشعر أنه بين لحظةٍ وأخرى سيفقد ابنته، والذي جعل مفيد ينهار أكثر هو يوسف الذي دفعه حينما حاول الاقتراب منه قائلًا:

ـ كل ذلك الأذى الذي حدث لأحلام هو نتيجة تصرفاتك، لن أسامحك إن حدث لأختي مكروه.

واليوم ولأول مرة منذ سنواتٍ طويلة يسيل دمع مفيد الذي ترك المستشفى متوجهًا نحو قصر برهان لينتقم منه جزاء ما فعله بابنته، وتهجم مفيد على برهان وأقسم عليه أنه سيقتله جزاء ما فعله بابنته، ولما تدخل باهر لفض النزاع بينهما غادر مفيد القصر وهو يتوعد برهان أنه لن يتركه، وحينها دب الرعب في قلبه متخوفًا من أن ينفذ مفيد تهديده؛ فتوجه إلى مكتبه وأخرج مسدسه وهرول نحو مفيد الذي كان على بوابة قصره وأطلق عليه الرصاص من ظهره فسقط أرضًا وتوفى باللحظة ذاتها.



«في دول الاحتلال لا قانون فوق قانون المصلحة»



لم يكن هناك في ذلك الوطن سوى قانون المصلحة، وما دام الشيوعيون لديهم مصلحة فسيتغاضون عن أفعالك وقتلك وأذيتك للآخرين ما دام ذلك الأذى بعيدًا عنك، ولما علم الشيوعيون ما حدث لمفيد على يد برهان خشوا أن تتوقف مصالحهم في مدارس برهان، تلك المدارس التي أصبحت الأولى في البلاد التي تؤدي مهماتها على أكمل وجه، وتُحقق أهدافهم على أعلى مستوى، ولقد أخرجوا برهان من تهمة القتل العمد بحجة الدفاع عن النفس، هذا بالنسبة لجريمته في مفيد، أما جريمته في أحلام فقد قالوا عنها أنها ما دامت أفاقت ولم يحدث لها مكروه، وأن تلك الحادثة كانت نتيجة شجار بين برهان وكارم فلا جناية على برهان، وخرج برهان من تهمةِ مقابل إتمام مصالح الشيوعيين، وليحل محل مفيد في الوساطة مع غيره لينجزوا أهدافهم بسهولة.

أخذ الله بيد أحلام وأنقذت من الموت بأعجوبة، لكنها فقدت ابنها الذي لم تكن تعلم أنه برحمها، وهدَّأها كارم وأخبرها أن الله سيعوضها عنه قريبًا غير بعيد، وأن الذي أنقذها من الموت سيمد لها يد رحمته ورزقه ليرزقها بما تتمنى، وسكنت أحلام لكلمات زوجها الذي حدثها أيضا عن الدعاء لوالدها بدلًا من ذلك الحزن وشعورها بالذنب كونها السبب فيما حل به، ولقد حكى لها ما فعلته مسلمة مع مفيد، ولقد أقرت أحلام بحق مسلمة ونعمة وميراثها من والدها عمران رحمة الله عليه، وتخيلت أحلام أنها لن تجد صعوبة في رد الأمانة لصاحبتها، لكن الجميع تفاجؤوا بقدرية التي أعلنت لهم بوضوح أن برهان كتب كل ما يملكه باسمها، وأنهم ليس لديهم حق عندها، وحاول بكر كثيرًا مع أمه أن ترد الحق لأصحابه وألا تسمع لشيطانها مفهمًا إياها أن استحلال



الحرام لا بركة فيه ولا يدوم، وأن الحياة كلها لا تدوم لأحد، لكنها في النهاية تمسكت برأيها وعاندت الجميع ونفسها من قبلهم حينما تمسكت بما لا يرضاه الله.



«لتستطيع أن تحب عليك محاولة حب نفسك أولًا»



أنهت شيرا دراستها بالثانوية ومقبلة هي على دخول الجامعة، لم يكن بخاطرها سوى دخول كلية الحقوق، لكن ذلك من المستحيل أن يحدث وفقًا لقوانين المدينة الفاضلة، وأعلنت قرارها للجميع، لن تدخل جامعات وستكتفي بهذا القدر من التعليم، إنها لن تقبل أن تدرس ما لا ترغبه جبرًا لمجرد أن ذلك قرار السلطات، الأمور بالنسبة إليها ليست كما عند الجميع، هي ما زالت وإلى الآن لم تعتَد أن تنصت إلى القوانين ما دامت تلك القواعد على غير تفكيرها، لامها أندرو على ذلك القرار، لكنها لم تستمع إليه ونفذت شيرا ما أملاه عليها عقلها وقلبها، وبعد ذلك الحدث امتثلت شيرا للمحاكمة بسبب عدم التحاقها بالتعليم الجامعي خاصة وهي خريجة المدرسة العسكرية، ولم تخف شيرا من المحاكمة، وباغتتهم بإيمانها أن قوانينهم فاسدة، وعلى المرء حتى يحترم كرامته ألا يتقبل كل ما هو فاسد.

- المرأة أقل من أن تدخل كلية الحقوق، وعقلها أضعف من أن يستوعب العدل والحق، قال القاضي.
- العقل هو ألا تحكم على رجاحة عقل غيرك دون أن تُقدم دليلًا واضحًا لما تقول، بثبات قالت شيرا، وبُهت القاضي من عظمة الرد ولم يستطع جدالًا، حتى أنه أجل الجلسة لمدة ثلاثين يومًا حتى ينظر فيها مرة أخرى، وانتشر ما حدث بالمحكمة في أرجاء البلاد، لكن أحدهم لم يحرك ساكنًا، وخلال الثلاثين يومًا شعرت السلطات أن أجواء البلاد ليست في صالحهم، وأن مواطنيهم قد اختنقوا من القوانين الصارمة المفروضة عليهم، وحالة الغضب تلك جعلتهم يصدرون

بعضًا من القوانين الاستثنائية من بينها ترك من أنهى التعليم الثانوي وحريته في إكمال دراسته أم لا، وبذلك لم تعاقب المحكمة شيرا ومن مثلها على جريمة عدم دخولهم التعليم الجامعي، إضافة إلى ذلك كان هناك قرار استثنائي ليعبِّروا به عن احترامهم للمرأة، فلقد أصدرت السلطات بعد أن أشيع أنهم لا يحترمون المرأة قرارًا بقبولهم فرد من أسر الشيوعيين للعودة إلى بلادهم الأصلية والخروج من المدينة الفاضلة دون اعتراضٍ على أن يكون ذلك الفرد منتميًا للإناث، ولم تتأخر شيرا في تقديم الأوراق الخاصة برغبتها للعودة إلى بلدها الأصلي، ولما علم أندرو بذلك الحدث ازداد غضبًا، حتى أنه صفعها على وجهها متهمًا إياها أنها لا تقدس الحب.

- لتستطيع أن تحب غيرك عليك أن تحاول أن تحب نفسك أولًا، وأنا لا أستطيع حب نفسي في ذلك الجو المأساوي الغير إنساني، قالت شيرا وهي تضع يدها على خدها الأيمن من شدة اللطمة، وغادرها أندرو متوعدًا إياها أن يبذل قصارى جهده ليمنع سفرها حتى لا يفلت حبها من يده.

في مساء ذلك اليوم تلقى أندرو اتصالًا هاتفيًا من رئيسه يُكلفه بفض أي مظاهر للاحتفال بعيد الفطر من قِبل المسلمين ولو بالقوة، وسعد أندرو بما كُلف به لأنه يدرك جيدًا أن تكليفًا كهذا وبسنه هذا سيؤهله فيما بعد ليكون قائدًا لتلك المدينة الفاضلة بأكملها، وجهز أندرو جنوده ولقد مارسوا إرهابهم للمسلمين في صبيحة اليوم التالي، والكثيرون في مناطق كثيرة عادوا إلى منازلهم دون أن يقيموا صلاة

العيد التي هي أول مظهر من مظاهر الاحتفال بالعيد، ثم من بعد اقتراب أندرو وأعوانه من المنطقة التي تعيش بها مسلمة ويوسف إضافة إلى بكر وكارم والذين كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على الذهاب إلى الصلاة في مسجد الحمد، وأثناء تكبيرات العيد وجدوا صوت البنادق ملء المكان، ثم سمع الرجال صوت النساء تصرخ من مصلاهنَّ فهبوا كرجلٍ واحد متحدين ليروا ما الذي يحدث، وما إن دخل بكر وكارم حتى وجدوا الجنود يُخرجون النساء بالقوة والضرب والإهانة إلى خارج المسجد آمرين إياهنَّ بالرجوع إلى ديارهن، والتفت كارم إلى يمينه فوجد أندرو يمسك بمسلمة وهو يقول لها:

- منذ أن تركتك يوم الحافلة وأنا أبحث عنكِ، اليوم لا مفر لكِ من يدي.

وتذكر كارم قتل أندرو لأمه ولغيرها ممن لا ذنب لهم في شيء، فاقترب من أندرو حينما شعر أن الجنود منشغلون بإخراج السيدات والرجال الذين جاءوا لإنقاذ ما لهم من نساءٍ وقال: اترك مسلمة وشأنها، قال كارم وهو ينظر إلى أندرو بثباتٍ.

- ضعيف أنت كأمك التي قتلتها أمام الجميع، عليك الابتعاد فأمثالك ليس لهم رأي ولا أمر، قال أندرو.اقترب كارم من أندرو، وما إن فعل حتى أطلق أندرو رصاصة بقدم مسلمة فصرخت من شدة الألم، وما إن فعل حتى وجد أحدهم يقذفه من خلفهِ بزجاجةٍ جاءت برأسهِ فاختل توازنه وسقطت بندقيته، لكنه رغم ذلك أمسك بمن قذفه بها، وكان يوسف الذي تسلل إلى غرفةٍ صغيرة داخل مصلى السيدات كان يحسب بها

مسلمة، ولما سكن الأمر وخرج بكر بالنساء ظل هو يبحث عن
مسلمة حتى سمع صوت كارم يأمر أندرو بترك مسلمة.

أمسك أندرو بيوسف من رقبته وكاد أن يقتله، ورغم محاولة كارم بالقول أن يتركه لم يسمع أندرو له قولًا، فوجد كارم نفسه يستخدم بندقية أندرو ليُطلق منها رصاصة لتأتي في صدر أندرو ليُنقذ بها يوسف ويشفي صدره مما فعله أندرو بوالدته وبغيرها من النساء ممن لا حول لهنَّ ولا قوة، وخرج كارم بمسلمة وبيوسف المفزوعين من قسوة ما حدث تاركًا أندرو كما هو، وما إن خرج بهما حتى وجد المسجد محاطًا بالجنود، ومنهم من يبحث عن قائدهم أندرو، وحينها اختفى كارم بمسلمة ويوسف خلف درج السلم، وأحاطوا أنفسهم ببعض الأخشاب القديمة التي قد وضعت لأعمال الإصلاح بالمسجد، ولما صعد الجنود إلى مصلى النساء وجدوا أندرو قد فارق الحياة؛ فنزلوا به وأخلوا المكان، وحينها استطاع كارم العودة إلى الدار بمسلمة ويوسف؛ فوجدوا الجميع ينتظرونهم في حالةٍ من الرعب لتأخرهم إلى ذلك الوقت، وقد حدثوهم بما حدث فصمت الجميع إلا والدة نائل التي قالت: «اليوم يحزنون كما حزنا نحن طويلًا».



«كل تلك المعاناة التي تشعر بها سببها اللا إنسانية»

لم تكن تتخيل أنها ستفقد الشخص الوحيد الذي شعرت معه بالحب، الحب الذي كان يجعلها تستطيع تجاوز كل ذلك الذي لا ترغبه وكل تلك المعاناة التي تشعر بها، لقد انتشر خبر موت أندرو في الدولة كما النار في الهشيم، أندرو المعروف عنه صلابته وقوته وذكائه، أندرو الذي كان من المتنبأ له أن يمسك حكم المدينة الفاضلة بعد سنوات ليست بالكثيرة، انهارت شيرا وكلما تعرض لها أحدهم لتهدأتها وصفته بالأحمق؛ لأنه يُصدق أن أندرو قد مات، ثم من بعدها تلعن الدماء والحرب واللا إنسانية التي جعلتها تفقد حبيبها وصديق طفولتها والرجل الذي لطالما تمنت أن ترافقه طوال عمرها، كرهت ذلك الشيء الذي لا تستطيع أن تقتنع به وهو التعدي على أوطان غيرهم، ومهما أقنعوها في المدارس أن ذلك وطن أجدادهم المغتصب، وأنهم يحاولون بقوة أن يرجعوه لن تقتنع، إنها لن تنسى ذلك اليوم الذي قرر فيه أبواها الهجرة إلى المدينة الفاضلة فقط لأجل المال، وما دام دخل المال في الأمر فمن وجهة نظرها لا قداسة لشيء، ولا إيمان بأن لك حقًا أصيلًا.

بعد حادث أندرو بما يقترب من الخمسة عشر يومًا جاءت لشيرا رسالة عبر بريدها الإلكتروني مفادها أن تذهب إلى السلطات المسئولة عن طلب سفرها وعودتها إلى بلدها الذي ولدت فيه، ولم تتأخر شيرا في تنفيذ الأمر، وفي تمام الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ذهبت شيرا إلى المكان الذي حددوه لها في البريد، لم تكن أول الحاضرات، ولم يكن العدد بالقليل؛ فالكثير من الفتيات يرغبن في العودة حيث جئنَّ، ولم يكن استدعائهنَّ للحضور أمام السلطات أمرًا عبثيًا أو لإنهاءٍ روتيني للأوراق، كان ذلك الحضور من أجل الإجابة على بعض أسئلة السلطات،

ومن ثمَّ معرفة النتيجة النهائية لطلبهن، وجاء دور شيرا ودخلت إلى غرفة المقابلة، فوجدت ثلاثة رجال عسكريين في انتظارها، وسألها أكبرهم رتبة:

- نحن نعلم أنكِ كنتِ على علاقة وثيقة برجلنا أندرو.
- نعم، أجابت شيرا.
- نحن لا نصدق أنكِ ترغبين في العودة، قال أصغرهم رتبة.
- تلك رغبتي، أجابت بذكاءٍ ودون أن تطيل في الشرح.
- كنا نعتقد أنكِ ستغيرين رأيك بعد أن رأيتِ ما حدث لأندرو لتأخذين حقك ممن فعلوا فيه الذي حدث، نحن نرغب في أن تدخلين الكلية العسكرية عوضًا عن ذلك الذي تعرض له أندرو وهو يمارس عمله من أجل الحفاظ على مدينتا، قال أكبرهم رتبة.
- تقصد أنتقم منكم؛ لأن ما حدث لأندرو ما هو إلا تحريض منكم لتسلبوا منه إنسانيته، ثم يتجرأ هو على أناس لم يتعرضوا له في شيء، لقد كانوا فقط يمارسون هويتهم الدينية بالاحتفال بعيدهم، قل لي ما الجُرم الذي ارتكبوه لترسلوا لهم أندرو ليقتل هناك لتحرموني منه ما تبقى لي من عمر؟ بثباتٍ ردت شيرا.

إثر مباغتة شيرا لهم بردها انفعل أوسط الرجال الثلاثة رتبة وكاد أن يقوم من مجلسه ليصفعها ويطردها خارج المكتب، لكن رئيسه أوقفه عن ذلك التصرف، ثم نظر إلى شيرا الواقفة بصلابةٍ قائلًا:



ـ عليك أن تجهزي نفسك، سيكون لكِ مقعد بعد ثلاثة أيام من اليوم على طائرة السادسة صباحًا العائدة إلى بلدك الذي ولدتِ فيه، أما وطن أجدادنا فنحن لدينا القدرة على الدفاع عنه.

وما إن خرجت شيرا حتى استفسر الرجلان من رئيسهما عن حكمة القرار الذي اتخذه، وتكهن أحدهما أنها ستُقتل قبل أن تلحق بالطائرة، لكن الرئيس عبَّر لهما عن أنه يتنوي فعلًا على سفرها، هو لا يريد قيل وقال، فلو علمت منظمات حقوق الإنسان المراقبة لهم منذ ستة أشهر بالأمر لن تتركهم وشأنهم، وأنه عندما سمع ما في داخل شيرا فكر ألا يعطيها الفرصة لأن تقيم بالمدينة الفاضلة؛ فلا يأمنون رد فعلها، ولا يأمنون شرها، وأفضل حل هو النزول عند رغبتها في الرجوع إلى بلدها، ولما خرجت شيرا عرفت أنها ضمن الخمس فتيات الذين وافقت السلطات على طلبهنَّ في الخروج من المدينة الفاضلة، خمسٌ فقط يضحكون بهنَّ على المنظمات الحقوقية ونظرات العالم لهم، فتكف المنظمات عن السماع للمعارضة بحجة أن السلطات الشيوعية تتخذ حلولًا للحد من اللا إنسانية، ولكي يؤمن بعض الناس بأمل الخروج من البلد لو رغبوا في ذلك.

عادت شيرا إلى منزلها وأخبرت أهلها بأمر قبلوها في العودة، ولم يعترض أحد أبويها المنشغلين بانهيار أخيها ألدو النفسي.

«الاكتئاب هو ألا نعرف طريقنا»



فى كلية الحقوق وبعد الموافقة على رحيل شيرا بعام واحد استقبل عميد الكلية الطلبات المقدمة من الطلاب الجدد الذين يرغبون في الالتحاق بالكلية، لم تكن الكلية تقبل إلا الذكور، ولم تكن تقبل إلا من يجيب على أسئلتهم بطريقةٍ تقنعهم وترضيهم ليقبلوه، وكانت الكلية تأخذ الطلاب المتفوقين، والذين يتمتعون بقدر من الذكاء، وكان من بين الورق المقدم ورق باسم ألدو جورج بشري، وتذكر عميد الجامعة أين سمع بذلك الاسم من قبل، وأين رأى ذلك الشكل، ولقد تذكر الخمس فتيات اللاتي سمحت لهن السلطات بالرحيل، فأتى بجريدةٍ قد نشرت أسماء الخمس فتيات من بينهنَّ شيرا جورج بشري توأم ألدو جورج بشري، والذي به شبه كبير من أخته، وأدخله العميد إلى المقابلة الشخصية وسأله:

- هناك سنة كاملة فرق بين البكالوريا ومحاولتك للدخول إلى كلية الحقوق أين كنت بها؟
- كنت مريضًا بالاكتئاب لأنني لم أكن أعرف طريقي، بثباتٍ قال ألدو.
- وهل عرفت طريقك اليوم؟ سأل العميد.
- نعم، طريقي هو أن أحافظ على وطن أجدادي، وأن أسعى جاهدًا لرفع راية المدينة الفاضلة، وأخرج كل هويةٍ لا تمت لها بصلة خارجها.
- كيف تقول ذلك الكلام وأختك هاجرت من تلك المدينة ولم تؤمن بشيءٍ فيها؟ قال العميد.



- إن كانت أختي هي شيرا الغير مؤمنة بالمدينة الفاضلة فصديقي كان أندرو الذي أثبت إيمانه بطريقةٍ عملية، وهي دفع روحه مقابل الدفاع عن هويتنا، وأنا أتخذ الآن من منهج أندرو مذهبًا؛ لعلي أستطيع أن آخذ حقه من هؤلاء الذين ليس لهم حق في بلادنا، واقتنع العميد بردود ألدو الثابتة، والتي تبدو أنها عن إيمانٍ بالقضية، وما رأى حلًا أفضل من أن يقبله بالكلية محفزًا إياه وداعمًا ومهنئًا له على موقفه العظيم مع بلاده.



«وتمسك بما آمنت به للنهاية»



كر وفر في البلاد بين قوات المحتل وبين قوات المواطنين أصحاب الحق في بلادهم، المواطنون الذين استطاع بكر وكارم وبمساعدة ياسين وسمر ويوسف ومسلمة حتى والدة نائل ونعمة ورضوانة وباهر وبسنت إضافة إلى أحلام وسهيلة أن يُفهِّموا الكثيرين منهم أن الدفاع عن عرض ذلك الوطن هو شرف ودين وشهادة، وأن الإسلام عزة وشرف لكل من ينتمي إليه، واستطاعوا في الفترةِ الأخيرة توعية الكثيرين من أهل البلاد الأصليين.

الأغرب أن المواجهات لم تكن عادلة، كانت بالحجارة من قِبَل المواطنين الأصليين، وبالبنادق والرصاص من قِبَل المحتل، وعلى الرغم من ذلك كانت دولة الاحتلال تُرعبهم الحجارة الملقاة عليهم حتى لو من طفلٍ صغير، وكان المواطنون أصحاب الحق ممن عرفوا حقوقهم لا ترهبهم رصاصتهم، أسبوع متواصل من الكر والفر، لكن الشيوعيين لم يتركوا الأمر لأصحاب الوطن يدافعون عنه ولو بحجر، وإنما شددوا الإجراءات، وضيقوا عليهم عيشتهم، وأصبحت الاعتقالات لا حد لها وبالجملة وبعشوائية سواء كان له في النضال أو لم يكن له فيه، والافتراءات على السيدات المحجبات، والرجال ذوي اللحى أو أي إنسانٍ يظهر أيًا من مظاهر هويته.

وفي المعتقلات أصبح الأمر لا يطاق، ولقد جاءوا في اليوم السابع من الكر والفر وأذاعوا بين الناس خبرَ أنهم سيخرجوا بعض المعتقلين من بينهم صفية قاتلة الجنود، لم تكن تصدق والدة صفية الأمر، وكادت أن تطير فرحًا، لكن الجميع اتفقوا على رأي واحد؛ هو أن ذلك الخبر ما هو إلا دهاء منهم لإظهار والدة صفية، ونصحوها ألا تذهب للمكان



الذي أعلنوا عنه أنهم سيتركون صفية فيه، لكنها لم تستطع صبرًا على ذلك؛ فاقترحت مسلمة أن تذهب والدة صفية إلى بيت ياسمين صديقتها والقريب جدًّا من المنطقة التي أذاعوها في بيانهم، وأخيرًا اقتنعت والدة صفية بالأمر، وذهبت قبل الموعد بيومين إلى دار ياسمين، ورغم الفقر الظاهر على المنزل وأصحابه إلا أنهم استقبلوها بأفضل ما يكون، ولقد مر اليومان كمر السنين، وجاءت الساعة الخامسة مساءً، الساعة المنتظرة لظهور سيارة المعتقلين والتي قالوا أن صفية ستكون بها، ثم جاء صفير من بعيد أسكت الجميع لسماعه، حتى والدة صفية وقفت خلف النافذة تراقب الوضع، ثم اقترب صوت الصفير إضافة إلى صوتٍ يجمع الناس ليروا ما الذي سيحدث، وتوقفت سيارة عسكرية بالقرب من دار ياسمين وقريبة من نظر والدة صفية التي تراقب الوضع من النافذة، ثم وقف صفان من العساكر وجمعوا الناس، ثم أمر قائدهم بإنزال صفية، وما إن نزلت حتى خرجت والدتها من دار ياسمين لا تستطيع صبرًا، ورغم محاولات الجميع لإيقافها إلا أنها رفضت الأمر، وما إن احتضنت ابنتها حتى وجدتها تفقد توازنها وذلك بسبب طلقة أصابتها في ظهرها بأوامر القائد، ولم يتركوها حتى بعد أن قتلوها؛ وإنما أخذوا جسدها من حضن والدتها الغير مصدقةٍ لما حدث لها، ثم مثلوا بجسدها وقطعوا يديها وقدمها اليسرى، وفصلوا رأسها عن جسدها، ولم يستطع أحد إيقافهم، ولم تستطع والدة صفية أن تظل على توازنها وفقدت وعيها، فلم تستطع مسلمة صمتًا وقالت بصوتٍ باكٍ:

ـ سنقتص منكم كل حقوقنا عند قاضي السماء، وحينها لن تستطيعوا هروبًا من عقاب العظيم.



ولقد سمعها رئيس القوات ودفعها أرضًا وضرب رأسها ببندقيته، ثم صرخ في الجميع:

- إن وجدت منكم اعتراضًا فسيكون الموت في مواجهتكم، لتحافظوا على حياتكم بنسيان أمر شعائركم، هويتكم، دينكم، كل تلك الأمور التي لا معنى لها.

ومن بعد كلمات رئيس القوات انسحبت السيارة العسكرية حاملة معها الرئيس وجنوده ومن خلفهم دعوات المظلومين لله، والأيادي المرفوعة للعظيم الطالبة بخيط أملٍ لإخراجهم مما هم فيه.



«من أقسى نوبات الحزن أن يسود وطنك الكآبة»



ها هم أبناء الوطن الشرعيين يدخلون في نوباتٍ من الحزن بسبب عجزهم عن مواجهة الظلم، ألا تستطيع الدفاع عن حرماتك من نساء وطنك هذا كفيل بإدخالك في نوبةٍ من اليأس، الجميع محبط ولا يستطيع قولًا واحدًا لتطييب خاطر والدة صفية، الصمت ساد الموقف، والجميع اتخذ من البكاء وسيلة لإخراج كل ما في قلبه من أسى، وظلت تلك الممارسات الوحشية من قِبل الشيوعيين لأكثر من عام بعد قتلهم لصفية، فلم تكن صفية الأخيرة التي حدث لها ذلك عن طريق الشيوعيين؛ وإنما الكثيرات والكثيرون من أبناء الوطن الأصليين تعرضوا لوحشيةٍ ممن لا حق لهم، المهم أنه بعد ذلك العام وصلت رسالة من المنظمات الدولية إلى السلطات الشيوعية تخبرهم أنها ستزورهم لترى الأوضاع في مدينتهم، المهم أن رئيس السلطات ظل يُفكر مع أعوانه عن السر وراء تلك الزيارة خاصة، إن المنظمات الدولية دائمًا ما كانت تغض الطرف عنهم، إلا أن علموا من أحد الذين يعملون في تلك المنظمات، وأحد الذين سيزورهم أن هناك الكثير من رسائل الإدانة وصلت إليهم بشكلٍ رسمي عن ممارسات العنف التي يمارسونها ضد البعض، وأنهم كانوا يغضون البصر عن كل ما يقرأونه من أخبارٍ عن عنفهم على وسائل التواصل الاجتماعي بحجة أن تلك الأخبار ليست مصادرها سكان الوطن، ومهما قيل لهم أن أصحاب الوطن ليس لديهم إمكانية التواصل الاجتماعي لحرمانهم من دخول أدوات ذلك إلى بلادهم لم يكونوا ليستجيبوا، أما الآن الوضع مختلف؛ فالشكاوي جاءت من قِبل سلطاتٍ لا يجوز معها إلا أن تقوم بزيارةٍ إليكم لرؤية الوضع لديكم، ولما سألوه عن النصيحة التي يقدمها إليهم كي لا يهيج الرأي الدولي عليهم، أخبرهم أن عليهم إيقاف ممارسات العنف ولو لفترة.

في مدارس برهان كان قد تخرَّج يوسف في عام مقتل صفية، وتخرجت من المدارس مسلمة في ذلك العام الذي من المفترض فيه وصول تلك المنظمات الدولية، يوسف إلى الآن لم يستطع دخول كليةٍ يرغبها أو حتى لا يرغبها، لقد كان ذلك صعبًا على الذين ما زالوا يتمسكون بهويتهم الدينية حتى بعد خروجهم من مدارس برهان، ولقد حدث ذلك الشيء مع مسلمة، فلم تقبلها كلية على الرغم من أن أغلب من كانوا بمدارس برهان قُبلوا بالجامعات؛ وذلك لأنهم بينوا عدم تمسكهم بهويتهم ودينهم، أما مسلمة ومن قبلها يوسف لم يحظوا بثقة المسؤولين لقبول أوراقهم بالجامعة؛ وذلك لأنهم كانوا دائمًا ما يعترضون على ممارسات العنف ضد المسلمين، علاوة على أن السلطات الشيوعية لم تنسَ كلمات مسلمة حين قُتلت صفية، لم ينسوا صلابتها وهي تقول: «سنقتص منكم كل حقوقنا عند قاضي السماء، وحينها لن تستطيعوا هروبًا من عقاب الله العظيم».

واليوم جزاؤها على كلماتها، اليوم كل الجامعات ترفض قبولها.

بعد عدة أيام علمت مسلمة من بسنت أن المنظمات الدولية ستزور مدارس برهان باعتبارها مدارس ذات قيمة تقبل جميع الفئات الموجودة بالوطن دون التمييز بينهم على أساس الهوية، وطبعًا دون الإفصاح عن أن هناك حصة تُسمى التحضر لإزالة هوية كل من ضدهم، وغسل أدمغتهم، ولقد طلبت مسلمة من بسنت إدخالها للمدرسة في ذات اليوم، ولقد وعدتها بسنت أن تفعل ما في وسعها لتلبية رغبتها، وفي اليوم المقرر استطاعت بسنت إدخال مسلمة إضافة إلى ياسمين ويوسف، لكنها لم تستطع إدخالهم أي من الفصول وإنما احتجزوا في غرفةٍ تحت السلم



للأغراض الغير مستخدمة، وقد شعرت مسلمة باليأس لشعورها أن كل ما في رأسها لن تستطيع تنفيذه، وما استطاعت مسلمة حينها أن تمسك دمعها، وظلت تردد يا الله أعد إلينا كرامتنا، يا الله أبعد عنا كل ذلك الأذى، لن نستطيع وحدنا فمد يدك إلينا يا ربنا، كلماتها أثرت في نفس ياسمين ويوسف فتبعوها بالبكاء، وما هي إلا لحظات حتى فتح باب الغرفة عليهم امرأة أربعينية شقراء، مدت يدها إلى مسلمة وهي تتألم وتقول: «ما الذي بك وما الذي أدخلك هنا؟»، وخرجت مسلمة وهي منهارة، ثم أخرجوا كلا من يوسف وياسمين وأدخلوهم غرفة استقبالهم، وكاد برهان أن يموت غيظًا، برهان الذي وعد السلطات الشيوعية ألا يحدث في مدارسه أثناء تلك الزيارة ولو خطأ بسيط وكاد مندوب السلطات أن يقتلهم بعينه، لكنه لم يستطع أن ينطق بكلمةٍ واحدة.

- هل أنتم من طلاب المدرسة؟ سألت المرأة الأربعينية بإنسانية.
- كنا، لكننا الآن خريجين المدرسة ولا نستطيع الالتحاق بالجامعة، بصلابةٍ قالت مسلمة.
- لماذا؟ سأل رجل صلب طويل القامة يبدو عليه الضيق من دخول مسلمة واقتحامها الزيارة، ويبدو أن ذلك الرجل هو صديق السلطات الشيوعية، والذي أخبرهم بما تنتويه المنظمات.
- لأننا مواطنون درجة ثالثة، لا حق لنا في شيءٍ لمجرد اختلافنا مع السلطات في الهوية، وعلى الرغم من أننا أبناء ذلك الوطن الشرعيين لا نستطيع أن نمارس عقائدنا بسهولة، وحتى الجامعة لا نستطيع الالتحاق بها، وكاد أن يصرخ بوجهها



صديق السلطات الشيوعية لكن المرأة الشقراء التي معه والتى تبدو رئيسته أوقفته قائلة: «أعتقد كل إنسان من حقه الحرية»، فصمت الرجل وأكملت الشقراء كلامها موجهة إياه إلى رئيس مندوبي السلطات الشيوعية قائلةً: ما هي إجابتك على ما قالته الفتاة؟

- لا رد لي سوى أننا سنقبل أوراق التحاقها بالكلية التي ترغبها ورفقائها في الحال أمامكم، قال الرجل بذكاء.

وسنتابع نحن ذلك الأمر بأنفسنا، بذكاءٍ أشد أجابت المرأة الشقراء تحسبًا منها أن يوافقوا أمامهم، ثم من بعدها لا يفعلون شيئًا، ثم وجهت الحديث إلى مسلمة ورفقائها سائلة عن الكلية التي يرغبون الالتحاق بها، فما ترددت مسلمة في الإجابة وقالت: «كلية الحقوق»، فبُهت رئيس مندوب السلطة وقال: «ولكن...»، ثم صمت مترددًا فيما سيقوله، فقالت المرأة الشقراء: «ولكن ماذا؟ أنت ذكرت لي أنكم مع الحريات ومع احترام المرأة وضد أعمال العنف»، ولم يستطع الرجل إلا أن يوافق على إلحاق مسلمة ويوسف وياسمين بكلية الحقوق متوعدًا لها في قلبه ألا يتركها تفوز بفعلتها.



«لتؤمن بإنسانية الآخر»



كل كلمات التهديد والقمع قيلت لمسلمة ويوسف وياسمين قبل بدء دخولهم كلية الحقوق بسبعة أيام، وصمتت مسلمة عن الرد عنها فكل ما يهمها الآن هو إدخال قدمها في الكلية، وخاصة بعد أن خرجت المنظمات من بلادهم وعلموا فيما بعد أنهم كتبوا تقريرًا جيدًا بالنسبةِ للسلطات الشيوعية، وأن الشيوعيين نجوا بأفعالهم وعادوا من جديد في إفساد الأرض، ولقد وجدت مسلمة أن كل الكلية من الذكور كما كانت تسمع من قبل، ولقد وجدتهم من فئة الشيوعيين والمسلمين الذين تخلوا عن هويتهم الدينية والعربية وأصبحوا يمارسون الحرية دون قيد دينٍ أو تقاليد.

وأول محاضرة لها كانت للدكتور ميخائيل أستاذ القانون الدولي، ونظر لها باستهتارٍ ثم وجه الحديث إلى مسلمة بقوله: طوال حياتي أؤمن أن العدل للرجال، وأن الحق لا تستطيع الفتيات ممارسته لأن عاطفتهن أشد، وأنا أعتقد أنكِ حمقاء في محاولةِ خطف الكرسى الذي تجلسين عليه في تلك الكلية التي لا تليق بكِ.

ولما سمع من في القاعة وصف مسلمة بالحمقاء اشتد ضحكهم عليها؛ فثبتت مسلمة إلى أن هدأت القاعة وقالت: «إن الحق له قبلة واحدة يا سيدي، وأنا أدرك تلك القبلة جيدًا، فعلى سبيل المثال أدرك أن عين الظلم أن أحتل بلادًا ليس لي حق بها، وأن أسيس أوطانًا وفق مصالحي، وأن أضرب بهويات الآخرين الحائط ما لم تتفق مع ما أزرعه في نفوس الآخرين»، واشتد غيظ ميخائيل ونزل من على منصته وصفعها على وجهها، فظلت واقفة ثابتة وقطعت صمت القاعة بقولها: «وإنني الآن أدرك أن عين الحق هو معاقبتك من الجهات المختصة على ما



فعلته بي، لكننا ولأننا مظلومون رغم أننا أبناء الوطن الشرعيين لن نجد من يحنو على كرامتنا ويردها إلينا».

اندهش كل من في القاعة من كلمات مسلمة، حتى أن بعضهم نظر إلى الآخرين مصدومين من جرأتها في قولها، وانسحب ميخائيل من المحاضرة ولم يتحدث إلى مسلمة أحد من الحضور، والتفَّ حولها كل من يوسف ومسلمة يواسيانها في تلك الإهانة التي لا تستحقها، وبعد خروج كل الطلاب من القاعة وجدت مسلمة شخصًا يقترب منها ويقول: «أنا ألدو طالب بالفرقة الثالثة، وقد حضرت تلك المحاضرة لما عرفت أن هناك فتاتين بها، وذلك حدث جلل بالنسبة لكلية الحقوق»، ثم مد ألدو يده جهة مسلمة ليسلم عليها؛ فمد له يوسف يده مسلمًا؛ فاحترم ألدو عدم رغبة مسلمة في مد يدها، ولقد عبر ألدو عن إيمانه بكل كلمةٍ قالتها مسلمة، وعن إيمانه بالإنسانية أيًا كانت هوية الشخص، ثم صمتَ قليلًا وقال بيأسٍ: «إنني شيوعي لا أُنكر ذلك، لكنني على الرغم من ذلك مسجون بطريقةٍ أخرى، إننا مسجونون لعبوديتنا ولقوانين السلطات التي لا نؤمن بها، عبيد لكل ما نؤمر به حتى وإن كانت دمائنا هي المقابل، نحن تعساء بطريقةٍ أخرى، إنني أغبضكم لأن نضالكم حرية، والمعتقلات لكم ما هي إلا خيط أملٍ لإرجاع حقوقكم، والذي مررتِ به في صغرك يا مسلمة ما هو إلا طوق نجاةٍ لوطنك».

- من من عرفت ما حدث لي في صغري؟ قالت مسلمة.
- من شيرا أختي، كانت منتسبة إلى المدرسة العسكرية، وقد حكت لي عنكِ يوم رفضتِ أن تأخذي الكعكة منها.



وعلى الرغم من انتهاء اليوم في الجامعة إلا أن بؤسه لم ينتهِ بالنسبةِ لمسلمة خارجه، ففي مساء ذلك اليوم سمعوا صوتًا منهارًا على الباب يترجاهم بالخروج، فخرجت مسلمة ومن خلفها سمر ونعمة، وإذ بهنَّ يجدنَّ قدرية، قدرية التي جلست أرضًا في الشارع ووضعت يدها على رأسها وقالت: «لم أكن أدرك أن بكرًا هناك، الذي أبلغني قال لي نصًا أن كارم ومسلمة هناك»، لم يفهم منها أحدٌ شيئًا، وأدخلتها مسلمة إلى المنزل، وأتت لها والدة نائل بكأسٍ من الماء حتى استطاعت أن تتحدث وأخبرتهم أن برهان صديق مفيدٍ باغتها بالذهاب إليها ليلة أمسٍ وأغراها بكثيرٍ من المال مقابل ذهابها إلى قسم شرطةٍ تابع إلى السلطات الشيوعية؛ للإبلاغ عن تجمع كارم مع مسلمة إضافة إلى سمر في منزل كارم في التاسعة من يوم الجمعة؛ ليجعلوا الشباب ينقلبون على تعليمات السلطات، وأغراها بالمال والانتقام من سمر التي أخذت ابنها بكر غصبًا عنها، ثم انهارت قدرية وهي تقول: «كنت أراقب الموقف من بعيد إلى أن رأيت السلطات تُخرج بكرًا قبل كارم ومجموعة من الشباب لا أعرفهم، لقد اعتقلتهم السلطات وسأكون أنا القاتلة الحقيقية لبكر»، ثم ضربت رأسها في الحائط وابتعدت عنها سمر بعدما كانت بالقرب، لا تصدق أن زوجها اعتُقل من قِبل من لا رحمة بقلوبهم.

بعد ما يقرب من خمس عشرة دقيقة اقتربت قدرية من مسلمة تعتذر منها على حرمانها من ميراثها، ووضعت المال كله بين يديها سواء حقها أو ما ليس لها به شيء، وما استطاعت مسلمة إلا أن تقول لها: «اليوم المال لا نفع له، لقد وقع الأمر وعلينا أن نستعد لنضالٍ أكبر من اللهث خلف المال».



حقيقة الأمر أن بلاغ قدرية لو كان قد جاء قبل ذلك بأسبوع واحد، وتفكير برهان في الانتقام من جديد جاء مبكرًا؛ لكانت مسلمةً وأحلام وسمر الآن بين يدي السلطات الشيوعية، ومن كرم الله على الثلاثة أنهم غيروا موعد لقائهم بالفتيات من الجمعة إلى الخميس، وقدموا الموعد من التاسعة وجعلوه السادسة؛ لأن بعضهن تضرر من تأخر الموعد، ومن فضل الله أن أحلام ذهبت إلى مسلمة؛ لتطيب خاطرها لما علمت ما حدث بالجامعة، وما أنقذ يوسف هو غضبه على ما حدث في الجامعة وعدم استطاعته الذهاب إلى منزل كارم.

ولما صمت الجميع عن القول وعن التفكير وجدوا صوتًا من غرفة مسلمة يبكي ومنهار، وإذ بها أحلام التي قد انسحبت لشعورها بالهزيمة مرة أخرى، وهرولت نحوها مسلمة واحتضنتها فقالت أحلام:

- كنت متخيلة أن الله أنقذني من الحزن إلى الأبد.
- الله يختبر صبرك، وما أجمل أن تدعي الله لزوجك بالصبر على الأذى، ثم من بعدها لنفكر بهدوءٍ ما الذي علينا أن نفعله؟ قالت مسلمة.ـ «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور»، صدق الله العظيم، قالت والدة نائل تلك الآية وهي تتذكر كل ما حدث لنائل، ثم نزلت دمعة منها وهي تقول: «لنحتسب كل ذلك الوجع عند الله، سيعوضنا خيرًا وسننجو بلطفهِ من كل ذلك الذي نمر به».

في ذلك الوقت انسحبت قدرية من الموقف واتجهت نحو الباب، ولقد رأتها سمر لكنها لم تستطع إيقافها، قلبها لا يقدر على تجاوز كل ذلك الذي فعلته بها وببكر فلم تُوقفها، وحينها سقطت قدرية من



طولها بعد أن فتحت الباب، لم تثبت سمر واتجهت نحوها، ثم استدعت يوسف آمرة إياه أن يستدعي الدكتور ياسين لأنها لن تستطيع لما بها أن تفعل شيئًا، ولما وصل ياسين أخبرهم بما لا يقبل الشك أن قدرية أصيبت بجلطةٍ دماغية تستدعي دخولها المستشفى، ولقد أتى يوسف بسيارةٍ لنقل قدرية إلى أقرب مستشفى، لكنه لم يستطع هو والحضور فعل شيءٍ؛ فلما رجع يوسف بالسيارة كانت قدرية قد التقت بربها قبل أن تنتقل إلى المستشفى.



«وحده تاريخ المناضلين قابل للفخر»



نوفمبر الحزين جاء عليهم وهم لا يستطيعون عملًا ضد كل ذلك الذين يسمعونه عن الأذى الذي يحدث للمعتقلين، وتهديدات يتلقونها إن تعرض أحد لهم ولمدينتهم فسيكون الرد موتهم، شهور من القسوة من عدم استطاعتهم معرفة أي شيءٍ عن بكر وكارم، وجاء الخامس عشر من نوفمبر سيئًا على كلٍّ من بسنت وباهر؛ فقد جاءت إخبارية إلى برهان أن المعتقلين الذين كانوا مع بكر وكارم هناك من هم بالصف الثاني والثالث الثانوي من مدارسه، وهناك خريجون من نفس المدارس، وهذا أمر يدعو للريبة، ولقد استطاع برهان الخروج من تلك الورطة بإخبارهم أن ذلك الأمر ليس بيده؛ فهو يفعل مع الطلاب ما يؤمر به، ولقد دخل قلب برهان الشك، فمن ذلك الذي يستطيع تسيس الطلاب ضد سياسة المدرسة غير ابنته وابن أخيه، ولما تحقق برهان من الأمر تيقن أن الطلاب الذين اعتقلوا والذي عرف أسمائهم من السلطات كانوا ملتحقين بالفصول التي يُدرس لها كل من بسنت وباهر، ولقد استدعاهما برهان بكل ما امتلك من غضبٍ وسألهما عن يدهما في الأمر؛ فاعترفت له بسنت بكل ما فعلته هي وباهر للحفاظ على عقول شباب المسلمين من الضياع، وللحفاظ على هويتهم الإسلامية ضد المعتدين، ولقد صرخ برهان بوجههما وأقسم أنهما إن لم يكونا أبنائه لما تردد في الإبلاغ عنهما، وحاولت بسنت كثيرًا إفهامه أن العظمة والغنى الحقيقي هو النضال من أجل الوطن، وأنه لديه الفرصة للوقوف بمدارسه ضد الشيوعيين، لكنه عاندهم وطردهم من قصره متوعدًا إياهم إن حاولوا الاقتراب من مدارسه فسيكون الموت لهما.



- وحده تاريخ المناضلين يا بسنت قابل للفخر، قال باهر تلك الكلمات لما وجد منها انهيارًا لقسوة قلب والدها، ثم ربت على كتفها وقال: «لنا الله».

ولم يخجلا كلاهما من اللجوء إلى بيت نعمة، ولقد حكيا لهما ما حدث، فما ترددت سمر بإعلانها أنها ستجلس في غرفة مسلمة مع أحلام التي لم تعُد إلى منزل كارم بعدما استولت عليه السلطات، ولم تعُد إلى رضوانة بعدما طلبت منها نعمة أن تترك أحلام مع سمر لتقويا بعضهما البعض على الصبر على ذلك الأذى، واقترحت سمر بعد أن استأذنت نعمة أن يجلس باهر مع بسنت في الغرفة لحين استطاعتهما تجهيز مكانٍ آخر للجلوس فيه.



«أراها التي لا يجوز أن أحب غيرها»

ـ كيف تراها؟ سألت رضوانة يوسف لما وجدته على حزنٍ كبير بسبب ما جرى لمسلمة بالجامعة.

ـ أراها التي لا يجوز أن أحب غيرها، إنني أحب كل شيءٍ فيها، حتى تلك الصفات التي يعتبرها غيري في غير محلها، وإنني أستحسن شرها وأراه خيرًا، وأرى خيرها لا يوجد في غيرها، وأرى نضالها من أسباب جمالها، ودينها أجمل ما بها، وفخرها بما فعلته أمها من أجلها وهي صغيرة من أسباب عدم استطاعة قلبي إفلات حبها، قال يوسف مجيبًا على رضوانة.

ـ أعتقد أن من تتحدث عنها هي مسلمة؟ قالت رضوانة.

ـ لم أرَ منذ أن كنا صغارًا غيرها، ولم أستحسن من النساء غيرها حين كبرنا، لكنني لا أملك ما يجعلني أقترب منها، الحرب وقلة المال الذي أصبح كله تحت تصرف بكر الذي يعلم الله متى سيخرج، قال يوسف.

ـ الحرب الوحيدة القادرة على إظهار الحب الحق والتمسك به، في السلام هناك رفاهيات الكذب على الآخرين في المشاعر، أما الحب الذي يجعلك أمام الموت بين لحظة وأخرى لن يجعلك أبدًا تكذب في مشاعرك، المال لم يكن أبدًا عائقًا، إن كان الأهل والمحبون يتقون الله فلن يجعلونه معضلة، توكل على الله يا بُني، ولتقم بخطبتها، قالت رضوانة ودب الأمل في قلب يوسف آملًا أن يجبر الله قلبه بمسلمة.



في الصباح التالي ذهبت مسلمة بصحبة ياسمين إلى الجامعة، ولحقها يوسف ولقد كان صباحًا ممطرًا محملًا بالكآبة بقرارت رئيس الجامعة، وإعلان غريب للطلاب المسلمين، وكُتب في الإعلان ما يلي: «على كل الطلاب المسلمين إعلان ولائهم للجامعة التي يدرسون فيها».

ولم يفسر الإعلان كيفية إثبات ذلك الولاء، ولقد تيقنت مسلمة أن ذلك الإعلان الذي أُعلن في كلية الحقوق إضافة إلى الكليات الأخرى ما هو إلا بداية لأمورٍ لن تسلم منها لا هي ولا من هم على شاكلتها.

ثلاثة أيام من ذلك الإعلان وأُعلن كل ما في نفس السلطات الشيوعية، وأخبروا جميع الفتيات المسلمات بالجامعة بفرصة شهرٍ واحد للخطبة من شاب شيوعي، ثم الزواج منه خلال سنة وإلا حُرمن من إكمال دراستهن في الجامعة.

لكم أن تتخيلوا كم اليأس الذي شعرت به مسلمة وقريناتها حينها، ولقد جاء هذا القرار حين شعرت السلطات أن هناك حركات مضادة لهم في الجامعات، وأن تلك الطريقة ستُخرج الكثير من الفتيات المسلمات من الجامعة، ولو خضعت إحداهن للزواج من شيوعي فسيصبح أمر عقلها بين يديه، أما الشباب المسلم فلن يمنعوا الفتيات اللواتي تنتمين للشيوعين من إغرائهن بأجسادهن.

الأمر في البداية كان به مهلة شهرٍ إلى أن انتهى وأُعلن أن فصل الفتيات اللواتي لم تستجبن سيكون خلال الأربع وعشرين ساعة القادمة، لكم أن تتخيلوا حال مسلمة التي رفضت خلال الثلاثين يومًا الماضية عرض يوسف للزواج منها رغم أنها تحبه كما لم تحب امرأة رجلًا من قبل، ولكم أن تتخيلوا حال يوسف ومسلمة تعلن له حيرتها في أمرها، حتى أنها قالت له ذات مرةٍ أنها ستوافق برجلٍ شيوعي حتى يمر العام لعل

الله يُحدث بعد ذلك أمرًا، وكاد يوسف أن يجن من الأمر، لكن مسلمة ترغب في عدم إفلات الجامعة التي تأمل أن تكون سلاحًا لنضالها.

في مساء الليلة السابقة للأربع وعشرين ساعة السابقة للإعلان عن أسماء الطالبات المفصولة لعدم تنفيذهن أوامر السلطات وقواعد الجامعة، بكت مسلمة حتى أن صوتها سمعته سمر وأحلام من الخارج فدخلتا إليها.

- لا شيء أعظم من أن تتمسكِ بدينك يا مسلمة، أنت تعلمين جيدًا أننا لا نقبل أن نفعل ما لا يرضى ربنا، والزواج من غير المسلم لا يرضي الله، ومن الفخر أن تتركي ما لا يرضاه ربنا، قالت سمر.

- إنني أبكي الظلم وعدم استطاعتي تحريك ساكنًا، حتى الجامعة التي كانت أملًا لي في تحريك الأوضاع بعد ساعاتٍ قليلة سأُفصل منها وسأعود لنقطة الصفر من جديد، إضافة إلى حبي الوحيد الذي أكتمه داخلي، والذي قد خسرته قبل أيامٍ لسماعه مني ما لا يستحسنه، قالت مسلمة.

- حبك! قالت أحلام.

ثم أكملت:

- ألم تقولين لي قبل أيام أنكِ لا تحبين يوسف وعليه أن يرى حبه في غيرك؟ما كنتً إلا كاذبة، إنني أراه سندي ورجلي وهبة الله لي، لكنني لن أستطيع البوح له بذلك حتى إن اتخذتُ قرارًا يقيني الفصل من الجامعة، اتخذته دون أن يتألم هو كثيرًا، قالت مسلمة.



ولم تُكمل الثلاثة حديثهن؛ حيث أن نعمة دخلت عليهن تُخبر مسلمة أن هناك شابًا اسمه ألدو مصمم على مقابلتها، وخرجت مسلمة وطلبت منه أن يتحدث أمام أهلها إلا أنه رفض ذلك رفضًا قاطعًا، وأقسم عليها بربها ـإنه لا يؤمن بهـ أن توافق أن تسمعه وحدها في أمرٍ لن تندم عليه، وبعد جهدٍ من ألدو لم توافق مسلمة ورفضت نعمة الأمر بشكلٍ قطعي، أثناء ذلك كانت رضوانة ويوسف في طريقهما إلى دار نعمة ليهدأوا الموقف المتوتر بين يوسف ومسلمة، لكن الأمر لم يزدَد إلا سوءًا حينما وجد يوسف ألدو خارجًا من دار نعمة؛ فاستوقفه لشعوره أنه ما أتى إلا لشيءٍ يخص مسلمة، ولقد طلب يوسف من ألدو تفسيرًا لوجوده في دار رضوانة؛ فصمت ألدو عن الرد ووعده أن الأمر لن يتكرر ثانية، فدخل يوسف منفعلًا على مسلمة يطلب منها تفسيرًا لوجود ألدو في بيتها؛ فأخبرته أنه كان يطلب يدها ليقيها الفصل من الجامعة، فما كاد أن يسمع ذلك يوسف حتى غضب وغادر دار نعمة وهو يُحذر مسلمة من الموافقة على الأمر، وألا تنسَ دينها الذي هو على اسمها.

وجاء الصباح وقد صلت مسلمة فجرها وخرجت إلى الشارع لتغسل حزنها بهواء الفجر، وتوجهت نحو كليتها منتظرة اسمها في كشوف المفصولين، وقبل الإعلان عن الأسماء كان قد وجدها ألدو عند الباب الشرقي من الجامعة، وتحدث معها لبعضٍ من الوقت، ومن بعدها توجها معًا نحو البيان المذاع من قِبل رئيس الجامعة بشأن الأسماء المفصولة، ولقد ذُكر اسم مسلمة في أول أسماء المفصولات على مستوى الجامعة ككل؛ فاعترضت هي بدورها على ذلك القرار، ولما سألها عن حجتها في اعتراضها قالت بصلابةٍ: «إنني مخطوبة لألدو ولن تمر تلك السنة



إلا ونحن متزوجون»، باغتت مسلمة الجميع بقولها، وصمتت ياسمين صديقتها التي أذيع اسمها في البيان من المفصولات، ولم يهمها إذاعة اسمها بقدر دهشتها لما سمعته من مسلمة، ولم تستطع صمتًا ووصفتها بأنها بائعة القضايا التي لطالما أوهمتهم أنها تناضل من أجل وطنها، وعلى الطرف الآخر ولما سمع يوسف قول مسلمة صفعها ثم تركها مع ألدو وهو يقول لها: «لن يتم لكِ هذا العبث بصفتي وليِّك أفهمتِ؟».

«اليوم نحن لسنا بخير، ويوم يُرفع رأس أوطاننا
سنكون أسعد شعوب الأرض»



- اليوم أنت نادم على ما فعلت بحق السلطات الأعلى منك شأنًا وقوة، اليوم أنت نادم على تصرفاتك التي أوصلتك إلى المعتقل، قال رئيس المعتقل موجهًا حديثه نحو بكر وتارة نحو كارم.
- اليوم أنا فخور بحريتي، بصلابةٍ أجاب بكر، ثم من بعدها قال كارم:
- اليوم نحن أقوى منكم، اليوم أُدرك جيدًا أنكم تخافون منا حتى وإن كنَّا دون رصاص، اليوم نحن بإيماننا أعلى إنسانية منكم وهكذا يكفينا.

واستشاط رئيس المعتقل غيظًا من ردود بكر وكارم، وأمر بعزلهما في زنزانةٍ خاصة بعيدًا عن بقية المعتقلين إلى أن يأمرون في شأنهم من قِبل السلطات، ولقد بكى بكر يومها من شدة الكرب وشعوره بالذل، ولقد قواه كارم بتذكيره بأن هؤلاء الظلمة عصابة يُفصِّلون مما لا يمتلكون وطنًا ليكون لهم حتى وإن كان بالسرقة، وسيأتي يومٌ نعلمهم فيه ألا يسرقون ما ليس لهم، نحن لسنا بخير اليوم، ويوم يُرفع رأس أوطاننا سننسى كل مُرٍ مر بنا، وسنكون أسعد شعوب الأرض، وهدأ بكر إثر كلمات كارم، وظلا ليلهما ينشدان كلماتٍ عن الحرية والكرامة والصبر على الوجع من أجل كرامة الوطن.



«وظن أنه الفراق»



«أقسم لكِ يا ياسمين أنني ما خنت الله، وإنني لن أفعل ما لا يرضاه، أنتِ صديقتي الوحيدة التي لطالما قاسيتي ما قاسيته أنا يومًا، عليكِ أن تدركي جيدًا أن الظروف تُحتِّم علينا فعل ما كنا لا نتخيل يومًا أن نفعله ذات يوم، شدي على يدي وثقي بي ودعي أمري من ألدو جانبًا الآن»، هذه كلمات مسلمة التي توجهت إلى ياسمين بعدما غادرتها في الجامعة، ولقد حاولت ياسمين أن تتفهم الموقف كاملًا من مسلمة، لكن الأخيرة أخرت ذلك اليوم ليوم تراه مناسبًا، ولقد هدأت ياسمين إلى حدٍ ما بذهاب مسلمة إليها على وعدٍ من الأخيرة بإفهامها كل شيءٍ حين يحين الوقت المناسب.

وعادت مسلمة إلى دارها لتجد يوسف بانتظارها، ولقد حاولت إفهامه أن الأمر لن يتعدى أمر الخطبة من ألدو، وأن ألدو ليس بشخصٍ سيء، وأن به جانب إنساني لن يجعله يتمادى معها في شيء، لكن يوسف لم يقتنع بكلمات مسلمة، إنه مقتنع أن ألدو على غير دينهم، وأنه لن يمانع أبدًا في أخذ شرفها إن أُمر بذلك من قِبل سلطاته، وأنه عبد للتعليمات التي لا ترحم أحدًا، «إنهم جلادونا أو نسيتِ ذلك يا مسلمة؟»، ختم يوسف رأيه بذلك السؤال.

- لأنهم جلادونا ولأنني لا أنسى ذلك أبدًا، لن أموت دون أن أفعل شيئًا، قالت مسلمة.
- لم أقل لا تفعلي، فقط أقول افعلي ما يرضي الله، اليوم اتخذتِ خطوة الخطبة، لا أحد يعلم غدًا ما الأوامر وما الذي ستتنازلين عنه من أجل القضايا؟ قال يوسف.
- أعدك لن أخذلك في، قالت مسلمة واستسلم يوسف لقولها.



قبل امتحانات نهاية العام أصدرت السلطات الجامعية بأنه لا فتاة ستدخل الامتحان إلا بعد أن تمارس الحب مع خطيبها، وإلا ستعتبره السلطات يتذاكى عليهم بأمر الخطبة كي يمر عليه امتحانات ذلك العام بسلام، يتحدثون عن السلام وهم لا يدركون منه شيئًا، ولقد علم يوسف بالأمر وكاد أن ينفجر حينما علم أن مسلمة وافقت على الدخول إلى غرفة وحدها مع ألدو، والمزعج أكثر أن مسلمة لم تُقدم حجة عقلية مقنعة ليوسف، ولقد حاول يوسف ونعمة أن يوضحا لها كثيرًا أن النضال من أجل الوطن لا يكون بمعصية الخالق، لكنها لم تستجب ونفذت ما أملته عليها السلطات الجامعية، وخرج ألدو يومها من الغرفة وأعطى السلطات تقريرًا بأن مسلمة نفذت بيسرٍ ما طلبه منها، ولقد سلمت السلطات بذلك بأن مسلمة أصبحت تابعة لهم، حتى أنهم تركوها فيما بعد دون مراقبة، وذلك حدث بصورةٍ أشد حين علمت السلطات أن مسلمة لا تفارق ألدو، حتى أنها وبعد الجامعة وفي كثيرٍ من الأحيان كانت تذهب معه إلى بيته، ذلك التصرف الذي قسم قلب يوسف وأدماه وجعله في كثيرٍ من الأحيان يقسو عليها، وفي بعض الأحيان يتناقش معها عقلًا ودينًا، وفي الأخير كان يقاطعها، ولم تكن مسلمة تستجيب له، كل ما كانت تقوله له أنها لا تفعل ما يغضب الله، ولقد قال لها كثيرًا أن دخولها منزل رجلٍ غريب وجلوسها معه بغرفةٍ وحدهما هذا ما لا يرضاه الله، فكانت تصمت عن الإجابة، وذات مرةٍ وبعدما يأس يوسف من إصلاحها قال لها: «هذا فراق بيني وبينك»، فقالت له بثباتٍ: «وظن أنه الفراق»، طلب يوسف تفسيرًا لما قالته مسلمة، لكنها صمتت عن الرد، فغادرها وظل يُقسم على الله أن يرد مسلمة إلى هداه وأن يردها إلى صوابها.



«واضمم يدك إلى يدي للننقذ ذلك الوطن»

جلسات مطولة بين ألدو ومسلمة واستعراض بينهما لأهم الأشياء المتفقين عليها، كلاهما لا يرغبان في الدماء واللا إنسانية التي تحدث، وكلاهما متفق أن المعتدي هو السبب الرئيسي في تلك الدماء، وفي صباح يوم مشمس وأثناء جلوسهما معًا لاحتساء كوب من القهوة في كافيه الجاًمعة قال ألدو:

- لماذا تخافين مني على الرغم من إفصاحي لكِ بكل ما يخصني من كرهي لأعمال عنف الشيوعيين؟ ومن أنني غير متفقٍ معهم في الاعتداء على أوطانكم.
- لا أخشى منك، كل ما أنا بصدده أنني أحاول وضع يدي على الطريق الأصح الذي من المفترض أن أسير عليه لرد ذلك الاعتداء، قالت مسلمة فباغتها ألدو برغبته هو الآخر في الخروج من أوطانهم، وأن شعوره أنه مسجون في وطنِ غيره، وخوفه من الموت في كل لحظةٍ هذا لا عدل فيه، وأفهمها أن كثيرًا من فتيات وشباب الشيوعيين لم يعودوا يرغبون في الفر والكر، كل ما يرغبونه هو العيش في وطنٍ آمن، إنهم ينشدون الحياة الطبيعية كما كل المواطنين في كلٍ البلاد المحترمة.

وعلى الرغم مما قاله ألدو إلا أنه اعترف لمسلمة أن هناك عددًا كبيرًا أيضًا ممن انجرفوا وراء القيادات الشيوعية، وآمنوا بأن الحق هو الحفاظ على المدينة الفاضلة، وأن تلك الأرض هي أرض أجدادهم، كما أعلن ألدو أنه لم ينسَ يوم رحل عن أرضه الأصلية مقابل إغراء الثراء، وأنه بعدما كبر وبحث في كتب التاريخ عرف بما لا يدعو للشك أن الوطن الذين هاجروا إليه ما هو إلا حق أصيل لأصحابه، وأنهم ليسوا بذوي حق.



ولما شعرت مسلمة بصدق حديث ألدو فتحت له قلبها، وأفهمته أن الطريق المثالي للخروج من الأزمة هو الثورة على كل ذلك الظلم وقول لا في وجه كل من لا يؤمن بالإنسانية ويدعو إلى الدماء، وأن الطريق إلى الحق يستدعي كثيرًا من الصبر وكثيرًا من العمل وكثيرًا من توعية العقول، ولقد وعدها ألدو أن يُفهِّم كل أقرانه من الشيوعيين والذين يرغبون في الهجرة والعودة حيث جاءوا، لكن السلطات تمنعهم من حقهم في قول كلمة «لا»، وحقيقة الأمر أن ألدو لم يتأخر كثيرًا في بدء الخطوات التنفيذية لتوعية كل من يثق بهم أنهم رافضون لقمع السلطات، ولقد اتخذت مسلمة الإجراءات اللازمة لتوحيد الصف في سريةٍ تامة؛ فقد دعت ياسمين وسمر وبسنت إضافة إلى أحلام وحتى نعمة ووالدة نائل ورضوانة وبسنت وباهر الذين رحبوا بما دعتهم إليه، إلا يوسف الغاضب من موقف مسلمة مع ألدو، مسلمة التي ذهبت إلى يوسف وقالت له: «اترك أمري مع ألدو ليحكم فيه الله، وشد يدي واضمم يدك إلى يدي لننقذ ذلك الوطن من كل ذلك الظلم»، ولم يكن في وسع يوسف إلا وضع يده في يد مسلمة، وأصبح الجميع يُحمسون طلاب الجامعات والخريجين وحتى طلاب الثانوي والإعدادي على الثورة، وعلى إنشاد السلام، وعلى التخطيط لإيصال أصواتهم في وقتٍ محدد للعالم ككل؛ ليجعلوا الجميع ينطق بلا للدماء، ونعم لرجوع الحق لأصحابه.

ثلاث سنوات يعملون في هدوء، والسلطات الشيوعية غير مراقبة للأوضاع لإشهار ألدو في الفترةِ الأخيرة أنه تزوج من مسلمة، ولقد اعتقدوا أن الأمر بذلك تحت سيطرتهم، حتى أنهم بعد أن تخرجت مسلمة وألدو عيَّنوهما معيدين بالجامعة اعتقادًا منهم أنهم إذا فعلوا ذلك



فسيُحمسون الناس أكثر على ترك هويتهم مقابل الثراء الدنيوي، ولم يكن تعيين مسلمة وألدو إلا داعمًا قويًا ليحببوا الطلاب في شخصيهما، ثم إفهامهم أن الحق هو السلام والإنسانية والبعد عن كل ذلك الظلم الذي يحدث في الأوطان.

ولقد جاء يوم الخامس عشر من ديسمبر، ذلك اليوم الذي خرجت فيه جموع كثيرة من المسلمين ومن أمامهم ألدو، وما استطاع إقناعهم من الشيوعيين أنهم لن يظلوا على تلك الدماء طويلًا، وذلك السجن الكبير الذين يعيشون فيه لأكثر من ذلك.

وكادت القوات الشيوعية أن تضرب في التجمعات بالأسلحة، إلا أنهم وجدوا الكثيرين من أهليهم يتقدمون الصفوف؛ فتراجعوا عن تنفيذ أمر الضرب، لكن الأمر لم يستمر طويلًا، ونفذت القيادة أمر الضرب، وتحولت الشوارع إلى بحورٍ من الدماء، لكن صوت الثورة لم يصمت، والكل يقول حتى وإن كان يلفظ أنفاسه الأخيرة: «نعم للا إنسانية ولا لكل تلك الوحشية».

ولما وجدت مسلمة وألدو الناس بدأ الخوف يدب في قلوبهم إثر الرصاص بدآ يجوبان الشوارع بمكبرات الصوت ومسلمة تقول: «انشدوا العدل وافتخروا بنضالكم ضد ذلك الظلم»، وألدو يقول: «لا تتخيلوا أنكم أحرار، أنتم عبيد التعاليم وعبيد مسك السلاح، قولوا لي هل تستطيعون التحليق في السماء والذهاب إلى أي بلدٍ آخر مثل أي مواطنٍ محترم في أيةِ دولة؟».في مساء ذلك اليوم اجتمع الآلاف من الناس مسلمين وشيوعيين بناءً على طلب مسلمة وألدو، وحكت لهم مسلمة كل ما تعرضت له في صغرها من اللا إنسانية، وأقسمت أن الشرف



لها أن تموت وهي تقول في وجه الظلم لا حتى لا يتعرض له جيل جديد قادم، لكن أحد المندسين اعترض على حديثها وقال: «أنا لا أثق بكِ بعدما بعتِ دينك مقابل البقاء مع ألدو، وإطاعة السلطات لإكمال دراستك».

ونكس يوسف رأسه حين سمع اعتراض الرجل وتأييد الواقفون له إلا أن ألدو صاح بالجميع ليسمعونه، وبعدما استقر نظر الجميع على ألدو ونزع باروكة قد ثبتها على رأسه؛ فانسدل شعره خلفه، وأظهر أنوثته، وأول من عرفته هي ياسمين التي قالت: «شيرا!»، فقالت شيرا: «نعم أنا شيرا أخت ألدو»، لقد أنقذت أخي من الموت بالكآبة، أنقذت ألدو من الموت بسبب حبسه في المدينةِ الفاضلة وعدم السماح له بالخروج والرجوع إلى بلده الأصلي، ولما وافقوا لي على العودة إلى بلدي أخرجت أخي بصفته أنا، وجعلته يدعي أنه أنا، وخرج من المدينة الفاضلة في هيئة أنثى، واستغليت الشبه بيني وبينه وعشت أنا في المدينة الفاضلة على أنني ألدو، والتحقت بالحقوق على أنني ألدو، ولما وجدت الظلم بعينيَّ لمسلمة ادعينا أننا تزوجنا لنمنع ظلم السلطات عنها كي لا تموت كما مات حبيبي أندرو بسبب ذلك القمع، ولما ذكرت شيرا اسم أندرو بكت طويلًا؛ فثار الناس من جديد ودبت الحماسة في قلوبهم، ومنهم من اعتذر لمسلمة، وأولهم يوسف الذي صعد إلى المنصة قائلا لها: «الآن فهمت ما معنى وظن أنه الفراق».

- لا فراق يا يوسف، لكنني لم أستطع البوح بذلك لوعدي لشيرا بعدم التحدث في الأمر؛ لأنك تعلم جيدًا أن لو الأمر خرج لما كانت الآن على قيد الحياة، قالت مسلمة.



وأصبحت الشوارع من بعد تلك الأحداث أصواتها تصل إلى عنان السماء: «إنسانية، إنسانية» وآخرون يقولون: «من اليوم لا قمع ولا ظلم ولا أحد سيستطيع إسكاتنا»، وآخرون يقولون: «أيها العالم انظروا إلينا، انظروا إلى الدماء التي تسيل دون ذنب لنا»، وآخرون: «أخرجوا المعتقلين الذين لا ذنب لهم سوى الدفاع عن كرامتهم».

ولقد اشتدت الثورة حتى أن السلطات لم تستطع إخمادها حتى بعد إراقة الكثير من الدماء.

ولقد خرج في تلك الأحداث برهان الذي سُلب عقله لشعوره أن مصالحه وثرواته ستضيع منه بهزيمة المحتل، وظل يجوب الشوارع وهو يقول: «أنتم أغبياء، الشيوعيون أسيادكم»، ولقد تهجم بسلاحه على مجموعةٍ من المسلمين، ولقد أصاب بعضهم إلا أن أفرغ مسدسه، وجراء ذلك قتل صغيرًا بيد والده؛ فدفعه أحدهم فسقط بدماغه على حجرٍ وفارق الحياة.ولقد سمعت بسنت وباهر بما حدث فانهارت بسنت لأن والدها سيقابل ربه وهو على تلك الحالة، ولقد استطاع باهر بعد عدة أيامٍ من تهدأتها، ونصحها بالدعاء له بدلًا من كل ذلك الذي تفعله دون جدوى.

خمسة عشر يومًا من قول لا للظلم، حتى أن بعض السجانين فتحوا أبواب الزنازين للمعتقلين السياسين من المسلمين والشيوعيين لخوفهم من أن يقتلوا على يد المعتصمين حول السجون، ولقد خرج بكر وكارم من بين المعتقلين، ولكم أن تتخيلوا كم المشاعر التي كانت بقلب أحلام وسمر حين رأتا زوجيهما من جديد بعد أن كانتا قد يئستا من ذلك، وعلى الرغم من التعب الشديد البادي على بكر وكارم إلا أنهما انضما



إلى صفوف الثورة، وأمسك بكر بابنه من سمر ورفعه بارتفاع يده وهو يقول له: لتصرخ ولتقول: «الكرامة لأوطاني»، فردد ابنه بصوتٍ عالٍ: «الكرامة لأوطاني».

ولقد استطاعت سمر وياسين فتح عيادة في وسط الوطن لإنقاذ ما يستطيعان إنقاذه من المصابين على يد الشيوعيين، وانضم إليهم الكثيرون من الأطباء والممرضين الإنسانين، ولقد نجحوا في إنقاذ حالاتٍ عديدة.



«اليوم نصر بعد طول صبر»



شهران من المقاومة حتى سمع العالم كله بما يحدث في أوطان مسلمة، ولقد اجتمعت بلاد المسلمين في التنديد بما يحدث في أوطان إخوتهم، ولقد خرج بعض القادة المسلمين يهددون بوقف المصالح مع بلدان العالم إن لم ينجلي الشيوعيون عن أوطان المسلمين؛ لأنها ليست من حقهم، وهناك الكثيرون من البلدان الغير إسلامية لكنها إنسانية أيدت إيقاف الظلم، ولم تستطع السلطات الشيوعية الوقوف في وجه العالم، وأعلنت جلاءها عن أوطان المسلمين في السابع عشر من مارس، وأقيمت الأفراح في الأوطان، وانجلى الظلم، وغادرت شيرا البلاد وتوجهت إلى بلدها الأصلي، وقبل أن ترحل قالت لمسلمة:

- أعدك أن أبحث عن الدين الإسلامي العظيم الذي وهبك كل ذلك الإيمان والثبات على الحق.

- وأنا معكِ في كل ما تحتاجينه، قالت مسلمة.



«فأعينوني»



بعد حوالي شهرٍ من الجلاء نصبت مسلمة في منصبٍ سياسي كبير للبلاد، ووقفت على المنصة تقول: «إن ذلك المنصب ليس حكرًا عليّ، ولن يكون إلا حملًا ثقيلًا لأنه أمانة على كتفي سأحاسب به أمام قاضي القضاة يوم لا ينفع فيه كذب ولا تضليل، واليوم أُذكِّر نفسي أمامكم بقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوموني». فردت عليها والدتها نعمة وبصوتٍ جعل الجميع يلتفت نحوها: «اليوم فهمتُ بُشرى رسول الله لي بكِ».

ولقد حُددت الانتخابات الرئاسية لأوطان مسلمة بعد ذلك الحدث بستة أشهر بعدما أفهموا الناس معنى الوقوف على الحق ومفاهيم الحقوق والواجبات.



«على ألا تظن أن هناك فراقًا بيننا»



«إنني أحبك، وكل تلك القسوة التي أظهرتها لكِ يا مسلمة حين ادعيتِ ارتباطك بألدو ما هي إلا فعل حب، والآن لتقبلي الزواج مني لأعينك وأكون سندًا لكِ، وتكوني مسكني وأماني»، قال يوسف أمام الجميع في بيت نعمة.

واحمر وجه مسلمة خجلًا، ثم استعادت قوتها وهي تقول: «على ألا تظن أن هناك فراقًا بيننا فيما بعد».

ـ كان حمقًا مني حين تخيلت ذلك، وإنني أعتذر عن حماقتي، أحبك، قال يوسف.

ـ وإن قلبي لك كما قلبك لي، قالت مسلمة.

وعُقد قرانهما بعد ذلك اليوم بسبعة أيام وسط دعوات الجميع لهما بجبر الله لقلبيهما.

